
ساحر الكتب
تامر عطوة
السكون
رواية



المسكون



الكتاب: المسكون
المؤلف: تامر عطوة
تصميم الغلاف: كريم آدم
تدقيق لغوي: سارة صلاح
رقم الإيداع: 2016/26882
الترقيم الدولي: 978-977-778-097-1

ن للنشر والتوزيع
20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02 35860372
Noon_publishing@yahoo.com

المسكون

رواية

تامر عطوة





الإهداء

يجب أن تعرفوا جيدًا أن العلاقة بين الناشر والكاتب معقدة لأبعد الحدود فيها من الشد ما يقطع ومن الوصل ما يؤسس.

الكاتب فيها يكون خلف المدفع يجهز لقذائفه الإبداعية ولا يتقيد بأي شيء ويتوهم أن السقف عالٍ لاستيعاب جنونه،

ولكن الناشر هو من يمسك بدفة المدفع، وهو من يعطيه الشعلة ليحرق بها فتيل القذيفة، هو من يتلقى الضربات الموجعة.

هو من يشاركه أوهامه ومخاوفه وتصوراته، ويقوم بدور الطبيب النفسي إن اقتضت الظروف..

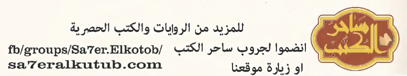
لذلك أهدي هذا العمل لناشري العزيز صاحب دار نون الظلامية..

للأستاذ (حسام حسين)، والذي أسميه بين بين نفسي (لوسيفر) لتاثيره العميق الضاغط على قلمي..

الذي بذل عطاءً لا حدود له، وآمن بموهبتي الواهنة المترددة، بل وأعطاني دفعة المتابعة والتفهم العميق للجنون الطبق لكاتب الرعب.. وشدَّ من عزيمتي بمنتهى الصلابة والتفاعل الإيجابي المشروط بحُسن التذوق والإبهار..

إنه (حسام حسين) الصامت راعي الرعب والقصص المسكونة في مصر والعالم العربي.

تامر عطوة



مقدمة

إن قارئ الرعب لهو من أشد قراء العالم تذوقًا وحساسية؛ فهو يعشق التفاصيل، يتذوق الحامضي من القلوي، لا يبحث عن ألغاز ليحلها، أو عن حبكة تبهره، إنه يبحث عن الديكتاتورية الخام؛ يبحث عن الموقف الدقيق، عن الرجفة التي لا تعرف المزاح، يعرف متى يستمتع بالقهر والانضغاط؛ متى يقرض اظافره تحسبا لضربة فى الظلام؛ متى يفتعل كارثة من لاشيء، إن قارئ الرعب يستمتع بالتلامس الشبقي بينه وبين مخاوفه الأصيلة، بل إنه يقهرها في كل مرة يرتعد أو يتخيل نفسه مكان البطل، إن الرعب ليس في الشياطين والجن والمسوخ والأرواح المعذبة؛ لأنهم بالمقارنة بما يشتهيه قارئ الرعب مجرد ملفات يستحضرها في خياله ويجعل منها حكامًا ظالمين لمملكته، قارئ الرعب هو صديق الظلام وصاحب الظل ونديم البؤس الشجاع، هو القادر على ارتياد الأماكن ومناجاة الأرواح واستجلاب عبق الكوارث لمجرد أنه يريد ذلك، تحية لك أيها الصديق السوداوي صاحب الذوق العميق والبصيرة النافذة، حتى لو لم يفهمك الآخرون، حتى لو وجدت الاضطهاد والطبقية من باقي القراء السخفاء، أنت الحقيقي وأنت الأصل في الحكايات، أنت وجدان الإنسان الأول حين لم يملك تاريخًا مزيفًا يستحضره أو بطولات وهمية يجترها، كنت أنت الأول حين قال لك الجد الأول أن هناك في الأحراش ثمة كيانات تنتظر الشجاع لتقهره وتجعل منه أضحوكة طفولية، أنت يا قارئ الرعب عدوٌّ مقيم للغطرسة والغرور الأجوف، أنت عدو النمطية وميزان اليورانيوم الحساس؛ لأنك أنت وبالتحديد أنت وبالقطع أنت.. أنت البطل.. أنت المسكون..

تامر عطوة

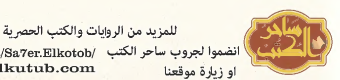
اليوم الأربعاء الثامن من يناير عام ٢٠١٣

الساعة تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل بعشرين دقيقة كاملة
لم يكن الرواق على عادته في الرائحة المائلة دومًا للمطهرات
بل كان ينتشر في الجو هذه الليلة عبق آخر يتميز بالفخامة والأنوثة

كنت ألهث جاريًا وأنا اتشمم ذاك الأريج الفواح في طرقات مبنى أستوديو الهواء في مدينة الإنتاج الإعلام.

موعد البرنامج قد أزف منذ خمس دقائق، وهي المرة الأولى التي أتأخر فيها عن الهواء لهذه الدرجة الخطيرة وغير المسبوقة في تاريخي.

كان الدخول عسيرًا وأنا أتسلل في سربة من باب فندق (الموفينبيك) المجاور للمدينة الخطيرة بعد حصار أتباع (أبو إسماعيل) للبوابات الأمامية طلبًا لرؤوس بعض إعلامي القنوات، خصوصًا رأس (لميس الحديدي، وتوفيق عكاشة وعماد وعمرو أديب، وغيرهم)، وكان من العسير عليّ أنا أن أشرح لهؤلاء المحتشدين الغاضبين أنني أمارس عملي ولا ناقة لي ولا جمل في آراء الإعلاميين السياسية، ثمة أكشاك بُنيت كيفما اتفق كحمّامات عمومية، كما انتشر باعة المشروبات والأطعمة أمام بوابات المدينة، وتحوّل المكان كما لو كنا في (ميدان التحرير) بكل تفاصيله، فيما عدا أن الموجودين من أصحاب اللحى الغاضبة فقط، بل إنهم صنعوا لجانًا شعبية لفلترة المارين إلى الداخل، في المرة السابقة جربت أن أشرح لهم أنني أقدّم برنامجًا عن الأبراج، ولكن بمجرد ما سمعوا لفظة (أبراج) لاح في عيونهم اشمئزاز واستهانة ورفضوا مروري لأداء عملي، باعتبار أن الأبراج نفسها حرام ودجل مرفوض منهم، سحقًا للتعصب على كل أشكاله، وتعلمت من زميل لي أن أمرق عنوة من بوابة فندق الموفينبيك المشترك مع المدينة في جانبه الأيمن.



الآن أنا في وضع صعب جدًّا والتأخير يأكل من أعصابي متصورًا حجم الضرر الواقع بسبب تأخُري، الآن أنا داخل الردهات المتشعبة للمبنى الكبير، ألهث جاريا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الزمن المهدور، وما إن وصلت للممر الحاوي لغرفتي حتى اقترب منّي مُعد البرنامج وأنا افتح باب غرفة تغيير الملابس.

- أستاذ «تامر».. الهوا اتأجل نص ساعة.

نظرت له غير مصدق؛ فهي أيضًا المرة الأولى التي يتم فيها تأجيل البث المباشر لأن الكاميرات أصلًا تعمل تلقائيًا حتى ولو لم أكن موجودًا

ابتسمت قائلًا:

- من حظي..

ثم تشممت الهواء متسائلًا:

- هي إيه الحكاية؟ الكوريدور مِفَحفَح النهارده بالبرفيوم؟

نظرلي المعِد وهو شاب في مقتبل العمر غريب الشكل والهيئة إذ يبدو كطفلٍ قصيرٍ هزيلٍ له نظرة شيخ عجوز متغضن الجبين بنظارته السميكة ونظرات عينيه التحتية تتسرب أسفل عدسات عيوناته السميكة. قائلًا بحروف أنفية خنفاء:

- ماهو (الهوا) اتأجل بسبب الريحة دي بالذات.

نظرت له بغير فهم، فاقترب منّي متصنعًا الخطورة.

- فيه أربع ستات منتظرينك في الكوريدور، وعاملين قلق جامد أوي بسببك.

اندهشت لدرجة الابتسام وتوهمت أنه يمزح بغلاظة، ولكنه دفعني برفق إلى داخل الغرفة، وأغلق الباب وراءه بهدوء، ونظرلي قائلًا في خطورة وتشفٍّ لا مبرر له:

- أستاذ «تامر» واضح إن فيه مشكلة كبيرة بسببك، لأن الستات دول دخلوا الكنترول وقالوا للمدير لو مش هنشوف «تامر» حالا هنعملكم مشكلة كبيرة

اندهشت بجدية وسرحت بأفكاري في أن أكون قدمت نصيحة قاتلة مثلًا أو تسببت في مشكلة ضخمة إثر اقتراحاتي التي أقدّمها للمشاهدين في التعامل مع مشاكل العلاقات.



فأنا أمارس عملي كمذيع وخبير أبراج وروحانيات في إحدى القنوات الفضائية.

ومن الطبيعي أن يسألني المشاهدون وأنا أجيب بالحلول والاقتراحات.

لأن عملي هو العلاقات من خلال الأبراج والروحانيات وتقديم الخطط البديلة لفشل أي علاقة، وكنت أتمتع بشعبية كبيرة نظرًا للنجاح الكبير للبرنامج.

لعلّي تسببت بكارثة وجاء وقت الحساب والعقاب

نظرت للمعد كما أنظر لبرقة تحت المجهر قائلًا:

- وبعدين؟؟

نظر لي نظرة أقرب ما تكون للتشفي التلقائي، قائلًا:

- حضرتك اخرج قابلهم لأنهم شافوك وانت داخل، وحاولنا نكلمك في الموبايل عشان تستنى شوية بعيد، لكنه كان مقفول.

استشعرت الخطورة والقلق ولكن وكعادتي في هذه المواقف أفضّل المواجهة والخلاص السريع مهما كانت العواقب.

أزحته من أمامي وقمت من فوري خارجًا من الغرفة ومتوجهًا حيث يجلسن.

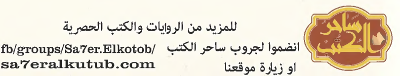
وقبل أن أصل إلى المنعطف الجالسين وراءه هاجمتني تلك الروائح مجددًا، بخليط من العطور الشرقية والفرنسية الباذخة.

لأجد أربع نسوة متشحات بالسواد الدسم الفخم يجلسن في المنتصف على مقاعد جلبت خصيصًا لهن من الكنترول.

ما إن ظهرت لهن حتى هببن واقفات بشيء من الارتباك واقتربت مني أكبرهن عمرًا فاتحة ذارعيها كوطواط مصوغ بالذهب واتسعت ابتسامها لتملئ عيناها المكحولتان بعنف الأيلاينر الأسود، تفوح منها رائحة شرقية زاخمة لجيوبي الأنفية ومختلطة بألوان وجهها الفاقعة، واحتضنتني بأمومة وبادرتني قائلة وهي تربت على ذراعي:

- يا روح قلبي أنت يا (عطوة)

وقبلتني على وجنتي وأنا اجول بنظراتي رغمًا عنّي للأخريات اللائي اقترين منّي متتابعات في سلام بالأيدي فقط.



هن سيدات في أعمار بين العشرين والثلاثين أو أكثر، يحملن جمالًا مختلطًا بالتنوع كأنك ترى لوحة وجوه عديدة للزينة في كتالوج شركات التجميل.

أما السيدة الكبيرة فكانت كأنها أمهن مثلا أو عمتهن، في منتصف الخمسينيات.

- عايزاك في موضوع ضروري.

هكذا بادرت الأم بعد المصافحات والسلامات.

نظرت لها باستغراب قائلًا برسمية مصطنعة

- خيريا مدام؟

نظرت لي السيدة بضحكة فيها شبح الخلاعة والتمكن، قائلة بحاجبيها اللذين لا يهدآن أبدًا:

- لاااا، بقوللك إيه احنا بنحبك وجايينلك عشان أنت ابن بلد وهتفهمنا، بلا مدام بلا موزموزيل خلّي البساط أحمدي كده (سسسس).

كانت (السسسس) هذه تختم كل كلماتها تقريبًا بطريقة مؤذية لأي مستمع، ولها رنين ممزوج بطرقعة العلكة في فم المتصابيات وصاحبات أقدم مهنة في التاريخ.

ضحكت رغمًا عني وتذكرت أنني إعلامي يملك بعض السُّلطة والشعبية على متابعيه، كما أنهن لسن عدوات ولا جئن طالبات عنقي، إنهن مجرد معجبات يريدنني في نصيحة أو مشكلة، وهذا ليس بجديد عليّ، ولكن اقتحامهن نفسه للأستوديو كان مبعث قلقي.

ربما ذلك كان أيضًا مبعث قلق العاملين في الأستوديو، كذلك أمن المدينة مشغول تمامًا بالاعتصام المبروم أمامه ولن يستجيب لنا في طردهن.

- بس أنا عندي (هوا) هيخلص بعد ٣ ساعات.

- وماله هنستناك وأهو نتفرج على الحلقة من الكنترول.

وافقت على ارتباك؛ فليس لي سيطرة على غرفة التحكم ولا يدخلها إلا العاملين بها.

وتركتهن متعجلًا لأعود لغرفة تغيير الملابس لأجهز نفسي للحلقة.



وقبل أن أدخل وجدت المعد يبتسم في ارتباك، فناولته شلوت على ردفه النحيل قائلًا:

- مشكلة هه؟ استني عليّا يا برج الحوت يا وسخ، أنا هعلمك تنقل المعلومة برجولة ازاي.

كنت معتادًا على أن أنادي الناس بأبراجهم لأنني أعاني من مشكلة نسيان الأسماء بشدة ووجدت الحل في الأبراج لأنها تتيح لي تواصلًا ناعمًا بلا أي مسببات للحرج من نسيان الأسماء للناس من حولي فضحك المعد بارتباك، ولاذ بالفرار من لساني المشهور (بالزفارة).

أما النسوة الأربعة، فلم أكن أعرف أنني أقف فعلًا وبسببهن على حافة الجرف الشيطاني بلا أي مبالغة، وأنني لن أعود أبدًا لسابق عهدي بنفسي بعد مقابلتهن.

***

الأربعاء ٢٨ نوفمبر ٢٠١٢

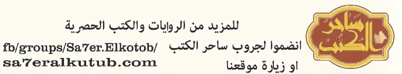
تقلبت المرأة تحت الأغطية مستشعرة برودة تجتاح ظهرها.

هكذا شعرت بلسعة الصقيع وهي نائمة إلى جوار زوجها، الساعة تقترب من الثالثة صباحًا والبرودة تغلف أحلامها، رفعت بتلقائية حرف الغطاء ونشرته مجددًا ليشمل جسد الزوج النائم وجسدها أيضًا واقتربت بردفها تتحسس جسده الدافئ دومًا.

كانت في حالة بين النعاس واليقظة حينما رد عليها فراغ الفراش بهبة باردة جوفاء.

مدت يدها تتحسس تفاصيل جسده، ولكن مكانه شاغرٌ بلا أي وجود.

انتابها الجزع، وقامت نصف جالسة على فراشها لتجد أن رجُلَها غائبٌ عن رقاده الجبري. زحفت لحرف الفراش متصورة جسده مكومًا على الأرض خصوصًا أنه يعاني من شلل رباعي إثر جلطة دماغية قاسمة.



لم تجد جسده، استفاقت أكثر لتدرك كامل الموقف الغريب.

أين ذهب المشلول ؟؟ وكيف قام من فراشه، وكيف لم تشعر به؟؟

كان لا يغادر الفراش أبدًا إلا في أوقات الاستحمام الجبري، وبمساعدة شاب متخصص في العلاج الطبيعي يأتي للمنزل ثلاث مرات أسبوعيًا.

أما هي فتقوم على رعايته وتغيير حفاضاته النشادرية متحسرة على البلل الشامل لكل الجاذبية القديمة والفحولة الميتة، ومتأففة من خدمة لا تعرف متى ينبلج عنها صبح الراحة، مجبرة هي نافدة الصبر تتعامل معه بجفاء وقنوط وصمت كبير

فهي المُهرة الناعمة الزغب المطروقة بعيون كل الفحول حولها، وهي من اقتنته من بينهم جميعًا، وبعد إصابته لابد من التظاهر بالجَلَد والصبر حتى يتثنى لها الخلاص دون ذبذبة تدوي عن أخلاقها أمام الجميع. أما هو فبات عبثًا منبعجًا طريًا لا يسد فجوات الحب المنداح من مسامه المخملية.

انخلع قلبها ذعرًا متصورة أنه ملقى كجثة هنا أو هناك لن يسكت الناس سيقولون إنها من قتله وتخلصت من عبئه، حتمًا هكذا الناس سيفكرون.

أضاءت الحجرة باحثة بهيستريا في أنحاء غرفة النوم الباهظة المطعومة بالمذهبات والأحمر الساتاني، أين الرجل؟ أين..؟

هرعت للخارج لتجد الشقة الفخمة غارقة في الظلام المتقطع بأضواء الشارع والسيارات المارة والبرد يعلن عن صموده أمام التدفئة النسبية العامة للشقة، ثم.. ثم.. ثم تناهى إلى سمعها المتوتر، صوتٌ أشبه بالخرخرة يأتي من الحمَّام المقابل لغرفة نومها..

صوت ماء ينهمر من الدش..

ذُعِرَت أكثر

مستحيل أن يكون زوجها في الحمَّام

فهو مقعدٌ فاقدٌ للنطق والحركة منذ حوالي تسعة أشهر

إذًا من فتح رشاش الماء؟




اقتربت من الحمَّام

صوت الماء واضحٌ يزيد من برودة الجو

الباب كان مواربًا غير مغلق

وقفت أمام الباب متصلبة لا تستطيع التفكير ولا الإدراك والجو ينذر بصقيع يجمد نخاعها داخل عظامها، ويورثها رعشة إجبارية اجتاحها فعلًا.

مَن في الداخل؟ مَن يستحم عندها ليلًا؟ وأين العاجز المشلول؟

مدت أصابع مرتعشة لتدفع الباب برفق وتوتر كاد أن يقضم من أطرافها..

فعلًا الماء يهمر من الدش مطلِقًا رذاذًا باردًا وشبورة محدودة. لكن على لا شيء

حوض الاستحمام فارغ بلا أي جسد

أوسعت شق الباب أكثر لتكشف باقي مساحة الحمَّام الواسع. فتحت الباب ببطء حَذِر في لحظات حسبتها دهرًا لن يمر.. ليخترق عينها مشهد لم تستوعبه أولًا ولن تنساه أبدًا؛ فأمام المرحاض مباشرة.. المشلول كان في وضع الانكفاء ساجدًا وضامًا كفيه لوجهه عاريًا كما ولدته أمه وتظهر تفاصيله بجلاء المصيبة؛ تجتاح جسده زرقة البرودة العامة للجو.

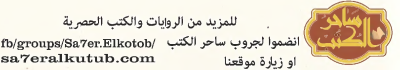
دق قلبها بعنف وتحبب جلدها كالأوزة، تخلت عن ذعرها واقتربت لترى ما حل به، وقبل أن تصل له بخطوة اهتز جسده وقام بتصلب؛ فتراجعت بعنف وكادت أن تسقط على ظهرها، لقد قام نصف قومة رافعًا كفيه كأنه يدعو، ثم انكفأ مرة أخرى معاودًا السجود.

الصدمة وعدم الفهم جعلاها تتجمد ناظرة للمستحيل.. لتجد زوجها يكرر الركوع والسجود أمام... أمام... أمام المرحاض

هل ما تراه حقيقيٌ فعلًا؟

هذا المشلول كان يصلي بمنتهى الخشوع.. في الحمَّام..!

***



الخميس، الأسبوع الأول من يناير ٢٠١٣

تبًّا.. لقد نسيت ملف أوراق التحاليل والفحوص الطبية التي قمت بها منذ أيام، بينما أقود سيارتي باتجاه طبيب النساء والتوليد الذي يتابع حملي المتعب، لقد شدد عليّ ألا أنسى تحليل «الـRH»؛ لأنه يشك في نجاح حملي في جنيني إذ أنني سالبة والجنين موجب ولابد أن هذا سيؤثر تمامًا على إتمام الولادة بنجاح، وأنه توجد مشكلة كبيرة إزاء ذلك، لقد تضاعف توتري إزاء نسياني هذا.

وها أنا ذا اقتربت من العيادة في (وسط البلد)، ولابد من الرجوع مرة أخرى إلى حيث شقتي في حي (حدائق الأهرام) وهي مسافة لو تعلمون مرهقة وبعيدة، خصوصًا مع الفوضى العامة الجاثمة على أنفاس شوارع القاهرة والخوف من إعلان حظر التجوال مرة أخرى، إبان حكم الإخوان بين مؤيد متغطرس ومعارض منتصب الهمة والرفض وفوضى عارمة وغياب أمني مقصود.

ولكن لابد من العودة سريعًا واختزال الوقت بسرعة قبل أن يحين موعد الطبيب المعالج.

عُدت أدراجي لشقتي وأنا ألهث من طول المشوار الذي تضاعف بسبب النسيان والشرود الذي بتّ أعاني منه في الفترة الأخيرة.

أولجت المفتاح في الباب ودخلت مسرعة لغرفة نومي وأنا اعتصر ذهني، أين تركت أوراق التحاليل؟ آه إنها في خزانة ملابسي، دلفت مسرعة لغرفة نومي، لأجد مشهدًا أقل ما يوصف بأنه شنيع ولا يُصدَّق؛ فعلى مقربة من الشرفة وجدت شقيقتي الصغرى جالسة بين ساقي زوجي ويمارسان شيئا ثقيلًا مركّزًا من العَهر والإباحية..

تصلبت في مكاني في ذهول جامح غير مصدقة أساسًا، بل إن نفسي كانت تكذّب تمامًا ما تراه عيني، لدرجي أنني أشفقت عليهما هم من الارتياع والصدمة.

وراقبت ردة فعلهما بطريقة ثنائية الأبعاد ورفض داخلي صارخ لما أراه، لابد أن هذا فيلمًا أراه على شاشة وليس حقيقة.. فها هي شقيقتي الصغرى وزوجي يفعلان الخيانة مزدوجة النصل، والاثنان يدفعانه في لحم صدري بكل قسوة.



ماذا أفعل؟؟ هل أنهار؟ هل أصرخ وأسبب فضيحة لزوجي وأختي؟

اندفعت الدموع قاهرة جهازي العصبي، وأصبح تماسكي يهتز ككابل مقطوع عالي الفولت ومغموس في مياه المطر..

وقبل أن أنبس ببنت شفه

وجدت زوجي يقوم من استرخائه ويتوجه حيث أقف بكل هدوء، ويرفع يده صافعًا إياي بقسوة قائلًا:

- لو سمعت صوتك هدفنك بالحيا.

***

الخميس ٨ يناير ٢٠١٣

انهيت أخيرًا من حلقتي على الهواء مباشرة، أشعر بإعياء حقيقي، وبأن خلايا مخي ترفض التركيز في أي شيء آخر، أنتم لا تعرفون معنى أن تقابل الجمهور على الهواء مباشرة، وأنه لو تعلمون جهدٌ كبيرٌ جدًا.

لملت أوراقي وساعدني فنيو (الأستوديو) في خلع سماعاتي وميكروفوني.

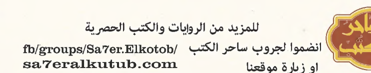
أشعر بإنهاك حقيقي من تركيزي السابق مع المشاهدين الذين أحبهم وأكنّ لهم وافر الاحترام والتقدير، ومع كل نهاية للحلقات كنت أشعر براحة نفسية مقرونة بصداع التعب والتركيز.

نسيت - جزئيًا - أن هناك أربع من النساء المتخمات بالعطر ينتظرنني خارجًا.

وبمجرد خروجي من البلاتوه وجدتهن واقفات مبتسمات في حبور وإرهاق من طول الانتظار أيضًا؛ فثلاث ساعات داخل (الكنترول) ليس بالأمر الهين.

- يلا يا حبيبي أنا عازماك على (الفطار) عندي (سسسس).

هكذا نطقت الكبيرة منهن بكل ثقة، وكانت تلازمها حركة مترددة لحاجبيها، أحسبها عادة لن تقدر على مفارقتها إلى الممات.



لا مفر من الذهاب معهن لأنني وعدتهن بالقبول قبل ساعات، ومن ثم لن أحنث بوعدي، خصوصًا أنهن فعلًا انتظرنني كل هذا الوقت، كما أنهن في الأخير مجرد سيدات يطلبن مساعدة وأنا كرجل لابد أن أجيب بكل أريحية وإخلاص.

استأذنتها في دقائق أُلملم فيها أشيائي المبعثرة في غرفة تبديل الملابس.

دخل مساعدي العجيب وغمزني بعينه المكبرة آلاف المرات من تحت عويناته السميكة، إذ تبدو وكأنك تنظر لعين نحلة أو حشرة فرس النبي، كان يترنم بغواية بأنه يا بختي..

ركلته بشلوت ثان بكل ضيق لأن هذا الموقف ستتحدث عنه القناة لشهور ويتندر به العاملون أيما تندُّر، فهذا المساعد العجيب يقوم بدور العجوز الثرثارة وينقل الخبر من هنا إلى هناك كما الذبابة بين كومة وأخرى.

توجهت معهم فيما يشبه الزفة، لخارج البناية لأجد سيارة (تويوتا) ذات دفع رباعي تقودها أحلاهُن وبجانبها مقعد شاغر حيث سأجلس أنا بينما بالفعل تراصت ثلاثتهن في المقعد الخلفي.

ركبت بجانبها فابتسمت بارتباك بينما الكبيرة تهال على قفاي بعبارات الترحيب المغموسة بحرف (السين) اللامع.

- والنبي ده أنا قارية عليك (الفاتحة) عشان ربنا يهديك وتيجي معانا.

ابتسمت مجاملًا وكاتمًا توترًا عميقًا يعربد بداخلي؛ فالوضع ليس سليمًا تمامًا وخصوصًا أننا في الهزع الأخير من الليل والفجر على وشك الانبلاج.

وتوجهت مع النسوة الأربع إلى حيث... لا أدري.

***



اليوم ١٧ أغسطس ٢٠١٢

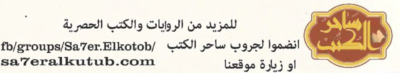
هل تعرفون الخلوة الكبرى؟

هي مسافة أربعين يومًا ينعزل فيها الطالب ليستجيب له الشيطان بالمطلوب والخلوة تعني وحدة وظلام وتَجَس عالي التركيز، ترديد أسماء بعينها في ساعات بعينها، جدولٌ محسوبٌ بدقة الفلك وهمس الشياطين متى يبدأ ومتى ينتهي.

انسحاق وتوسُّل مصحوب بلمسات روحانية وكأن العالم السفلي يختبر صدقك في الانضمام لصفوفه المتعرجة ويتأنى بالقبول المرتقب.

وهكذا رتب الرجل أموره وسرب خبرًا للباحثين عنه بأنه هارب لخارج الوطن بعدما تهاوت على رأسه أحكام القضاء بمجموع سنوات لن يخرج بعدها للنور إلا جثة.

سبع وعشرون عامًا أحكامٌ نهائية صدَّق عليها القضاء، تضاف إلى سنواته الخمس والأربعين، ويالها من صفقة الموت فيها رفاهية حقيقية، ومادام الموت هو الرفاهية لماذا لا ينتقم من الحياة نفسها ويفعل فيها ما يجبرها على لثم طرف حذائه، بث أوجاعه النهائية للشيخ الروحاني الذي كان يذهب له لتيسير أعماله السابقة في الربح والمخاطرة في سوق العقارات، كان يساعده دومًا على قبول أو رفض صفقات العقارات بوصفاته الروحانية، كان ينقده الكثير، ولكنه الآن معدمٌ مثيرٌ للشفقة، أعرض عنه الشيخ لمرات عديدة ولم يتمم مقابلته إلى أن استقبله مرة أخيرة، ارتمى الرجل على قدم الشيخ يلثمها في ذل، أن أنقِذني يا شيخي، افعل أي شيء يعيد لي مكانتي السابقة، فنظر له الشيخ بوجهه الأبيض وعلامات الصلاة موسومة فوق حاجبيه المقرونين، وأشار له بأن يتبعه، فدخل وراءه مكدودًا من الهوان واليأس الكبير ليقدم له الشيخ تعليمات واضحة، لا سبيل للخلاص إلا ببعض الرياضات الروحانية، لم يفهم معتزمًا يرمي إليه الشيخ في أول الأمر، ولكنه أطاع بلا نقاش، ثم ناوله مجموعة من الأوراق فيها تعليمات صارمة، لابد أن ينفذها حرفيًّا بلا أي



مقاومة وأن يتسلح بالصبر والإيمان المطلق بالتفعيل، وعندما تجرأ معتز وهو يرى طلاسم شيطانية تستعمر الوريقات، رد عليه الشيخ قائلًا في نفاد صبر وبطريقة فجة:

- أنت أهبل يا «معتز»، لهوَّ كنت فاكراني بعملك شغلك اللي فات بآيات ربنا، أيوة ده السفلي، ولازم تسمع وتطيع وأنت حاطط في بوقك جزمة، أنت كده كده ضايع، واللي بقولك عليه ده فيه النجاة لك في الدنيا وهيرجّعلك اللي راح وأكتر.

-.......

- لو مش عاوز ماتورنيش وشَّك تاني هنا.

فخطف منه معتز الأوراق وتشبث بها كما يتمسك الغريق بقشة النجاة، وقبل أن يُغادره مسرعًا وخائفًا من تراجُع الشيخ عن مساعدته استوقفه الشيخ قائلًا:

- هتلاقي في الورق عنوان بيت في الفيوم في قرية (.....) البيت ده مِلكي، هتروح هناك وتنفذ الخلوة الكبرى فيه، بعيد عن كل عين، وأي حد يسألك قولّه أنا تبع الشيخ (حشمت الأسيوطي)

وبالفعل سافر إلى عمق محافظة (الفيوم) وبالتحديد في إحدى قراها النائية حيث استقر بدار ريفية تطل على مقابر قرية نائية، إنه بيت الشيخ الذي أعطاه الأوراق قبل أسبوع وحتى يصل إليها كان يسأل الناس عن بيت الشيخ (حشمت الأسيوطي)، أما أهل القرية فكانوا ينظرون له برهبة وتردد قبل أن يرسمون طريقه لهذه الدار النائية.

قبل سفره لمَّ بعض الأغذية الضرورية من معلبات الجبن واللحم السابق الطهي والخبز وأدوية السكر والضغط الذي زرق بهما كحصيلة إضافية لخسائره وسجائر الكليوباترا المحلية لتكفيه أربعين يومًا، وقد عزم أخيرًا على إتمام الخلوة التي طُلبت منه بعد أن أتم خلوة الثلاثة أيام (الخلوة التمهيدية أو الصغرى) والتي قتل فيها وأراق الدماء البريئة، ليثبت للشياطين أنه مستعد.

وصل للمكان المُقفر، ودخل الدار الخربة، وأغلق أبوابها ومنافذها جيدًا ليضحى البيت مظلمًا رماديًّا نهارًا وحالك الظلمة ليلًا.



ثم بدأ في برنامجه الشيطاني بعدما هذّب المكان لإقامة تمتد لأربعين ليلة؛ فقام بتنظيف غرفة كبيرة من الأتربة وبقايا الأثاث المتهالك، وجهّز ما يشبه قناة حفرها إلى جانب الحائط الشمالي ليبول ويتغوط فيها ثم قام برسم أشكال محددة، مثل النجمة الخماسية وبعض الرموز على الحائط بالطبشور الأبيض، وصنع ما يشبه فراشًا من حشوة قديمة بالية وغطّاها بجلباب قديم يخصه، ثم رتب الأوراق المشؤومة والتي يحافظ عليها كما نحافظ نحن على جواز سفرنا وتذكرتنا قبل السفر، ووضع الكتاب الصغير الذي أخذه من الشيخ نصب عينه في مكان مرتفع، كان كتابًا لا يتعدى العشرين ورقة مكتوبًا بخط اليد وبه كل البروتوكول ليبدأ عمله، ثم حفر الأرضية الترابية برسم دائرة متداخل معها رسم هندسي متقن لنجمة الشيطان الخماسية، ووضع على رأس كل مثلث مكانًا ثابتًا لشمعة حمراء غليظة الساق، وصنع لنفسه مجلسًا في يسارها ميممًا شطروجهه لجهة الشمال الفلكي، بعدما حسب مقدار غروب الشمس من الحركة النهارية، الآن يعرف جيدًا أنه مُجهز تمامًا لاستقبال الشياطين، ثم قام بالطقس الأخير وهو لو- تعلمون- مقززًا جدًا ولا يجرؤ على فعله الكثير، لقد تبول ليوم كامل في قنينة فخارية كبيرة ثم قام بتخزين كميات البول بها على مدار النهار ليعود ويستحم بها ويشرب منها القليل قبل أن يبدأ في الاستدعاء الرسمي للشياطين متمثلًا في إلقاء تعازيمه المجدولة بدقة، وناشرًا البخور المكوَّن أساسًا من البراز الشخصي له بعدما أضرم فيه نارًا من الأخشاب المتناثرة في المنزل، ومن بعض قطع الأثاث، الآن يا (عزازيل) أنا لك فضمني لزمرتك واقبلني عبدًا مخلصًا لعالمك الخالد، لقد ركبت القطار، وقعت تذكرة موحدة الاتجاه بلا أي نية للعودة.. نهائيًا.

***

اليوم الإثنين ٣ أكتوبر ٢٠١٢

لا، لم أكن مومسًا أبدًا، ولم أنتم أبدًا لفتيات الليل الرخيصات، بل أنا مجرد مطلَّقة أخرى تتمتع بحرية السهر والحركة كيفما شئت، بعدما مرت سنون كثيرة لا أريد أن أحصيها وأنا في كنف رجل لا يقدرني ويعاملني كخادمة مجانية في بيته، أنتم لا تعرفون معنى الجفاء في الحياه الزوجية، لقد أورثني عقدة جعلتني أمقت كل الرجال، وأكره الجنس الذي يمثل الرابط الأساسي في علاقة الزوجين، لكم تعذبت وطال احتراق ذاتي إلى جواره، كنت أكره أنفاسه وتعابيروجهه المكتلف وهويئن فوقي، كنت أحسب اللحظات كأنها أيام من الكدروالشقاء في ظِل رجل كبيرلا يقدّر، ولكنه مصرأنه يقدِّر، أصبحت أراه كمصاص دماء عجوز يمتص مني رحيق شبابي ظنًا منه أن هذا إكسير شبابه هو، وكنت بطبيعتي عاقرًا لا أنجب ولا أعرف للأمومة سبيلًا، فزاد هذا من شقائي النهائي وتخيلت أن الله خلقني ليجعلني دمية جنسية لزوجي وأنني جئت لهذه الحياة من أجل احتماله في لحظات لهاثه المخلوط باللعاب والتشنج، وتملكني القنوط وحفرعلى وجهي أخاديد التعاسة، وعشت حياتي معه وأنا على بُعد خطوة واحدة من الانتحار، لقد كان.. كان.. لقد كان يجبرني على فعل أشياء كنت أراها مقززة.. مقرفة.. بينما هو يتلذذ بها ولا يمنعه عن فعلها خجل أو حتى احتشام يليق بسنه الكبيرة، لكم بكيت في سري بعد أن يهمد وينام، وكنت أدعو الله طوال الوقت أن يخلصني من عذابي.

أنا.. أنا.. أنا من أسرة فقيرة لأبّ نصف متعلم قرر أن يعيش الحياة بشرفٍ بعيدًا عن أبيه معلم المخدرات الشهيربحيّ الجيارة، كانت لأبي نزعة أخلاقية أورثته رفض قاطع لما يفعله أبوه وباتت العدواة والقطيعة هما المصير المحتوم بين الاثنين، أنجبني أولا ثم توالى إنجابه لذكور باهتين أنهكتهم الحياة بتفاصيلها وضغطها وتفرقوا ما بين عامل أجيروآخر مسافرماركة الذين يموتون في الغربة بكل صمت وهدوء، أما



أمي والتي مازالت على قيد الحياة لا تمثل لي غير النموذج الذي أكرهه في النساء، بتمسكها العقيم بالدين والتشبث بأستار الصبر والجلد والتعصب الأعمى لكل طموح قد يظهر على فتاه فائرة جميلة مثلي، كما أنها لم تكن تميل لي أبدًا بل كانت تفضل مساعدة إخوتي الذكور على التعاطف ولو للحظات معي أنا، وقد رُميت رميًا لأول رجل لمّح برغبته في الزواج مني، وكان يكبرني بأكثر من خمس وعشرين عامًا، لأستقبل ملمسه الذي يذكرني بجلد الضفدع الرطب كثير التحبب، وأرتمي رميًا بأحضانه اللزجة المنبعث منها رائحة طبية متمثلة في المراهم ورائحة الأتير، كنت لا أطيقها- تلك الرائحة- وتملأني بالغثيان والنفور، وعرفت أنني عاقرٌ ولا أمل لي في طفل، وقد فرحت بهذا النقص لا سيما وأنا أمقت صاحب البذرة ذي المحراث الرخو المبتل دائمًا والمنتصب صناعيًا بالمنشطات، كرهت حياتي وكرهت الشرع والحقوق الشرعية وعبثًا حاولت الفرار، ولكن الظروف المادية والضغط الاجتماعي أبقوني في حرمة محراب رجل يملك المال والعقار والملبس والطعام ومصروف الجيب، وبالرغم من كوني عاقرًا إلا أنني كنت أحيض مرتين وثلاث في الشهر الواحد، وقد قالت لي الطبيبة وقتئذ أنني أعاني من اضطراب هرموني ناتج من حالة نفسية غاية في السوء، وأن معدل التبويض متسارع بسبب عيب خلقي في الرحم، وأنني لابد أن اضبط أعصابي وأحافظ على صلاتي وذكر ربي.. وكيف لي أن أحافظ عليهما في ظِل كهل شبق يحب الجماع ويقضي وقته محاولًا ومحاولًا ومحاولًا في جسدي أنا، لن تعرف شعوري إلا من ذاقت المُر في فراش من يحسبون أن الجنس هو رسالتهم اليومية في الحياة، إلى أن قابلت عمتي الأربية – عايدة الغول - والتي كانت تتلذذ بأخبار انهياري في زواجي هذا، وتقارن بيني وبين بناتها المنعمات في العز والخير دونما زواج، كنت أعرف أنها تُسقط فشل بناتها في الارتباط بتكسير نفسيتي أنا، ثم قالت لي في مرة ودخان الحشيش يخرج من أنفها بعد شَدّة من الأرجيلة خاصتها.

- اعمليله سقوة، كام نقطة من الدورة الشهرية في الأكل ولّا الشرب بتاعه متخلصك من قرفه.



ونظرت لها رافضة المبدأ، وكنت أعرف سلفًا أن هذا الموضوع يعجّل بمرض الرجل وفنائه دونما يشعر أحد، ولطالما سمعت في حيينا في دار السلام أن فلانة تخلصت من زوجها بهذه الطريقة، أو أن أهل الزوج اتهموا الزوجة بفعل هذا الإجراء السام.

- لا يا عمتي-حرام - واديني مستورة وعايشة واهو ضِل راجل ولا ضِل حيطة.

فتراقص حاجباها كعادتها بفحش وأطلقت ضحكة ماجنة وهي تقول:

- هيهيهي.. حُرمت عليكي عيشتك يا خدامة، خليه يقعد يفعّص فيكي كل ليلة من غيرلا مزاج ولا متعة ولا خِلفة، يا بت ماتبقيش فقرية زي ابوكي. ده ممكن يزهق منك ويجيب أي بت صغيرة مكانك، الحقي اورثيه قبل ما يرميكي في الزبالة.

نظرت لها بيأس، بان الضعف والتردد على وجهي ، فقربت فمها المصبوغ من أذني وفحت كالحية ذات الجرس:

- هتفضلي كده لحد إمتى؟.. ده انتي وشك عَجّز وبقيتي مَرهْرَطة.. وصدرك بقي زي المنديل الورق، وبعد كده لا هتنفعي لا طبلة ولا تار.. يابت اخلصي وهو اللي زي ده عايز إيه تاني من الدنيا.. كفاية عليه لحد كده، واديكي هتطلعي بالشقة وشوية فكة ينفعوكي..

ورحلت عن عمتي، وبعد أقل من الشهر كان زوجي بالفعل يرقد في مقابر أسرته في سلام.. بفضل بضع قطرات خزنتها من نزيفي الوفير، كنت أضيفها خلسة له في شراب (النبيت) الذي كان يفضّل تناوله مع المشويات ليلًا قبل أن يسحبني لفراشه كالجاموسة، وكنت أراقبه بذعر وهو يتحول لخيالٍ منزوع الروح يومًا بعد يوم.

***

أخيرًا رحل سجّاني للعالم الاخر تاركًا لي ثروة صغيرة قوامها شقة تمليك وبعض النقود بعدما نهشوني أولاده وزوجته الأولى في باقي إرثي منه، ولكني استسلمت درءًا لأي تطورات، خصوصًا وأن الرجل كان تقريبًا سليمًا ومقبلًا على الحياه بسنواته الخمس والخمسين، وبهذا المبلغ وبمساحة مقتطعة من شقتي الواسعة، بدأت مشروعًا صغيرًا لتصنيع الملابس النسائية الداخلية.



أبدعت فيه وأخرجت كل كوامن نفسي في الشعور بالأنوثة.

مشدات صدر وكلسونات وقمصان نوم آية في الإغراء والغواية، لقد استفدت كثيرًا من شبق المرحوم وهوسه الجنسي، في انتقاء ذوقي الخاص في تصنيع تلك الملابس، (يلّا الله يرحمه مطرح ما راح)

وانعكس هذا النجاح على شكلي وشخصيتي، ازددت أناقة واهتممت بنفسي بما لا يقاس كزبونة دائمة في مراكز التجميل الشهيرة بمنطقتي في حي (المنيل).

وتحولت من مجرد امرأة غبراء إلى فاتنة بشعر أسود طويل معالَج ب(الكراتين) ورموش صناعية منتظمة تعوض تساقط أهدابي الأصلية، وقوام مثير متفجر بالأنوثة بعد عملية جراحية أزالت حشوة الدهن من بطني وأردافي وأصبحت قادرة على الجلوس واضعة ساقًا فوق أخرى بعدما حُرِمت من هذا الوضع سنوات طويلة، ولكني بلا أي مشاعر حقيقية، لقد ماتت مشاعري معه أو ماتت مع جريمتي التي دبرت لها، لا أعرف، كنت أراه في أحلامي ينظر لي باتهام صريح، كنت أصحو من نومي مفزوعة لأجده بجواري، رأسه على وسادتي وعيناه مفتوحتان تنظران لي في غضب عاتٍ فأقوم مفزوعة للمرة الثانية، إلى أن تطور الأمر وبت أراه حيًا يُرزَق في بيتي يمارس كل نشاطاته المعتادة، كنت ألمحه خارجًا من الحمّام، أو جالسًا يأكل بشراهة على الطاولة أمام التلفاز لابسًا جلبابه الأزرق، بل إنني أشعر به يغشاني في منامي ويطلب مني ذات الأشياء المشينة والمقززة التي كان يطلبها مني في حياتنا الزوجية السابقة، ولكم أن تتصوروا مدى الفزع الذي أهبّ بسببه من فراشي كل ليلة وأضيء كامل الأنوار وهو يهمس لي بأن أنفذ أوامره الشاذة، كان عناء الوحده المقرونة بأشباح وأطياف جريمتي لا يطاق، وذهبت لشيخ تعرفه عمتي – عايدة - لأشكو له ما وصل إليه حالي فأشار عليّ بالزواج السريع وجاء للمنزل فعلًا ناشرًا بعض البخور ووزع الملح في أركان المنزل والورشة، وذهب بعدما نقدته مبلغًا محترمًا، وقررت وقتها أن أتزوج ثانية كما نصحني، تزوجت من شاب يقل عنّي بعشر سنوات لأتمتع ببقايا أنوثة تركها زوجي السابق عن دون قصد منه طبعًا، كان الجديد أسمرَوسيمًا تعرفت



عليه من جولاتي في سوق الملابس لأروّج لبضاعتي، أغرتني ملاحته وعينه العسلية وقوامه المائل للامتلاء ووجهه الصبوح الناضج بالفحولة الجديرة بسنِّه، كان في ضائقة مالية طاحنة وتودد إليّ لأقف بجانبه ففعلت بعدما لمس اهتمامًا وتجاوبًا منّي، وكانت النتيجة زواجًا سريعًا باعتراض من أمه الأربية وأخته، اللتين نعتتاني بالعجوز وبأنني أماثل أمه في العمروهذا طبعًا غيرصحيح، واختبرت نفسي معه لأجد أنني بالفعل غيرقادرة إطلاقًا على ممارسة دور الأنثى في حياه أي رجل، لقد رحل زوجي الأول وترك انسدادًا مزمنًا في مساراتي العاطفية مما أورثني انسحاقًا وشعورًا عارمًا بالنقص وجعلني عصبية المزاج، وعلمت أنه يخونني مع فتاة كانت زميلة له في محل الملابس، لم أعر للأمر اهتمامًا ولكني أيضًا، لم أسترح لكثرة مطالبه وشذوذه في معاملتي، فقد كان مدمنًا للخمر والحشيش، لا يفعل شيئًا في حياته إلا الجلوس على أريكة بيتي، وأصابعه تبرم لفافة التبغ المخلوط بمفروك الحشيش بتتابع التغذية نفسه، وليس الكيف أو المزاج، ويحتسي يوميًا ما لا يقل عن جالونٍ من الويسكي، ولكم أن تتخيلوا ماذا يحدث بعدها من سباب ومضاربة وتمزيق مخلوط بعلاقة معبّقة بالكحول والتأرجح والنوم الطويل ليصحوويبدأ الكرة في اليوم التالي، وقد تحول لعجل جاموس من كثرة إفراطه في تناول الطعام إثرالمكيفات التي يبتلعها، لقد عرفت الآن أن القدريلاعبني بالمثل، وعرفت أن وحدتي هي طريقي النهائي، فمارست لعبتي القديمة، وبضع قطرات في زجاجة(الويسكي البلاك) ستحيله رمادًا؛ لأنه تجرأ وصفعني وضربني لمرات ومرات، ولابد أن يدفع الثمن بل إنه تطاول عليّ أمام أمه ليثبت لها أنه رجل البيت، لكنه لم يمت بل تحول لخيال مآتة وشحب وتجفف من دهونه، وبات كمريض السل، فرميته لأهله بكل عزة نفس وأنا مصحوبة باللعنات منهم، ليبدأ شعوري في هذا الامتعاض الدائم يخفت رويدًا رويدًا.

نعم تركته بجريمة أخرى، وبشِق الأنفس، وتحررت للمرة الثانية بعدما عرفت - عن طريقه - معنى السهر للصباح في مواخيرشارع الهرم، نعم فالسهرفي تلك المواخير فيه السلوى للمحبطات والثريات من أمثالي، ووجدت ضالتي في ملهى ليلي يدعى(



كازينو ليالي) على بداية الطريق الصحرواي الموصل بين القاهرة والإسكندرية.

أدخن النرجيلة هناك، المطعومة بالخوخ، وأشرب كأسين أو أربع أو ست من الويسكي، وأتابع ما يتم عرضه على مسرح الكباريه بلا ملل، وكأن كل هذا مصنوع لي أنا فقط.

فأنا ثرية إلى حدٍ ما وبتحمل دخلي النابع من تجارتي ومصنوعاتي، أن أسهريوميًا.

أتابع بعيون لا تعرف الكلل كيف يتم إبرام صفقات الجنس بين روّاد الملهى وعاملاته المصبوغات بالأشقر والأحمر والبيستاج، بل إنني كنت أتجرأ وأرمي بورق النقد فئة الخمسة جنيهات على الراقصات كما يفعل الرجال، وكنت أتعجب من أمر الرجال في تكالبهم على اللذة مع مضيفات الكازينو؛ لأن الصفقة المبرومة مهينة للرجل بالذات، فهو يمارس الحب بالنقود، هكذا دونما أي رغبة في الآخر وهي تتركه يعبث بجثتها كخدمة مدفوعة الأجر، شيء في منتهى الغباء، آه لو عرف الرجال كيف تنظر لهم المومس لغرقوا في بحر الخجل ولتزاوجوا مع أنفسهم.

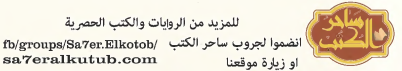
أما أنا فسيدة تجلس وحيده تدخن الخوخ وتشرب الويسكي بلا أي احتكاك مباشر.

كنت أستمتع بنظرات الرجال وهم ينظرون لي كما ينظر الكلب إلى اللحم المعلّق عند الجزار.

لن يجرؤ الكلب أبدًا على النهش خوفًا من سكين الجزار، ولكن من حقه أن يستحلب ريقه متصورًا أن النهش أصبح حقًّا منفردًا له.. ويكفيني هذا جدًّا ويشبعني لدرجة التخمة ويقيني عذاب علاقة فعلية أدفع فيها من دمي وأعصابي ورفضي.

فيكفيني أن أرى نفسي مرغوبة بشدة من الآخرين.. حتى ولو كان هؤلاء الآخرين مجرد... كلاب.

***



اليوم ٢٠ اغسطس ٢٠١٢

لم تكن الأيام الأولى من الخلوة سعيده على الإطلاق، بل الخواء والملل الذي يشوبه شك من فاعلية الإجراء، حاولت الاتصال بالشيخ لأعرف شيئًا، ولكن بلا أي جدوى، كأن هذه الدار مضروب حولها نوعٌ ما من الحظر، أنا فقط وطقوسي السوداء، تخيل أنك تفيق من غفوتك لتبدأ في مراسم وطقوس التواصل مع الشياطين هكذا مثلما تأخذ قهوتك الصباحية، تصحو من النوم لتصب اللعنات على شريعة الله وكتابه حتى تأخذك الطقوس إلى الفاعلية، كل هذا وأنت وحدك تمامًا، الحرخانق لزج في أجواء تلك الدار المتربة ولا سبيل لأي تبريد، حتى الماء النقي ممنوع تمامًا؛ فلابد أن يكون كل شيء ملوثًا نجسًا، ومع تلك الحرارة العالية لاغسطس أشعر بأنني أتحول لجيفة ظارجة، كل هذا وأنا وحدي تمامًا.

فلا مرشدون ولا معينون يخبرونني هل ما أفعله ذا جدوى أم لا؟

أنام نهاري غارقًا في سوائلي الخاصة من عرقٍ وبول وأقضي الليل مرددًا الأسماء المقدسة للشيطان وأعوانه وحملة عرشه وملوك شعابه.

لا لن أقولها هنا حتى لا يستفيد الشواذ أمثالي من امتيازاتي المرتقبة.

فكل شيء له ثمن، وأنا الآن أدفع أفدحها على الإطلاق، شيءٌ ما يحثني على الجلد ويخبرني بأن نهاية النفق المشتعلة دانية لا محالة.

تدنيس المعتقد ليس بالأمر السهل، واستجلاب الشياطين لم يكن من تخصصاتي أصلًا، ولكن الزاوية الحادة التي ألقتني فيها الحياة جعلتني أتخذ قراري بأنني لن أموت مستسلمًا، بل لابد من أن أعقر الحياة من مؤخرتها كيلا أخرج منها خاوي الوفاض.

لا أحد يعرف عني شيئًا وأظنهم لا يهتمون..

إخوتي كلٌ في تجارته وأرباحه وعياله، أما أنا أعاني الأمرّين في الإفلاس والرعب من الإهانة والمستقبل المظلم كواحد من أعمده العِبرة التي يمصمص الناس بها شفاههم وهم يتذكرونني، ثم ينصرفون إلى مشاغلهم.



أنا المليونير السابق وصاحب الجولات والصولات في سوق العقارات

أنا (معتز الجمال) صاحب شركة المقاولات والسمسرة سابقًا، كان الناس يلقبونني بملك شارع فيصل والهرم (وهما من أطول شوراع الجيزة وأكثرها اكتظاظًا بالسكان والعقارات)

وطالب القرب الشيطاني وبائع الحياة برُمتها حاليًا، لا تتسرعوا بالحكم عليّ؛ فأنا كنت مثالًا للطيب من الأخلاق والكرم والعطف، بل إنني كنت على شيء من التدين، ولكن للأسف عرفت عن طريق الزمن بأنني كنت ألقي كل كرمي وإخلاصي في المرحاض.

فقد ذهب كل ما أملك بلا رجعة وحاليًا تنام زوجتي السابقة في أحضان عشيقها كزوجة جديدة بعدما ماتت ابنتي الوحيدة شرميتة، ابنتي الجميلة التي كانت تشبه أمي كثيرًا وأرى فيها كل أحلامي وطموحاتي، ماتت.. لا بل قُتِلَت، وأورثتني مرارًا لزجًا عالقًا للأبد في حلقي، لقد تخلى عني الجميع بلا رحمة.

أهملني القريب وتشفى في الغريب وأصبحت أقل تفاصيل الحياة عندهم تنسيهم حتى السؤال عني، بعدما كانوا يَلعقون حذائي ويتمنون فقط مجالستي..

تبًّا للحياة العاهرة وتبًّا للجميع..

أعرف أن ما أنا مُقدم عليه هو تذكرة سفر بلا عودة، ولكن هل من بديل؟ أم أنكم تنتظرونني أتحول لشحاذ مطارد يستلهم منكم العطف ويستجدي منكم رغيفًا أسدّ به رمقي أيها الخونة معدومو الانتماء

هيهات أيها الحمقى المأفونين

وليكن انتقامي موازيًا لبيع روحي وجسدي لجهنم نفسها.

ولكم أن تتأهبوا لما سيجري لكم.. على يدي..

***



الصباح الباكر ٩ يناير ٢٠١٣

تابعت عيناي الطريق صامتًا، الجو ينذر بأمطار قريبة والصقيع على أشُده، سرحت بأفكاري، لأي غرض تريدني تلك النسوة؟

لابد أنهن يحتاجن إلى مشورة نفسية أو فلكية، ولكن طريقتهن تمتاز بالجرأة المشوبة ببعض الفجور والقوة.

استجبت لهن درءًا لمتاعب قد يسببنها في مكان العمل، خصوصًا وأنهن دخلن بسهولة متجاوزات الأمن والحراسة المكثفة للمدينة.

لابد أنهن واصلات ويتمتعن بامتيازات تجلعهن يمرقن من حصار أتباع (أبي إسماعيل) ثم الأمن الخاص بالمدينة الخطرة، وكأن أكبرهن تقرأ افكاري: فقالت مُقتحمة الصمت العام وأفكاري الخاصة:

- أنا مش قُليلة يا أستاذ تامر، أنا مِرات راجل(لِوا) كبير أوي، ودول بناتي وأقدر أدخل أي مكان أنا عاوزاه.

نعم لابد أن يكون الأمر هكذا، وإلا كيف وصلت لغرفة (الكنترول) بهذه السهولة، بل هددت المسئول هناك أنها إن لم تقابلني ستقلب الأستوديو رأسًا على عقب، لن تفعل هذا سيدة عادية، لابد أنها تتمتع بسلطة ما، ولكن للمرأة لمحة شعبية لا تُخطئها المشاعر. كيف لزوجة (لواء) أن تكون بمثل هذا الاستهتار، وأن تتحرك مع بناتها في سواد الليل وتتمخض العطر وتلبس عباءة سوداء، وكل هذا الذهب والمساحيق واللكنة التي لا تخطؤها الأذن، لابد أن في الأمر شيئًا ما وسأعرفه بالتأكيد.. بعد قليل.

***





أنتم لا تعرفون معنى الإفلاس بعد الرخاء، لا تعرفون الإهانة اللاصقة بسيرتك ونفسيتك، لا تعرفون النظرات المتخمة بالدبابيس في عيون الناس الأقل شأنًا، والنظرات المطعومة بالتشفي من نُظرائك، والنظرات المتعالية ممن هم أعلى منك مقامًا، هل تعرفون طعم الخيانة من الزوجة والصديق، هل تعرفون مرارة أن يموت ابنك أو ابنتك مبخوعًا مغتصبًا؟ هل تعرفون وجه الحياة وهي تتنكر لك عن طِيب خاطر؟

أما الآن فأنا فعلًا أقل أقل أقل من أحقر واحد فيهم، بلا مال ولا أملاك ولا زوجة ولا بنين ولا بنات، حطام في حطام، هكذا تحولت حياتي بَغتة للنقيض، بل زاد الأمر سوءًا أنني أصبحت مطاردًا من الدائنين، يرفعون الدعاوى القضائية ويأخذون الأحكام الغيابية بلا حتى مجرد رغبة في التفاهم، ويدفعون بسخاء لسُلطة تنفيذ الأحكام حتى يتمكنوا من الإيقاع بي، مُطاردٌ أنا مُشرَّد غريب أعيش نمط أقل قليلًا من حياة القِط وأعلى قليلًا من حياة الكلب، تمكنت من الهرب ولكن ليس ببعيد، أنا الآن محصورٌ في شقة صغيرة على سطح أحد البيوت في حي (بولاق الدكرور)، أتحرك بحرص الذبابة، وأبتاع القليل من الغذاء ليلًا وأقضي نهاري مختبئًا بين الجدران خشية أن يتعرف عليّ أحد ويرشد الشرطة إلى حيث وجودي، وحدي أتجرع الإحباط والحزن والدموع المالحة.. نعم الدموع مالحة لقد تذوقتها كثيرًا في نوبات انهياري، وحيد في منفاي القريب من مملكتي، أخاف بل أرتعب من السجن والحصار والإهانة، لن أنسى من كان من المفترض أنه صديقي وأصبح الآن زوج زوجتي، وأنه كان على علاقة طويلة الأمد بها كيف كنت تراني يا صديقي وعطر زوجتي مازال عالقًا في ثناياك النجسة؟، احكِ لي كيف كنت تشعر تجاهي أنا؟ هل كنت تسخر مني في سرك؟، هل كنت تتشفى؟، ألم تشعر ولو مرة واحدة بالخجل أو الضيق؟، أسئلة لن أعرف

إجاباتها ولكنني مُصرٌّ على أن يدفع الجميع الثمن، لن أنسى عملائي وأصدقاء مائدة المزاج الذين تخلوا عنّي بمجرد معرفتهم بسقطتي الطارئة، نعم أعرف أنه بروتوكول ذائع الصيت يتغنى به المطربون الشعبيون، عن غدر الزمن والناس والأصدقاء، ولكن أن تستمع لأغنية شيء، وأن تعيش التجربة شيءٌ آخر، إنه بلا أي جدال شيءٌ يجعلك تندم على كل لحظة كنت فيها طيبًا سليم النوايا ويجعل النار تتأجج في أحشائك دائمًا وأبدًا..

وفي شقة (بولاق الدكرور) كان لي واقعة روحية غريبة أعتقد بأنها رسالة ترحيب من عالم الشياطين، بدأت في طقوس اليأس النهائي وبعت روحي للشيطان، وبفضل وريقات (الشيخ حشمت) وواقعة حدثت لي قررت أن أبدأ. فلا مجال لي في حياة الناس الآن بل أحسب أنني غير مرغوب فيّ على الإطلاق. كنت في عز النهار وقد رجعت لاهثًا بعد مطاردة من أمناء شرطة لم تتم بنجاح لحسن الحظ. فقد جريت من المكان قبل نصف دقيقة من المداهمة بعد أن سمعت (صرخة حادة) في أذني بأن أهرب حالًا وكنت أتجول في منطقتي القديمة بل وذهبت إلى العمارة التي بها مكتبي السابق، وجلست على سلم العمارة قريبًا من باب مكتبي تاركًا لدموعي العنان حسرة على حياتي السابقة.

وحين سمعت تلك (الصرخة) استجبت ونزلت مسرعًا وعبرت الشارع للجانب الآخر لحظة مرور حافلة النقل العام، وثبت فيها بسرعة لأرى جحافل من رجال الشرطة يدخلون بسرعة وحسم إلى بوابة العمارة، ارتفعت دقات قلبي للذروة وشعرت بقبضة ساخنة تعتصره، بل وشعرت بارتفاع حرارتي وكأنني أقف تمامًا أمام لفح النار المباشر، وبدأت أرتعد لدرجة لفتت أنظار الركاب من حولي، وقاومت البكاء بشدة إلى أن وصلت لشقتي الفقيرة، وخلعت كل ملابسي وأنا مازلت على باب الشقة، وقد شعرت أن لحمي على وشك النضوج جراء ذلك اللهيب الذي يحرق جوفي، وهرعت للحمّام أستجدي ترطيبًا وقد بلغت روحي الحلقوم واعتراني الغل والعصبية، لقد

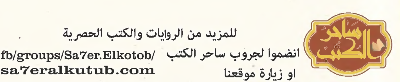


أوشكت على الجنون وانفجرت في بكاء حار تحت الماء ووجدتني أردد بلا هوادة وأنا تحت الدش بأنه:

بعت نفسي للشيطان، بعت نفسي للشيطان..

***

لم تكن مدام (رانيا الصاوي) زوجة جديرة بالاحترام نهائيًا، كانت عشيقة ل(محسن الغندور) شريك وصديق زوجها، كانت عشيقة ضليعة بالعشق والهوى والخداع، تقابل عشيقها جهارًا نهارًا في منزل زوجها الغائب بلا أي خوف، فالزوج غائب في ملذاته بالأرباح المتتالية من حركة العمران الكبيرة التي اجتاحت بعض المناطق بعد ثورة يناير، شُيدت العمارات الضخمة طويلة التيلة، حركة عمران بلا تراخيص ولا رقابة من حكومة شبه غائبة محصورة في صراعات سياسية أشبه ما تكون بمعركة البقاء، وتراكمت الأموال في خزينة (معتز الجمال) من جراء البيع المتتالي للشقق حتى قبل بنائها، كان يأتيها بمكسبه ليرميه في حجرها، كان يعشق سخونتها ودلالها، حتى بعد سنوات من الزواج مازال يراها أجمل امرأة في العالم، لم يكن معتز من هواة المغامرة بل كان ملتزمًا لدرجة أنها هي من كان يدفعه للسهر حتى تتخلص من التصاقه بها، لقد زهدت تمامًا فيه وعزفت عن التلاحم الذي يعشقه منها بل ومال قلبها لصديقه الفحل (محسن الغندور) الذي لم يبدِ أي ممانعة، كان «معتز» يحبه ويثق فيه ويقف إلى جواره في عثراته الكثيرة نتيجة سلوكه المعوّج، بل ويتبناه ليجعل منه رجلًا قويًا في دنيا المقاولات، ولكن (محسن) تشاغل عنه بحلب المال من زوجته بعد اعتصارها في الفراش كلما سنحت الظروف، كان «معتز» كما يقولون بالعامية الدارجة (حمار شغل) ذكي ومنقب ممتاز عن المكسب، كان يعرف كيف يداول الرشوة، ويخلص أوراقه بسهولة أكل البطاطس ويستحوذ على البيوت القديمة ليسحقها ويقيم مكانها صروحًا معمارية ضخمة، وكان الحقد يتأجج في صدر من يسمي نفسه صديقه، وتقرب في نفس الوقت للزوجة اللعوب التي لم ترفع هي الأخرى أي مستوى من الرفض، وخصوصًا أن زوجها الناجح كان يسجّل جُل الأرباح



باسمها هي حتى يهرب من الضرائب والمحاسبة، (محسن الغندور) شاب يصغر زوجها بعشر سنوات، وهي أصغر من زوجها بسبع لذا كان التقارب محصورًا في زاوية القبول لعلاقة حميمة بلا أي مشاكل.. وقد كان.

***

اليوم السبت أواخر شهر يونيو ٢٠١٢

صرخ الجرو الأسود مطلقًا صوته المميز الملتاع لصغار الكلاب وهو يتلوى بين كفي القابضة على رأسه، كتمت أنفاسه ماسكًا بخطمه الصغير حتى لا يخرج صوته مرة أخرى، فاستبدله بأنين مكتوم ذي صفير مجوف، جروٌ صغيرٌ كان يلعب بعيدًا عن أمه أمسكت به وهو يلاعبني ويهز ذيله الصغير أسفل سيارة مركونة أمام البيت الذي أسكن سطحه لعله - المسكين - ربما كان يريد قطعة خبز من الذي كنت أحمله، رفعته بسرعة وانطلقت لعربني صاعدًا لاهثًا خشية أن يراني أحد من الجيران، مجرد جرو مشرد آخر أحتاجه بشدة في طقوسي الجديدة، وبمجرد دخولي أطلقته لينبح نباحًا طفوليًا وهو يهز ذيله الأسود القصير في توتر.

طبعًا تحسبونني أريد بعض الرفقة مع حيوان صغير كهذا، وهل يصلح لمصاحبة المشردين إلا مشردًا آخر؟، ولكن الغرض كان شيئًا آخر.

كنت أريد قربانًا مبدئيًا بعدما طُلب مني تضحية بروح حيوان صغير.

أمسكت به وعصرته بقبضتي وأنا أغالب دموعي، فطبيعتي اللينة لا تجرؤ على إيذاء ذبابة، ولكن آن الأوان أن أحسم أمري وأتعلم أن القسوة هي البديل، أغمضت عيني لأستجمع عزيمتي وبأسي، قبل أن أزخم بسكين طويل مشرشر في مؤخرته لأخرجه من عنقه ثم أقطعه لنفصين عنوة، لم يجد الجرو الوقت لصرخة أخرى، طفحت الدماء على أرضية دروة المياه حيث أمارس طقوسي وأنا أردد أسماء بعدد متتابع مرصود بكل دقة:

(يا خنزب ٣ يا أجدع٣ يا ولهان٣ يا أعور٣ يا شيصبان٣ يا ميطرون٣ يا زلنبور٣ يا



داسم٣ يا مطرش٣ يا مقلاص٣ يا ثامن الثمانية٧... اقبل ضحيتي وتقبَّل صلاتي لك ولكل من يسجد لك من الشياطين.. الوحا الوحا٣، العجل العجل٣، الحين الحين٣)

***

الصباح الباكر من التاسع من يناير ٢٠١٣

توقفت السيارة الرباعية إلى جانب سور إحدى الفيلات المنتشرة في منطقة حدائق الأهرام، فيلا متوسطة الحجم فائقة التفاصيل الثرية بحديقة محيطة بها بضيقٍ لا يتعدى المترين، نزلت من السيارة وتتابعت النسوة في النزول وتقدمت السيدة الكبيرة ذات الأساور لتفتح البوابة الخارجية ثم دلفت ومست كتفي – برقة - قائدة السيارة لأنزل ومن ورائي الاثنتان الأخريين، وقد لمحت اسمًا منحوتًا على رخامة داخلية قبل الباب يخبرني بأنني في فيلا اللواء (مسعد الصفواني)

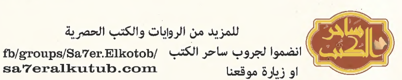
كانت الفيلا من دورين ومقسمة لأربع شقق

صعدت السلم الداخلي للطابق الثاني لأجد بابين أحدهما مفتوح وقد سبقتنا السيدة الكبيرة للداخل.

دخلت وأنا أعرف أنني الآن متورط حتى النخاع في شيء لا أعرفه، جميلة هي شقتهم ومتخمة بالديكور والتحف الغالية والرياش النفيسة، لدرجة الازدحام.

وجهتني إحداهُن لجلسة فخمة؛ فجلست على أريكة رخوة كأنها قنديل البحر وهي جلسة لا تتفق أبدًا مع أصول الضيافة وخصوصًا أنها أول مرة أدخل فيها لمنزلهن فاستقمت بوضع منتصب غير مريح فوق تلك الأريكة الزلالية، أتابع صورًا موضوعة على الحائط تمثل سيدات آية في المبالغة والتزيُّن.

صورة للسيدة الكبرى وهي تلبس الشيفون الأحمر وتضع مساحيق تكفي لطلاء أبي الهول، وصور أخرى لبناتها في أوضاع حاوَلن فيها أن يظهرن كأنهن بنات عائلات، ولكن الصور بدت كراقصات خلعن لتوهن بدلة الرقص وارتدين مكانها ثياب السهرة العارية، يوجد شيءٌ يتعلق بأولئك النسوة، شيءٌ يشي بتفكُّك، ولكنه تفكك مترهل



غير فعال، وفي صدر الحائط، صورة لرجل أسمر بعوينات وقورة ونظرة حازمة، صورة لا تمت للصور الباقية بصلة.

قد يكون هوا هذا (الصفواني) هورب تلك الأسرة الغائب حتمًا عن حياتهن.

اختفت النسوة كلهن داخلين إلى الغرف الداخلية وتركنني وحيدًا مع الديكور المتكلف لدرجة الرفض والتمازج الصارخ بين الأثمان العالية للكلاسيكية مع المودرن.

قبل أن تعود الكبيرة مرتية جلبابًا منزليًا مزخرفًا فاقع الاصفرار، وقد بان بياضها الشاهق وزينتها الذهبية، سيدة في الخمسين تهتم بنفسها بتلك الطرق الشعبية التي تجبر مثيلاتها على صبغ شعورهن بالأصفر الفاقع وتلطيخ بشرتهن بالمساحيق وبرسم أعينهن كالغجر.

- يا أهلًا يا أهلًا ياروح قلبي البيت نوّر(سسس)

ابتسمت بدوري لها، كاتمًا انفعالي وتوتري منها ومن حرف السين الضاغط والغالب على كل كلماتها.

- منور بيكم يا مدام.

كان الفجر على وشك الانبلاج، والجو بارد بما يكفي لتشعل المدفأة الكهربية التي تستتر بداخل مدفأة ديكور من الرخام العالي الجودة.

- تشرب إيه يا حبيبي؟

- فنجان قهوة مظبوط لو سمحتي.

ضربت المرأة صدرها العامر، ولعبت بحاجبيها الرفيعين بضمة وارتخاء متتاليان، قائلة:

- ياروحي من عينيا، والله ده أنا الدنيا مش سايعاني من الفرحة ولو إن الموضوع (سِر) كنت عزمت كل صحباتي عشان يعرفوا إنك هنا عندي.

- موضوع سِر؟

قامت المرأة لتعدّ القهوة وسمعتها تقول:

- هتعرف كل حاجة يا أستاذ تامر بس ارتاح شوية، ده أنت يا ضنايا بهاتي في التلفزيون بقالك تلات ساعات، وتلاقيك يا قلبي هَفتان، هَعملك القهوة لحد ما البنات يِحَضّروا الفِطار.



غابت لدقائق قبل أن تعود بفنجان القهوة وتقرب رأسها مني قائلة في كرم ممزوج بعطرها الباذخ:

- تِحب أجيبلك بنطلون من بتوع البت (هبة)؟ عشان تقعد مرحرح وبراحتك.

***

أواخر يونيو ٢٠١٢

هل تعرفون الخوف فعلًا؟، إذًا تعالوا معي لنرمق مشهد معتز وهو يزخم سكينه حتى المقبض في جسد الجرو المسكين ليسيل دمه على أرض الحمَّام في حين يتلو «معتز» بعزائمه لاستجلاب الشياطين ويسترضي بها كبير عشيرتهم، جُثة الكلب المقسومة ترتعش أطرافها متشحطة في دمائها و«معتز» يتابع تلاوته وهو يغمس كفه اليسرى في الدماء ويرفعه ليلوث بها وجهه وعنقه وقد احتقنت عيناه وباتت على وشك الانفجار وهو يردد بلا كلل وقد اندفع شلال الدموع من مقلتيه، أن أحضروا.. أحضروا.. أحضروا..

العَجَل العَجَل، الوحا الوحا، الساعة الساعة

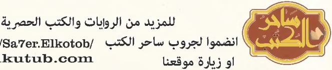
ظل يردد بلا كلل ولا تعب حتى باتت أنفاسه كقلب الطائر الطنان

ثم.. ثم.. ثم استطالت حوائط الحمَّام الضيّق وكأنها من هلام ممطوط، وتدحرج إدراكه لأسفل الوعي وهو يرى.. يرى.. يرى تجسدًا بدا كدخان يتكاثف إلى أن استوى في قالب مألوف لكائن ما في ركن الحمَّام القصي.

كائن على هيئة قِط أسود عظيم، له وجه عريض يكاد يكون بشريًّا وعيون بيضاء مشعة يتوسطها بؤبؤ دبوسي ذو لون أسود وجسد لحيم يكاد يكون كلبًا لا مجرد قطًا أسود، ولا تخلو حركته من تحفز افتراسي.. كان يقترب منه حثيثًا وهو يركز نظراته في عيني «معتز»..

كائن يسمونه في عرف عالم الجن والشياطين ب (ظام)

هل تعرفون (ظام) .؟ ها...؟



لماذا لا أسمع اجابة، هل تفلحون فقط في القراءة والتخيّل..؟ اقرأوا وابحثوا أيها الكسالي المتراخون استعينوا حتى ب(جوجل) أيها المنبعجون نفسيًّا . معتز الآن في حضرة تجسُّدًا لشيطان اسمه..(ظام)

***

الصباح الباكر من التاسع من يناير ٢٠١٣

صُعقت من عرض السيدة بأن أخلع بنطالي الخاص لأرتدي مثيلًا له من ملابس ابنتها «هبة» وتصاعد توتري لأقصاه وأنا أرفض بأدب فبادرتني السيدة قائلة:

- معلش أصل إحنا هنا كلنا ستات ومافيش –لا مؤاخذة- ملابس رجالي خالص.

ردت بعصبية ونفاد صبر:

- متشكر يا مدام لكن ممكن أعرف الموضوع إيه بالظبط؟

قطبت المرأة وجهها، وفغرت فاها عن وضعية مؤلمة لمشاعري.

فقد تحولت المرأة لدرجة عدوانية مشوبة بعصبية وكأنها خلعت قناعًا شفافًا من الحميمية السابقة وأبدلته بلباسٍ بلدي مشجروهي تشيح قائلة بحرف السين اللاسع:

- ياختي، مالك مستعجل كده ليه، ده احنا لسه هنتكلم وهنقول كل حاجة، هو احنا مستنينك ٣ ساعات عشان تتزرزر علينا كده؟؟

تراجعت أمام تحولها المفاجئ وفضلت التودد الجاف على العصبية إذ أنني بالفعل في وضع خطيرو في بيتها وتحت رحمتها نسبيًّا، ثم رفعت عقيرتها بلهجة معاكسة لرقة سابقة:

- بِت يا (ماهيتاب) فين الشيشة يابت دماغي خلاص بتصفرمن المشواروالقعده في (المخروب) الأستوديو....

خرجت إحداهُن تلبس بيجاما رياضية شتوية ومعقوصة الشعروتحمل نرجيلة صغيرة لتضعها أمام السيدة في صمت وتنظر لي، فتابعت السيدة كلامها بتحول لطيف نوعًا ما:



- دي (ماهيتاب) بنت أخويا .. برج الحوت.

ابتسمت لي هذه (الماهيتاب) ولاحت لي أنها في منتصف الثلاثينيات من عمرها تحمل وجهًا عبوسًا لا يخلو من جاذبية، وتحمل في طياته حزنًا وتوترًا كبيرًا، تملك جسدًا طريًا عظيم النهد يستدق – جسدها- كلما اتجهنا لأسفل يسمونه في عالم الموضة (بالجسم الدَرقي) حيث الأكتاف والصدر أضخم من السيقان، وكانت تتمتع به ممثلات مهمات أمثال سهير رمزي وفيفي عبده، ولا تخلو أبدًا من ملاحة سمراء، عيناها تشيان بماضٍ مغبر بذكريات مشينة، أعرف هذه العيون التي تتأرجح بين الطيبة والشراسة والجنون، كما أنها برج الحوت العميق بأسراره الكتوم بطبيعته، صموتة لا تتكلم، ومن الواضح أن سيطرة السيدة عليها أعلى من المعتاد.

- أعرّفك بنفسي محسوبتك (عايدة الغول) - برج الميزان - أصلًا أصلًا من الجيارة ومن عيلة مشهورة هناك، أبويا يبقى المعلم (زايد الغول) أشهر تُجار الصنف - الله يرحمه كان الكبير والصغير يعمله ألف حساب.

نظرت لها بتركيز وحذر:

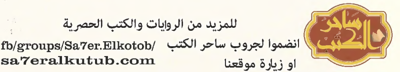
- صَنف ؟ انتي مش بتقولي انك مرات (لوا)؟

- آه يا اخويا ده يبقى ابن حتتي واتجوزته وهو لسه بدبورة، وخلّفت منه بنتين (مروة) و«هبة»، واتطلقت منه من حوالي خمستاشر سنة كده، وقعدت على البنتين أربيهم، وهو اتجوز واحده تانية مخلياه يمشي على العجين مايلخبطوش، ابن الهرمة، والله أمه كانت بتشتغل عندنا غسالة.

- آها، لكن من الواضح إنه مهتم بالبنتين برضو؟

- ولا مهتم ولا حاجة، أهو بيسأل كل فين وفين عليهم وبيديهم كام ملطوش وخلاص من بعيد لبعيد، ولولا اني وارثة من أبويا كان زامتًا واقعين تحت رحمته، ابن الكلب الواطي.

ثم نظرت حيث المائدة التي تعمرت بما لذ وطاب وقامت من فورها .



- يلا يا أستاذ تامر نفطر كده ونتكلم على السفرة.

فمقت وراءها، فعلًا أشعر بالانهاك والجوع بسبب البرد وطول ساعات الجلوس أمام كاميرا الهواء في برنامجي (الحياة والأبراج) والذي أقدمه ثلاث مرات أسبوعيًّا على قناة (مزيكا) الفضائية الشهيرة.

المائده بالفعل عامرة بمختلف الأصناف من الجبن والحليب والأصناف التي أجدْها فقط في فنادق الخمس نجوم حيث (الأوبن بوفيه).

جلست على رأس المائدة، وجلست بجواري المرأة قائدة السيارة على يميني والبنت «هبة» إلى يساري، وفي قبالتي جلست السيدة «عايدة» وبجوارها (ماهيتاب).

أشارت «عايدة» لكبرى بناتها وكانت على درجة غير مسبوقة من الجمال والتناسق ببشرة بيضاء خصيبة وعيون بنية صافية كالعسل، وقوام يمتد لخمس وسبعين سنتيمترا بعد المائة، تلبس زيًّا منزليًا أسود يزيد من بهائها، تملك كفين آية في التناسق والأنوثة وشعرًا مموجًا يضيء بالبني الفاتح، والحقيقة أنها بالفعل أجمل الموجودات، بدت في سن يقارب الثلاثين، تعلوها مسحة قلق دائم جعل أنفها وخدها حمراوين كالنبيذ المعتق المنتظر للشاربين، من الواضح أنها في شهور الحمل الأولى.

- دي «مروة» بنتي الكبيرة - برج الأسد ٢٩ سنة.

ابتسمت «مروة» نصف ابتسامة ونظرت لطبقها بشرود.

ثم أشارت لمن تجلس إلى يساري وهي سمراء رائقة البشرة ،تملك عيونا غاوية ويتمركز حولها هالة من الاستهتار المشوب بالتدليل المفرط لنفسها، ويستقيم جسدها كما المانيكان في الإعلانات بشعر أسود طويل وعينين مكحلتين واسعتين، تلبس أيضًا (تريننيج سوت) أحمر مفتوح الصدر بما لا يليق بوجود رجل غريب مثلي.

- ودي بنتي الصغيرة «هبة» .. برج العقرب ٢٥ سنة

فغمزت لي «هبة» بعينها وضحكت ثم رفعت الشوكة في وجهي تلقمني قطعة من الجبن على طرف الشوكة وغامزة بعينها في إثارة صناعية مفتعلة ورخيصة فابعدت يدها وانا انظر مباشرة في عيونها بحزم وهدوؤ

فهرت الأم ابنتها، وأغمضت عين وفتحت الأخرى وزعقت قائلة لها:

- اتلمي يابت واحترمي نفسك يا مفضوووحة.

ثم.. ثم.. ثم هكذا وبلا مقدمات رفعت «هبة» كفها الايمن وفردت كل أصابعها ثم ثنت الأوسط امتزازًا في وجه الأم في حركة باهظة البذاءة والفجور، لا تتأتى للسفلة من الرجال فكيف ببنت رقيقة مثلها أن تفعلها وفي وجه امها قائلة باستهتاروفجور مفاجئ ضاغطة على مخارج الفاظها وهو تقول بغنج مرتعش بغيض:

- خُدي... ده

***

أواخر يونيو ٢٠١٢

القط الأسود يرمق «معتز» بصمت وتركيز يليق بحيوان تدور حوله الأساطير المختلفة، فعلًا لم يسلم القط من الشبهة الجنائية في عالم الروحانيات، ولهم الحق في توريطه فحين نتأمل القطط، وبالذات وجه القط وحركة عينيه ونظراته المتابعة من تحت الأرائك، سنعرف أن التركيزلم يخلق لنا نحن البشر فقط، بل إن القطط تمتلكه أضعافًا مضاعفة، اسأل كل من يربي القطط، سيقول لك إن القط يراقبنا، ويظهرعليه الفهم والاستيعاب لكل ما نقوم به من أفعال.

ثم تقدم منه ببطءٍ وبحركة مفاجأة اعتلى كتف الرجل الأيسر.

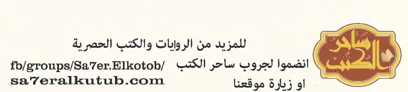
لم يهتز«معتز» من التجسد لأنه يتوقعه، ولكنه جفل من تلك القفزة على كتفه.

تظاهر بالثبات قبل أن يقترب من شحمة أذنه كاشفًا أن أنيابًا مستدقة الطرف..

قط أسود عظيم الحجم يفح بجوار أذنك مادًا أنيابه إلى حيث شحمة أذنك المدلاة.

ارتعش «معتز» وتظاهر بثباتٍ أكثر قبل أن يطلق القط فحيحًا متواصلًا في أذن الرجل.

خخخخخخخخخخخخخخخخخخخ



البرودة القاسية تتراكم على عمودك الفقري يا (معتز)، أنت الآن في حضرة (ظام) أحد معاوني الملك (ميمون أبانوخ)، بل وأحد أشهر العصاة المتمردين في عهد الملك سليمان.

تستمر الرعده تجتاح جسد «معتز»، يالها من رجفة ثم نظر معتز لبقعة الدماء ليجد إصبعًا خفيًّا يكتب بحروف عربية واضحة.

- يا ابن الطين.. ماذا تريد؟؟

***

كانت الحركة نفسها أشبه بصفعة على قفاي أنا، فكيف تجرأت أساسًا لتفعلها أمامي؟ وما الذي تريده أن يصلني؟ لابد من أخذ رد فعل حالاااا!!.

هببت واقفًا، وأمسكت برسغ البنت بغلٍ وغضبٍ كبيرٍ اعتصره في يدي أكاد أكسره:

- لو فاكرة نَفسِك فاجرة وقليلة الأدب يبقى مش قدامي أنا.

نظرت الفتاة إلى عيني لتجدها تتقد بالشرر والغضب فغضت ببصرها لأسفل وتأسفت بهمهمة متألمة من اعتصاري لرسغها.

تكهرب الموقف وكان فوق احتمالي، إضافة لتوتري الداخلي منذ وطأت قدماي أرض بيتهن الفَخم، ولكني استعدت روعي وعرفت جيدًا أنني هنا أستاذ الأبراج والروحانيات المشهور ولست ممن يستهويهم الانحلال والتهتُّك حتى لو كنت أخشى مشكلة ما أو موقفًا صعبًا، فأنا أملك سمعة أريد الحفاظ عليها مهما كانت المُسهلات، وأعرف جيدًا أن حضوري لابد أن يكون ممزوجًا بالتوقير والاحترام.

توجهت حيث حقيبتي الجلدية وعزمت أمام جميعهُن الانصراف فورًا، فقامت النسوة مرتبكات من رد فعلي المفاجئ وسددن الطريق في وجهي متوسلات بأن أتغاضى عن فعل البنت المستهترة أمامي ولهجت ألسنتهن بالاعتذار المرير حتى عاودت جلستي مرغمًا بالتوتر.



- معلش يا أستاذ البت دي مكانتش كده والله لكن من ساعة ما حصل اللي حصل وهي زي ما انت شايف كده، التجرمة واخدة حدها معاها ومحدش قادر عليها.

نظرتُ للبنت بقوة هاتفًا:

- لازم تحترم نفسها وهي قاعدة معايا.

نظرت الفتاة للأرض صمتًا وإن كانت مخايلها تتبلور بالتمرد القريب، وهدأ الجو قليلًا وانتقلت بعدما فسد جو الفطور لجلستي الأولى بينما جلسن هن حولي ليحكين لي أغرب ما سمعته.. في حياتي.

***



(من الماضي القريب)

تحرك الرجل متجاوزًا موائد الملهى ليجلس إلى أقرب مائدة مني. في الأربعينيات هو أو أكثر، ولكنه بدا صحيحًا معافى كابن العشرين، أبيض البشرة كما أهالي الريف الشمالي في مصر، موفور الحيوية كمن يتغذى على الزبد واللحم الطازج، أنيق تلك الأناقة التي تميز رجال الأعمال الشعبيين، إن احتفظ بمسحة كلاسيكية تشي بأنه على قدرٍ من التحفظ الأخلاقي، وهو شيء تراه على الرجال أمثال معتز من الذين لم يعتادوا الفجور والتسيب.

ساعه ماركة (رادو) ذهبية كبيرة الحجم وسلسلة ذهبية غليظة تحيط رقبته وخاتم ذهبي يواقع الساعة على راحة يده الكبيرة، وشعر أسود مصبوغ بعناية، حليق اللحية والشارب وجسده مُدَملج يميل للطراوة الشحمية وقامته تميل للقصر الطفيف مع ملبس مكون من قميص حريري وبنطال قماشي من نفس لون القميص الزهري اللون وحذاء بني لامع.

بدا أقرب للمطرب الشعبي منه لرجل أعمال، ولكنه تعرف عليّ بطريقة لا يمكن وصفها إلا بالجهنمية، تحركت مشاعري نحوه لا أعرف كيف، ووجدته جذابًا وسيمًا بعينيه السوداوين وحاجبيه المنتوفين بالفتلة ولحيته الحليقة، واجتاحني فضول ورغبة لمصادقته على غير عادتي.

جاء النادل وأنزل زجاجة (ويسكي) مستوردة أمامه، وبعض أطباق المُحمصات وكوبًا لامعًا وقنينة الثلج، ثم جاءت إحدى المصبوغات لتصب له وتشعل سيجارة من علبته الخاصة.

رفع الكوب مُتجرّعا كل مافيه من كحول فصبّت له مرة أخرى ليجرع كأسه الثاني بكل ثباتٍ.



يفعل كل هذا وهو لا يكف عن إرسال نظرات جرئية حيث أجلس أنا في ركني المفضل في الملهى، المسرح يشتعل بوجود مطربٍ شعبيّ ذائع الصيت وتتلوي راقصة لا تلبس شيئًا تقريبًا سوى سروالًا داخليًا ومشدًا للصدرعلى المسرح الصغير للملهى.. تقترب منه الراقصة بينما المطرب يشدو بصوت مشروخ:

(احضنوا الأيام لتجري من إيدينا.. أحلى أيام الهوى رااااحت علينا)

الجوقة تهزم بالإيقاع، والراقصة تتلوى وتقترب من مجلسه تهزهزًا يكاد ينخلع من قفصها الصدري.

يمد الرجل يده إلى حيث وريقات مالية من فئة الخمسة جنيهات، يكبش منها حزمة ويضعها في صدر الراقصة بإيحاء فاجر مفتقر للواقعية، وتحسُس واضح لصدرها النافر خارج المشد، ترد عليه الراقصة بهزة أكثر عنفًا لتتناثر الوريقات أرضًا ويهرع أحد الصبية الموكلين بجمع العملة الورقية باحترافية، تبتعد الراقصة لتذهب لغيره بينما يشير هو لإحدى النادلات ويهمس لها في أذنها بشيء، تذهب من فورها ليعود هو ناظرًا إلى حيث أنا في تركيز مزعج، تشاغلت عنه بمتابعة المسرح حيث يمارس المطرب تشريح أغنية الراحلة الجميلة وردة الجزائية

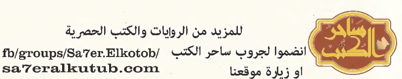
(بالشهد دوَقونا بالسُكّر...دوبونا دوبونا دوبونا!!!!!!)

تعود النادلة حيث الرجل بفنجان من القهوة وتضعه أمامه.

رغمًا عني أُرجع ببصري له فأجده يرمقني بنظرة مسجاة مسبلة وهو يرشف حسوات متتابعة من فنجانه، إنه يملك عينًا ذئبية من التي أفضلها في وجوه الرجال كما أنه يبدو واثقًا جدًّا في نفسه كطالب متفوق أو كصانع ماهر في صنعته.

ثم رأيته، يحرك الفنجان ثلاثًا ويقلبه في طبق.

آها إذًا أنت تقرأ الفنجان، وهو نشاط أحبه كثيرًا وأتابعه بشغفٍ؛ فأنا زبونة دائمة لقُراء الفنجان وهو شيء محبب لي جدًّا، ليس لشغف في أن أعلم الغيب، ولكن لأن من يقرأ الفنجان لي يحدثني فقط عن نفسي أنا فقط، وهو كما تعرفون شيء



محبب لكل إنسان، فالإنسان يجد متعة الحديث في الكلام عن نفسه أو أن يحدثه الآخر عن نفسه.

انتظر قليلًا ثم عدل الفنجان أمام ناظريه واستغرق في تركيز كبير لدقائق شعرت فيها أنه انفصل تمامًا عن واقع الملهى الصاخب، بل سمعت في أذني همسًا عجيبًا يُرَغبني في التعرف عليه والتقرب منه..

رباه ماهذا الشعور، ربما الكأسان اللعينان هما ما لعبا برأسي أنا الأخرى..

مازال ينظر لتعاريج فنجانه وفجأة رفع عينه نحوي لتصطدم نظرتُه مع نظرتي محدثة شرارة ألهبت الحرارة وأضرمت النار في القش حيث أيامي المقبلة معه..

إنني أريد هذا الرجل بلا أي تحفظ..

(.. وبعد ما حبناهم.. وبعد ما هنناهم

بالمُرسقونا.. بالرُخص باعونا.. باعونا باعونا باعونا...)

***

- ماتتعبوش نفسكم أنا عاوزاه يعني عاوزاه..

- انتي اتجننتي يا بت ده جوز أختك.

هكذا صرخت «عايدة» في وجه «هبة» لترد الأخيرة على أمها بفوران عاتي

- مالكيش دعوة انتي يا(حرباية) انتي طول عمرك بتفضلها عليا عشان أنا شبه بابا وهيا كالحة وباهتة شبهك يا صفراوية.

- اخرسي يا وسخة، انتي مش مكسوفة من نفسك بعد ما دخلت أختك عليكم ولاقيتك بت... يا رخيصة يا مجرمة.

- آه كنت بعمل كده وبعمل كده معاه من ست شهور كمان وبحبه ولو مش عاجبها تسيبه، هو يلزمني أنا.

هكذا انطلق الشرر من شفتي (هِبة) وهي تواجه أمها وأختها بعلاقتها بزوج الأخيرة.

- تسيبه ازاي وهي مراته وحامل منه يابنت الكلب؟

- حامل منه مش حامل منه ، مش هسيبه يا ولية يا قرشانة يا بنت الحشاشين.



تهاوت المرأة صارخة على خد ابنتها بينما ألقت «مروة» بنفسها بينهما مهارة باكية قبل أن تمتد يد الابنة الصغرى لتكبش صدر- مروة - بغل. صرخت «مروة» بألم من اعتصار أختها لثديها بكل هذا الغل.

انتزعت الأم يد ابنتها الصغرى عن صدر أختها وتهاوت على صدغها بصفعة ذات صوت، فتوقفت تنظر لها شزرًا ثم هربت لغرفتها سريعًا كما يختفي اللهب، وتهالكت الأم على الأريكة المواجهة للشاشة العملاقة والتي تحمل لهم عبر الهواء مباشرة برنامجًا عن الأبراج والعلاقات الإنسانية بعنوان (الحياة والأبراج) من تقديم الإعلامي (تامر عطوة) خبير الروحانيات والأبراج الفلكية.

نظرت الأم لمقدم البرنامج ثم سرحت قليلًا بينما تهنه ابنتها الكبري بكاءً وهي تتحسس صدرها بألم.

***

اليوم الثامن والعشرون من أغسطس ٢٠١٢

الساعات تمرووراءها ساعات.. تستقطع من مستقبل مجهول وتُضاف لماضٍ أشد سوادًا في عين «معتز».

الحقيقة المرة أن (الخُلوة) شروطها تعدت القسوة ودخلت في الاستعباد، لابد أن يجلس عاريًا في الظلام، وأن يلطخ جسده دومًا بمعجون البرازوالبول، لابد أن يكون مستثارًا منتصبًا وأن يحافظ على حالته تلك بكل الطرق، لابد أن يردد بانتظام رقيات وتعاويذ بعدد بالغ الدقة وألا يشك أبدًا في عدده.

لابد أن يخرج كل ليلة ليدوس القبور أو الخلاء المتخم للدار، وأن يكون عاريًا، بل ويمارس الاستمناء الفاحش فوق شواهد القبور، لابد ألا يراه أحد البتة، لابد يجلس وقت الصلوات الخمس مشعلًا الشموع ويتلو ما تعسر على الروح أن تنطقه بل لابد أن يرفع عقيرته بالتلاوة الشيطانية حتى يغلب صوته على صوت الأذان في كل مرة أربعون ليلًا وأربعون نهارمن الاستجداء المرير للشياطين، والتقرب المهين المشوب



بالحقد لقد ذهبت الليونة والأخلاق التي اشتهر بها وحل محلها جنون مطبق وشرٌّ بلا حدود لكن الملل والسأم والضجر يلعبان حوله بكل انطلاق.

الوقت لا يمر والرغبة في الفكاك أصبحت ماضيًا قد مات وتعفن كما تعفنت رائحته ونضحت بما يفوق المجرور القديم في الخبث والقذارة، نعم لابد أن تكون هذه الرائحة هي الأم الكبرى للخبث والخبائث التي قيل عنها الحديث الشريف..

الطريق منحدر ولا يشي بأي توقف يا «معتز»

انقضت ليالٍ عشر حسبها كالدهر على نفسه ثقيلة الوطء، عميقة الصمت، متحفزة الترقب.

لابد أن الشياطين تقيس مدى إخلاصك وصمودك يا تعس، لقد كان هَمس (ظام) واضحًا جليًا.

أول الشهر العربي والقمر هلالٌ وليدٌ، خلاء مجاور للمقابر، طقوس متعددة مجهدة تشي بسادية العالم السفلي وقسوته، لقد جال بخاطره مرة أن عبادة رب العالمين أقل، وطأة وأن الرضا بما يقسمه لك أخف ضغطًا من احتمال هذا العذاب، ولكن من يتحدث عن معاملة الرب هنا؟ أنا أريد أن أعامل البشر الذين هم أقسى من الشياطين أنفسهم، ولن يفل الحديد إلا الألماس، ثم ألم يتخلَّ الله عنك وابتلاك بالهزيمة والفضيحة وضياع كل شيء بما فيها ابنتك الحبيبة ذات الخمسة عشر ربيعًا، بل وتركك الله غافلًا عن خيانة الزوجة وغدر الصديق. هل كان الرب يراقبك باستمتاع أم أنه استخدمك ليرهب بك عددًا أكبر من المتابعين أم ماذا؟ هل كان الرب يعدك لتكون عبرة يُمصمِص بها المعتبرون شفاههم؟

لابد من إنهاء ما بدأه، حتى لو تعفن وهو حي، حتى لو مات وهو يكمل الطقوس، فالحياة في نظره أصبحت كتلة مستعرة من النيران الباردة تأكل لحمه بكل هدوء وتلذذ، ولابد أن يدفع الثمن كل من أضرم النار حول الوتد الذي قُيد إليه.

في الليلة الثالثة عشرة بينما يراقب القمر الذي صار بدرًا وهو جالس على أحد شواهد القبور شاهد شيئًا عجيبًا شاذًا. شاهد القمريدور حول محوره، هل أصابه



الجنون ولعبت الهلاوس بعقله فنقلت له هذا التصور؟، أم أن القمر فعلًا يدور، بل إنه يقترب منه على غير العادة وكبر حجمه إلى أن صار مثل فطيرة عملاقة تدور بين أصابع صانع الفطائر.

الضوء الفضي يكتسح الخلاء ويصبغ الموجودات بطيفٍ أزرق بارد والريح تُسعر خدها لشياطين الليل وتنقل همساتهم لمسامعه، لقد بدأ يعتاد على الأجواء بل إنه بات يستمتع بصفاء الصمت وتوراد الهمس بينه وبين كائنات الليل، أغمض عينيه لبرهة قبل أن يتناهى لسمعه الذي بات أكثر حدة، صوت خطوات تقترب من موقعه ففتح عينيه وجال ببصره عبر الليل البهيم مدققًا..

ومن بعيد وجد من يقترب حثيثًا..

ثمة أشباح يتمخضها الظلام الأزرق

تسير في جماعة وترفع شيئًا على أكتفاها

الغبار يُثار من حولهم وثمة إضاءات تحيطهم

لا ليس كما تظنون، إنها مجرد جنازة ليلية

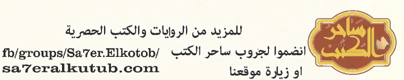
لابد أنه ميت آخر يقترب من مثواه الأخير

توارى مختفيًا ريثما ينتهي المشيّعون من طقوس الدفن الليلي، من الواضح تمامًا أنهم على عجلة من أمرهم، لقد واروا الجثة المكفّنة، في التراب بسرعة وبدون صلوات ولا دعاء، وكأنهم يتعجلون التخلص منها ويبادرون للتغطية متعاونين في سرعة وصمت، ثم ذهب الجميع تاركين المتوفي وحيدًا للأبد.. ومن مخبئه يشعر بأن هناك من يتحرك إلى جواره.. شيءٌ يمس أثماله ويتشمم قذارته التي بدأت في التقدم لمرحلة صعبة بخليط من بول وعرق وجنون مطبق..

نظر بجانبه ليجد القط الأسود.

إنه صديقنا (ظام) ذلك الجن المتمرد من عصور النبي (سليمان) السحيقة.. يبلغه بتعليمات جديدة جنونية..

***



- زي ما حكيتلك الموضوع يا أستاذ تامر والبت أنا مش قادرة عليها.

- يعني هي لسه على علاقة بيه ؟

- أيوة يا اخويا وبتجري وراه في كل حتة.

- وهو موقفه إيه؟

- هو احنا عارفين نتلم عليه، ده زي الزيبق ماتقدرش تعرف هو بييجي ويختفي ازاي.

- طب إيه سر تمسك بنتك «مروة» بيه وهو بيخونها مع أختها؟

- كل ما تبعد تلاقي نفسها رجعتله غصب عنها وهي دلوقتي حبلة في الشهر الرابع، ولما حاولت تنزّله الدكتور قالها لو نزلتيه مش هيكون فيه فرصة للحمل تاني أبدًا، لأن الرحم مش عارفة هيجرى له إيه، دبرني يا أستاذ تامر، أنا لوحدي وبناتي بيضيعوا مني.

- وهو فين ؟

فقالت بلهجة ذات مغزى مسموم:

- ما أقدرش أقوللك هو بييجي زي الناس لكن أقدر أقوللك هو (بيحضر) فجأة و(بنصرف) فجأة.

- كأنك بتتكلمي عن شيطان، هو انتوا اتعرفتوا عليه ازاي؟

شاب وجهها ارتباك وهي تقول:

- إحمم أ... اتعرفنا عليه في - لا مؤاخذة - .... كباريه.

- كباريه؟

وتدافعت الأفكار المؤيدة لانحلالهن لخاطري.

فرفعت المرأة حاجبًا وتركت الآخر في خليط من المشاعر بين الاعتراف والخزي والفجور المقنّع والتسلط:



- من زهقنا يا أستاذ تامروالله، رحنا كام مرة كده عشان نفرفش شوية، بس خلّي بالك احنا زينا زي الرجالة نسهرونتبسط ونروح على بيتنا صاغ سليم، آه لا كده ولا بتاع ولا شاي بالنعناع.

قطع حديثنا دخول «مروة» حاملة فنجانًا آخر من القهوة. جميلة أنتِ يا مروة بلا جدال، بل أنتِ أجمل الموجودات هنا. وقفت «مروة» قبالتي تناولني فنجاني ثم جلست إلى المقعد قبالتي وهي صامتة. دومًا صامتة ذاهلة لا تتواصل. الغريب أن أمها من يتكلم عنها، أما هي فقليلة التعبيروالكلام. نظرت لها مستحثًا إياها على الكلام:

- إيه يا «مروة» سمعيني صوتك.

- ....

- ليه مابتتكلميش يا مروة ؟ احكي عن موضوعك بنفسك.

نظرت لأمها بأن انصرفي واتركينا قليلًا. فقامت بشيء من الاعتراض على ملامحها، ولكنها اضطرت لترك الحيزلي ولها فقط.

- ها يا مروة سمعيني صوتك..

حانت التفاتة منها إليّ وكأنها تراني لأول مرة وزفرت بتركيز قائلة:

- نفسي أرجع بالزمن لورا.

يالها من جملة لا تتأتى إلا لمن أخطأ بحق نفسه لدرجة الهدم والخسارة النهائية.

- للدرجة دي..؟

تابعت بنفس التركيز الشارد:

- نفسي أتخلص من الجـ.....

وهنا بدأت العاصفة تزغرد، لقد بُترت الجملة بترًا وكأن ساطورًا هوي على نهاياتها. بل انهال كفاها الرقيقان يصفقان بقوة على ثغرها الوردي وكأنها تضرب شفتيها لأنه تجرأت وقالت..،إن شفتيها التصقا بزم غيرإرادي وكأن لهم إرادة خاصة، ثمة قوى ضخمة تسيطرعلى الجسد وتمنع الفم من الكلام المباح. ثم قامت واقفة بعد

آن وهي تصدر أنينًا مصحوبًا بهمهمة، وبدأت موجة تالية من التلبس الشيطاني الذي أعرفه جيدًا.. وإن كان على درجة أخطر من المعتاد.

لقد تسارعت أنفاسها كمن يجري بلا انقطاع واصفر لونها بل أخذ في التحول للزرقة الباهتة، لابد أنها تختنق، فالممسوس أو المتلبس بالشياطين يجعله أقرب لشخصٍ يعاني مغصًا عاتيًا وهو يخرج فضلاته أو كأن هناك من يسد مسارات الدم بالرمال الخشنة في شرايينه، أو كمن يُغتصب بوحشية، أو كمن يهوي من حالق، لدرجة أن الممسوس لا يستطيع إكمال جملة قصيرة أو كلمة بعينها فقط يشهق وينهق من تردد الزخم الروحاني في مساره الحيوي. كما طلمبة الماء الصدئة المجبرة على الدروان بفعل سريان التيار الكهربي، كنت أعرف أنها الآن في نوبات (التخبط) من أثر المس (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) أي يصرعه ويجعله كمن يهوي من الحافة في بئر صخرية عميقة. «مروة» الآن تتخبط بين مقاومة ضعيفة وقوة لا يُستهان بها، ثم هدأت فجأة ناظرة إليَّ أنا، وقامت واقفة ثم بدأت في بكاء طفولي ممزوج بدموع غزيرة فقمت قبالتها متحفزًا؛ فأنا أعرف أن هذا الهدوء تسبقة عاصفة تالية، «مروة» مازالت تُهنِه ككلب جُلد لتوه بالسياط، ثم رفعت يدها..

ثم.. ثم.. ثم عالجت رأس السحّاب الغالق لسترتها الرياضية، سحبته فجأةً لأسفل كاشفة عن صدرها العاري وبطنها الآخذ في الامتلاء، أشحت عنها ببصري خجلًا من إزاحة الستار عن هذا الجسد المرمري، فصدر منها صوتٌ يعلوه الصدأ المتكوم على حنجرتها وسمعت صرير أسنانها وهي تجز عليهم قائلة بجهد الغريق:

- شوف.. ششششوف ...شوووووف..

إنها تجبرني على إعادة الحملقة لجزعها العاري، ثم ضمت يدها لوجهها وهي تئن أنينًا بمزق نياط القلوب، ثم رأيت بأمّ عيني جروحًا أو خرابيشَ قاسية تنتشر على صفحة بطنها، لا لا.. إنها ليست جروحًا بل هي حروف أو كتابات، لا بل هي كلمات تخبرنا بحواف دامية بشيء لا أستطيع تجميعه، دققت النظر لأجدها حروفًا سيريانية



أو عبرانية لا أستطيع التأكد مع الحركة المتشنجة للبنت، ومن ثم أخرجت هاتفي المحمول وضغطت ذر الكاميرا لألتقط صورة الرسالة المكتوبة على بطنها وصدرها ومع لمعان الفلاش الخاص بالكاميرا دخلت أمها لتشاهد الموقف ويستحيل لون وجهها للأحمر الناري.

دققت النظر وأنين مروة آخذٌ في التصاعد حتى استجمعت جملة واحدة تقولها بكل حدة:

- يا نهار أسود.. بتعمل إيه يا وسخ؟.. بتصور بنتي عريانة.. ده أنا هوديك في داهية يابن الك... يا مع...

هل ما أراه حقيقة أم أنه بدافع الغضب الأعمى..؟

كان «عايدة» المرأة الخمسينية تنظر لي شزرًا بعينين سوداوين بلا أي بياض، بل كانت تتخبط في صراخها كما العميان في الزحام.. يوجد شيء يقود هذا الجسد البدين ويعلن عن غضبة شيطانية لا تبقي ولا تذر...

***

(مازلنا في الماضي القريب)

ابتسمت مرتبكة أمام نظراته المقتحمة لنفسي قبل جسدي، لم يبادلني الابتسام أبدًا بل كانت تلوح من عينه صرامة نهائية وشعرت أنني مشدودة بسلاسل إليه، وقمت واقفة وعيناي لا تريدان مفارقة عينه العجيبة، بل تقدمت تاركة مجلسي المعتاد، ولأول مرة وأمام عيون رواد المكان المخمورين، أجلس بجانب رجل لا أعرفه.

وبمجرد استقراري إلى جواره مد كفه يتحسس فخذي بكل جرأة وفجور.

جفلت من فعلته فعلًا، ولكني تماسكت حتى لا يلاحظ الحضور، وأزحت يده بنصف مقاومة، ولكنه أعاد اعتصارها برقة هذه المرة.

كان لكفه على فخذي تأثير عجيب؛ فقد شعرت بثمة تيار كهربي منخفض الفولت يجتاح جسدي كان كتأثير الدغدغة التي تشعر بها عندما يمس طرف لسانك برعم حجر البطارية وما يتبعها من تخدير مؤقت يسبح في لعاب فمك، ثم رغبة شديدة في

الالتصاق به كما لو كنت أبحث عن رقعة دافئة في فراشي البارد، كنت أشعر أو كنت لا أشعر بأي شيء إلا وجوده هو وكأن الصخب حولنا تحول لصمت مطبق فلا هزيم الموسيقى حولنا ولا نقيق المطرب كبح وضوح صوته ونبراته.

قرب شفتيه من أذني قائلًا، وسمعته روحي يقول لي بتركيز:

- أهلًا يا (ماهيتاب).

نظرت لعينيه طويلًا، ولم أعر معرفته لاسمي مسبقًا أي اهتمام.. يوجد شيء لا يقاوم بين حاجبيه ورموش عينه السفلية وكأنهم رسم بارز عنيف أو كختم يطبع بصرياتك ويرافق رؤيتك للأشياء.. بات شكل عينيه كأغنية ترديدية لا تترك خلايا مخك وتلح على الزيارة آناء الليل وأطراف النهار.. لقد استعمرني الرجل بلا شك.

وأردف قائلًا بعد أن تأكد من سيطرته الكاملة علي:

- أنا الثالث.. والثالثة ثابتة يا (ماهي).

***

اليوم الواحد والثلاثون من أغسطس ٢٠١٢

لم يكن نبش المقابر في حساباته، ولكن التعليمات واضحة:

(افتح القبر بعد ثلاث ليالٍ من الآن)

(اكتب على جسدك هذه الأرقام والحروف بالحبر السرياني الأحمر)

(يا أعور يا أعور يا أعور ٤٥،٦٩،٧٢ يا مهيج الخلايا وفاتح الفروج وهاتك الأعراض الربانية، اقبل نكاحي في عبدتك الهالكة.)

(تهيّج جنسيًا، واستعد لمضاجعة الجثة) .

(لا تنسَ أن تكتب عبارات التبجيل على أعضائك الحساسة وعلى الجثة أيضًا)

(اجمع مخلفات كلاب المقابر الجافة وأحرقها أثناء المضاجعة)

بعد الانتهاء قُم بقص خصلة وافرة من شعر الرأس واحتفظ بها ..

وبالفعل بعد انقضاء ثلاثة أيام قام بنبش القبر ليلًا.



الكون الأزرق يرمق الجنون الذي يفعله الرجل، ويصدر المزيد من أصوات الصمت والبرودة السرمدية، واليأس يستحي ويشيح بوجهه مما يفعله «معتز».

قام الرجل بكتابة التعازيم على بطنه وساعديه وأعضائه الحساسة وفخذيه، ثم نبش القبر وهبط للجوف المظلم وأشعل شمعته الحمراء والتي بددت الظلام بظلام أكثر إرعابًا لما فيه من اهتزاز دائم للموجودات التحتية للقبور، ثم ركع متحسسًا طريقه إلى أن وصل لجسد المكفون، حلّت طبقات الكفن الرخيص طبقة تلو الأخرى ليجد امرأة هي في العقد السابع من العمر، عجفاء، طبخ الزمن لحمها على ناره الهادئة إلى أن فقد نداوته وصار عجينًا متيبسًا، ولم يتبقَّ منها إلا جلد مدبوغ بالتجاعيد القاسية لخطوط الزمن التي لا ترحم.. من الواضح أنها كانت جثة حية قبل أن تصير ميتة بدهر.

الوجه مثلثي مسحوب أخضر مشوب بالسواد المزرق.

شعر بتنميل يجتاح جسده وارتعاشة تتعارك مع ضربات قلبه، ولكنه استجمع عزيمة مسمومة وأخرج قلمه الأحمر، وقام بكتابة أسماء سريانية على بطن الجثة وفرجها:

«عزازير٦ - زيتون٧ - ساروخ٨ - دنهش٥

ذات المحاسن٣ - عائنة٣ - نائلة٣ -ميمون٤ - زعزوع٤- سنجاب٤- ناصور٦- إبليس حاكم الليل - ٦٦٦- بيض ماشيخ»

أحضروا أحضروا أحضروا (لا ترددوا هذه السماء بصوت أو حتى بذلك التكرار، فالأمر لا يخلو من مجازفة.. صدقوني)

بخور الغائط ينفث سمه المقبورة رائحته في المكان وينتشر بقوامه الغازي ملونًا الأجواء الترابية برائحة الكراهية. العبق النجس يلوث الهواء المخزون في جوف المقبرة الفقيرة إلا من جسديهما، أحدهما مات والآخر في طريقه لخلود الموت أو أقسى.

هكذا كتب وهكذا صرخ وهكذا استجدى الحضور الباهظ التكاليف، إلى أن شعر بهمسات التشجيع وكأن المشهد ستنقله أقمار العالم السفلي مباشرة لكل بقاع

الجحيم، إنه بث مباشر لأولاد إبليس يشاهدون هزيمة نكراء من بني آدم لحساب سجلات الانتصار في عالم (عزازير) الجهنمي.

ثم بدأ في المضاجعة الجنونية . ويا له من شعور عندما يلمس كفك أنت، اللحم الميت.. عندما تفسح بذراعيك ما بين ساقي الجثة، وتكتب عليها، ثم تنكب مطارحًا إياها ما يسمى بالغرام.. وأي غرام بين اليأس والكفر، وبين الفناء والظلام . أن تعتصر نفسك لتسكب سوائلك في حرم الجثة السبعينية.

لكن.. لكن.. لكن الجثة ذاتها تأتيه بحركات بسيطة لا يكاد أن يشعر بها، كأنما دبت فيها حياة خافتة، ثمة اهتزاز أو تنميل يشمل اللحم الميت، بل إن جفنيها شملهما الاختلاج الطفيف ولكنه.. ولكنه محسوس ل «معتز»، في حين أنه يعتليها ذهابًا وعودة بدفع ذاتي معجون باليأس النهائي، إلى أن انفجر الوطر وانداحت مياه الحياة داخل شقوق الموت المتغضن، صاحب الفعل صرخة لا هي من الألم ولا من النشوة بل هي كصرخة خلاص من مهمة ليست أبدًا بالسهلة.. انتظر برهة ليستريح قبل أن يقوم عنها.. ولكن.. ولكن.. ولكن هناك ثمة انقباضًا مرتعشًا، ولكنه حازم يمنعه من إخراج نفسه منها.. كانت الجثة تقبض عليه من مكان الاتصال الغارق باللزوجة، بل إن الضغط يتزايد مسببًا له ألمًا اعتصاريًّا فادحًا، حاول دفعها عنه، ولكنها تشبثت أكثر وأكثر، ناشرة رائحة الموتى النشادرية المخلوطة بعطور الكفن الرخيص.. الذعر يلوح من بعيد متضخمًا والعقل أوشك على الانفجار، كانت الجثة وكأنها تمتص حياته نفسها عبر قنطرة اتصاله هو، ومرسلة تنميلًا زاحفًا على عموم جسده، وذهبت كل محاولاته للفكاك منها أدراج الريح، بل إن الانقباض يزداد انغلاقًا عليه والاعتصار بات أقرب لمحاولة القطع والانفصال عن جسده، دارت عيناه حول محجريهما من الذهول، وارتمى جانبًا فاعتدلت الجثة لحركته، دفعها من رأسها عنه لعل الدفعة تثنيها عن هذا الانقباض المؤلم، ضربها ومزق وجهها بأظافره، صرخ بل إنه عوى كالذئاب متصورًا أن هذا الانقباض باقٍ للأبد، وأنه سيموت ملتصقًا بجثة العجوز، لهاثه يعلو فوق إدراكه ويعمي عقله عن متابعة الزمن، آآآآآآه هـ هـ هـ.



ثم فجأة تراخت الجثة وعادت للتصلب اللائق بالموتى؛ فقام نازعًا نفسه من اعتصارها السابق والغضب الأعمى يلون الموجودات بالأحمر القاني، وجعل يفتش بذعر في نفسه حشية أن يكون شيءٌ انتُزع من مكانه. لقد كان الألم رهيبًا عاتيًا لا يتصوره جسد. إنك تتحول إلى وحش يا «معتز»، وحش شيطاني.

وقف أمام الجثة لاهثًا مرتعشًا وهو يرقب أي حركة، أي ارتعاشة، أي اختلاجة أخرى ولكن.. الجمود القاسي بات سيد الموقف.

لابد من إتمام التعليمات.. لابد

فركع ماسحًا صديده عنها بقطعة من نسيج الكفن، واحتفظ بها في جيبه، بينما الارتعاش يشمل كل أطرافه فلا هو بالمدرك ولا هو بالغائب.. وقص خصلة من شعرها الأشعث الغالب عليه لون الحناء الذهبي، ووجَّه وجهه شطر الفتحة العلوية للخروج.. لكن... لكن.. لكن ما هذا.. ؟

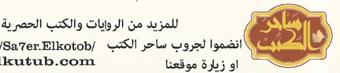
لا توجد فتحة ولا باب أصلًا.. إنه داخل مكعب القبر المغلوقة نواحيه الست مع الجثة المغتصبَة..

لقد أُغلق القبر نفسه عليه وساد الظلام إلا من ضوء شمعته الحمراء، والتي باتت تهتز بعنف كلما تشنجت حركته هو.. توقف ثابتًا وقد أكسبته الخطيئة العظمى قوة لم يعرف من أين جاءت، فركن للصمت منتظرًا ومتحفزًا لأي بادرة، وقف لفترة ليست بالقصيرة.

ثم.. ثم... ثم اهتزت الأرض تحت قدميه ناشرة معها رائحة التراب والعرق والموت.

وعلى الضوء المتراقص من الشمعة القصية، يرى زحف ل.. ل... شيء أسطوانيّ غليظ.. إنه ثعبانٌ بالغ الضخامة يحمل رأسًا لوحيد القرن وأسنانًا لتمساح جهنمي، يتكور وينفرد ويزحف بثقة وتأنٍ ويقترب من هو... شخصيًّا.

كان يمسك بفمه جثة جرو مشطورة ثم رفعها عاليًا ليتلقفها بين أنيابه ويشبعها قضمًا وابتلاعًا مصدرًا أصوات الازدراد البشعة.



اهتزت الرؤيا أمام عينيه وحال ضوء الشمعة الباهت لنور ساطع يغشي بصره الذي تعود لأسابيع على الظلام المسموم.

أغمض عينيه ونزل جاثيًا على ركبتيه في رعبٍ كبير، وسمع هسيسًا مؤلمًا يخبره بأنه قاب قوسين أو أدنى من الاقتران المتوج لكل تضحياته.. قرين (الميتة) يتجسد هزيلًا مليئًا بالثقوب المنداحة بسائل خبيث، كان مذعورًا في ركن القبر وبدا ككقزم مشوّه لحيوان الكانجرو، ويعلو نواحه المذعور من وجود الثعبان الهائل، ويرتجف في ركن الحائط القصي بينما الثعبان يتابعه برسوخ الجبال ثم فجأة يتركه وينقضّ على الجثة العارية ويلتف حولها ضاغطًا جسدها بين عضلاته المهولة، ثم يقضم قطعة من رأسها، القرين يصرخ بلوعة المحترقين ويتلاشى كقبضة من غبار، بينما الثعبان المهول يسحب الجثة منزوعة الرأس للثقب الذي خرج منه أسفل الجدار، ثم ينتهي كل شيء، التعس معتز كان يراقب الموقف الروحاني الهائل بشبق الانتصار، إلى أن شعر بشيء يحاول اختراق مؤخرته هو، انذعر بشدة وتحرك بعنف ولكن الاختراق كان زلقا مبتلا باللزوجة وضاغطا في اتجاه فتحة المؤخرة لديه، قاوم ذلك الاغتصاب تلقائيًّا، ولكن الولوج عبر فتحته تمّ بكل وضوح، فصرخ معتز وهو يتلوى لتنطفئ الشمعة بفعل حركاته الهيستيرية ويسود ظلام مطبق على ألمه، يصرخ معتز من الذهول ويلوح بيديه للوراء محاولًا إبعاد ذلك الولوج الذي هتك مؤخرته، ولكن الاتساع يزداد والانقباض يهتك بفعل الاقتحام لباطنه، ينتفض معتز وتدور عيناه حول محجريهما إلى أن يتهاوى فاقدًا للوعي....

فتح عينيه ليجد أن فم القبر مفتوح ينتظر أن يتقيأه لافظًا جسده المهتوك، خرج لا يلوي على شيء وهو يترنح وينز الدم من شرجه ليلوث ساقيه وملابسه، لقد اغتصبت الشياطين رجولته، وبات ثقبًا ممتعًا لهم، يتزلقون فيه وقتما يريدون.

***



(ماهيتاب)

نعم.. أنا من تعرّفت على «معتز» في بادئ الأمر..

لقد استباحني وفعل بي الأفاعيل افتراسًا، وأنا راضية ساكنة، لم أعرف أنه قرأ أفكاري وعرف أنني قمت بالتخلص من أزواجي بفعل قطرات الحيض والتي علمتني إياها عمتي «عايدة».

استضفته في بيتي لما يقرب من شهر كامل اعتزلت فيهم الدنيا وتحولت حياتي لخراب ما بعده خراب.

أغلقت مصنعي الصغير الملحق بالمنزل، وسرّحت العاملات، وتواريت خلف جدارن الرجل المتآكلة أتركه يعبث بي كيفما يروق له وأنا ذليلة خادمة كأمس الأول بل وأسوأ. لن أنسى أول ليلة حينما استدرجني لنخرج سويًّا من الملهى، وأنا طائعة شبه منومة مغناطيسيًّا، كانت الخمر تلعب برأسي اهتزازا كبندول الساعة، ولم أفق إلا على الفراش وهو نائم إلى جواري، كان يغط في نومه ويشبه الأموات تقريبًا وكأنما ذهبت روحه إلى عالمٍ بعيدٍ وتردُّد آخر، كان يهزي أثناء نومه بكلمات بدت وكأنها مقلوبة النطق، أو أنني لا أقدر على استجماعها وفهمها، لكنها كلمات تمس الروح وتعلق في الإدراك بشيء من اللزوجة اللاصقة لوجدانك لدرجة أنني كنت أستمتع بكلماته وأتحرى المفضل لدي منها، عزازيل أو عزازير.. مممم بخلشهيلوش.. ممم دنهاق أودنهاي، ماشيح، أوماسيح لا أدري بالضبط، ولكن تلك الكلمات كانت تسري مسار الدم في عروقي وتورثني إحساسًا عجيبًا بالإدمان.

ماذا حدث معه؟ لا أعرف ولم أعرف إطلاقًا، كل ما أعرفه أنه انتهكني بوحشية وظهرت علامات أسنانه على لحمي غائرة بل كنت أجد بعض الكتابات التي التي كنت أظنها سحجات أورضوضًا.

وفي الصباح انهرت باكية أمام المرآة عندما شاهدت بقعًا حمراء وبنفسجية تعتري جسدي في مواضع متفرقة وفي مناطق حساسة من جسدي.

دنوت منه أوقظه وأنا في عِزعِز غضبي ليفتح عينيه بعد برهة ليست بالقصيرة ، عينان سوداوان بلا بياض تقريبًا، بانتا لي كأنهما بقعتان من قطران على رئة ميت، أعرف أن هناك ثمة بشرًا يستيقظون من النوم كأنهم شياطين بجفونهم المنتفخة وملامحهم المطمسة، ولكن مع معتز شيئًا آخر، كان يستيقظ من نومه غضوبًا مكتومًا وكأنما كان يقاتل من لا قِبَل له به، عبوسًا كلعنة أبدية، منتفخًا كجثة حديثة التعفن، لقد نهض مغلولًا مملوءًا بالحقد ليضربني بقسوة مريرة ويجرني جرًّا من شعري ويطوف بي أركان شقتي الواسعة ركلًا وتنكيلًا.

لقد افترسني الرجل وحولني لخرقة مهترئة لا تصلح حتى لمسح البلاط.

ومع مرور الوقت وتعايشي مع تلك الكارثة، تعافيت جزئيًا، وكان هاتفي المحمول يرن طوال الوقت من معارفي وعملائي، وكنت أرد عليهم برسالة واحدة؛ أنني في حالة حداد على أمي - التي مازالت على قيد الحياة- وبوعد بأن أستأنف نشاطي التجاري لاحقًا.

الغريب أنني كنت فعلًا أستأنس بوجوده، ولا أعرف لما أنا فيه نهاية، وكان له عادات غريبة جدًا لا افهمها، كان يقبع في الحمَّام فترات أطول من المعتاد ويتحول باب هذا الحمَّام لمنطقة- تابوو- وكأنه ثغر الجحيم مواربٌ، لم أجرؤ أبدًا على الدنو من الباب طالما معتز يسكنه، وكان يشرب الخمر ويدخن بشراهة متناهية، وكأنه يمارس انتحارا مؤكدًا أو بدا كمحكوم عليه بالإعدام يستنفد كل رغباته بجرعات مركزة، كما كانت تلوح من عينيه إشعاعات عجيبة لها طيفٌ أزرق وأحمر حسب مزاجه الخاص، كنت أعيش معه كجارية، أنفق أموالي المدخرة بتعسف عجيب، وكانت علاقتي الحميمية معه لا تتسم بأي خيالات تُذكر أو متعة تترسب في الوجدان، كان يغشاني كما يغشى النعاس عيون الأطفال، كنت أشعر به يزدرد لحمي بوحشية ويغتالني مرارًا ويطعنني، ولكني كنت كأني شخصٌ آخر يشاهد الفيلم دون أن يشارك فعليًا، ساعات



صحتي كثيرًا وتحول لوني للرمادي الكئيب، وكان كل من يراني يحسبني أعاني من مرضٍ خبيث، ولم يكن أحد يعرف أنه هو نفسه مرضي الخبيث، وبالطبع لم أجرؤ على تجربة قطرات الحيض معه بل إنه كان يتناولني وأنا في فترة الحيض بكل تلذذ كأنه يتغذى على إفرازاتي، ثم اختفى فجأة كما ظهر في حياتي فجأة، بعد أن تركني أشبه ما أكون بجثة، عاودت عملي ورجوعي للحياة بصعوبة كبيرة، طبعًا لم أعد كما كنت بل كنت أتظاهر بأني عدت وكفى، ودار ترس حياتي الصدئ ببطء، ولكنه يدور على أي حال، كانت أحلامي كوابيس مقيتة تتخللها أشياء مشينة يعف لساني عن ذكرها، وعاودت الرجوع لسهراتي في الملهى ليس من أجل اللهو ولا من أجل البحث عنه..

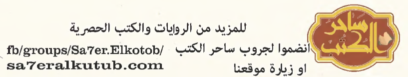
ولكن لكي أثبت لنفسي أنني قادرة بالفعل على معاودة الحياة السابقة، وحدث وقابلت عمتي «عايدة» في إشارة المرور، ونادت عليّ بصخبها وجمالها الطفولي وبشرتها البيضاء ونظرتها القارحة، واستجبت لدعوتها وذهبت لزيارتهم، بالرغم من أنني لا أرتاح لبناتها لأني أراهن على قدر ملحوظ من الغطرسة والتعالي الذي لا يليق بأمهن ابنة تاجر المخدرات الجاهلة، وأخت أبي المحترم، ولكني أرتاح في وجودها؛ فهي امرأة مخضرمة تعج بالأسرار والحلول وتنظر لي بقوة من يعرف ولا يتكلم، إلا أنها بدأت في معاملتي كخادمة لها أو وصيفة، وعندما أبديت تأففًا طفحت في وجهي بغضب قائلة:

- لا يا بنت أخويا انتي تسمعي كلامي وإلا.. وماتنسيش احنا دافنينه سوا يا قلب أمك.

هكذا استلسلمت لها صاغرة؛ فأنا أعرف أنها قادرة على فعل الكثير للإطاحة بي، وتحملت معاملتهن الشاذة لي باعتباري خادمة لهن، وفي ليلة مملة اقترحت عليهن زيارة الكباريه الذي كنت أرتاده استرضاء مني لعمتي القارحة وبناتها الفاجرات.

ومررت عليهم واصطحبتهن لسهرة صاخبة في ذات المكان..

كنت أشعر بتوكيد أنني سأقابل «معتز» وبانني أسوقهن للذبح على يدي جزاري الخاص..



وقد كان...

المطرب الشعبي إياه وذات الراقصة وحيث ذات المائده

المطرب يصرخ بذات الصوت المشروخ

(كلموني تاني عنك فكروني.. فكروني

صحوا نار الشوق في قلبي وف عيوني

وافتكرت فرحت وياك أد إيه.. وافتكرت كمان يا روحي بعدنا ليه)

إذ فجأة أراه أمامي بسحنته وقوته وتسلُّطه ونظرته التي لا تبقي ولا تزر.

هربت الدماء من عروقي وابيضّ لوني وهو يتقدم منّا كما يتقدم ثعبان الأناكوندا من الحمار الوحشي . والابتلاع هو الخطوة القادمة لا محالة.

سلم على الجميع وركز ناظريه على ابنه عمتي (مروة)

أما أنا فكأنني لم أعرفه أصلًا.. لم أعاشره أصلًا .. لم أره أصلًا.

التزمت صمتًا مشوبًا بالرعب منه وأنا أراه ينسج شباكه حولها. وانتابتني رعشة سادية وأنا أرى الفخ محكومًا حول اللبؤات المفترسة سابقًا..

كانت «مروة» فخورة تياهة بنفسها أنها أوقعت رجلًا يملك كاريزما وقوة شخصية وأشياء أخرى كـ(معتز الجمال)

***

- ألو.. أيوة يا معلم فينك كده؟

- مش قلتلك ماتتصلش بيا اليومين دول يا (عاشور)

- معلش يا معلم (محسن) بس البت نازلة عياط ومنهارة ومش عارفين نسكّتها.

- ذَوبلها أي حاجة تهديها وتنيمها.

- مش عاوزة لا تاكل ولا تشرب حاجة.

- طب أنا جايلكم.

- يارب تيجي بسرعة البت هتموت والمصلحة كلها هتروح من إيدينا.

هكذا انطلق (محسن الغندور) في طريقٍ متعرجٍ من مكتب شريكه بشارع فيصل بالجيزة واجتاز الطريق الدائري ليهبط في آخره، ويتجه بطريقة أكثر تعرجًا إلى قرية (المنوات) حيث يحتفظ ب(ولاء معتز الجمال) والتي دبر اختطافها من أجل ابتزاز (معتز) شريكه والذي طار صوابه بعد اختفاء ابنته الوحيدة وراح يجمع السيولة كالمجنون حصوصًا مع الغياب الأمني وقتذاك.

دخل لمزرعة لها بوابة حديدية ضخمة في جنوب ذلك المركز الريفي ثم اتجه لأعلى مرتقيًا درجات سلم خلفي قبل أن يقف أمام باب حديدي آخر يفضي إلى شقة خلفية بها عدد من الغرف المغلقة، وتقابل مع (عاشور) وهو رجل أربعيني قبيح الوجه متصلب المشية طويل القامة يعصف الإدمان بتصرفاته، ولا يكاد يفقه شيئًا من حوله، كان (محسن) قد استعان به من أجل اختطاف هذه الزهرة من حوض أبيها.

- البت نايمة بقالها ساعة.

أزاحه (محسن) وفتح شِقًّا في باب غرفة صغيرة ليجد البنت مستلقية على بطنها في شبه غيبوبة.

- عملت في البت إيه يا عاشور؟

- ولا حاجة طلبت كوباية ميّه اديتها بعد ما دوبتهال قرصين (فاليوم).

- نظر لها (محسن) بتمعن قبل أن يأمر عاشور بالانصراف ليبقى وحيدًا معها.

جميلة تلك البنت وتشي بجمال مستقبلي يفوق أمها العشيقة.

اعترته مشاعر متضاربة مهيجة لغريزة تليق بخائن وخاطف قبل أن يمد يده إلى ظهرها يتحسسه في تمهل، فاقت الغريزة حد الفوران عنده، وفعل بها ما يليق بمستقبل قاتل.

لقد اغتصبها بقوة خالعًا كل قناع، إن ذوات الأربع ليذهلوا من رؤيتهم لذلك الشذوذ وتلك الحمم المتفتقة من عينيه وهو يهتك لحم البنت الصغيرة.

ومن وراء الباب كان (عاشور) يراقب فعلته ويمني نفسه بوقتٍ سعيدٍ لاحق.



انتهى (محسن) منها وهي مازالت في شِبه غيبوبة تئن بألم وصوت واهن..

بنت الأربعة عشر ربيعًا بين يدي عشيق أمها يقلبها كما يقلب ثمرة طماطم قبل أن يهرسها بيده ويرى عصارتها الحمراء تنزمن شروخها المغتصبة من عروقها التي مازالت خضراء، ياله من جنون..

خرج لتوه لا يلوي على شيء، والأفكار تتضارب في رأسه، هل له في لقاء آخر، إن الأمر أشبه بالختم الرسمي الذي يوضع في ذيل العقد ولا شيء آخر؟، قبل أن يقابل عاشور الذي نظر له نظرة مبتسمة تشي بأنه تابع كل شيء بدقة الضباع المنتظرة لأشلاء الغزال بعدما انتهى منها الأسد.

- يا معلم احنا متفقين إننا نخطف البت عشان الفدية وانت كده (هرستها) والطين زاد بلة.

تعلثم (محسن) لبرهة قبل أن يجمع شتات نفسه مواجهًا لرجله المأجور.

- اسكت يا (عاشور) ماقدرتش أمسك نفسي.

فابتسم هذا العاشور مؤسسًا لنفسه لحظات لاحقة:

- طب والحل؟، هنرجعهاله كده؟

ضحك (محسن) فجأة قائلًا:

- معتز ابن حلال ويستاهل.

قبل أن ينفتح باب الغرفة عنوة، وتخرج البنت أمامهما مترنحة وتنظر بذهول في وجه (محسن الغندور) والترنح يعصف بجسدها الرقيق ثم صرخت في وجهه منهارة:

- عمو (محسن)؟؟؟

***



اليوم ٢٤ سبتمبر ٢٠١٢

إنه اليوم الثامن والثلاثون وقد تحول «معتز» لجثة متعفنة تنقصها الديدان المتغولة في ثنايا جلده شديد القذارة.

استطال شعر ذقنه وشاربه وتحول لهلام من الأوساخ، تشع منه رائحة النشادر المسيلة للدموع وقد بلغت روحه الحلقوم من فرط الإذلال.

إنه يعاني من التخبط في سجنه الاختياري ويريد بشده أن يرحل، وكان إدمانه للحضور الشيطاني قد بلغ أشده، وبات من يترجى جرعة ما. يريد أن يعود إلى عالم الأحياء، كان كمعتقل لايعرف معنى المحاكمة ولا الوقت.

وفي غمرة اشتياقه للحياة وملذاتها لملم أشياءه بجنون مطبق، وحاول أن يغادربل إنه وعلى باب الدار، إذ فجأة يتلقى ضربة عاتية على صدره تلقيه للوراء أمتارًا وتثير ذرات الغبار من حوله، صفعة عاتية لابد أنها آتية من يد شيطانية.

وقبل أن يعتدل تلقى صفعة أخرى أقوى ليرتمي مرة أخرى أرضًا، ثم ثالثة ورابعة وخامسة إلى أن نزف الدم من فمه وأنفه وتحجرت عيناه حتى كادتا أن تنفجرا في تجويفهما الزائغ، فركع لاهثًا وهو يجول بعينه عله يرى المصدر.

ثم ارتجّ المكان وكأن السقف على وشك الانهيار على رأسه، بل هو اهتزاز مستمر وحيد التردد يوشك على اقتلاع الحوائط من إساساتها، إلى أن تجسد كيان أسود يلبس الأسود ويعتمر عمة ضخمة على رأسه سوداء اللون وتشتعل عيناه ببريق أحمر متقد ويحمل في يده.. رأس الجثة السبعينية التي انتهكها معتز منذ أسابيع.. نظر لها معتز برعب قبل أن يلقيها له الكيان، فتدحرجت لما بين ساقيه فنظر لها معتز بذعر، قبل أن تفتح الرأس عينها باتساع كبير كاد أن يمزق جفنها المدبوغين، ثم بدأت -الرأس- تصرخ وتصرخ وتصرخ، وهي تمرغ نفسها فيما بين ساقيه المنفرجتين، لم يتحمل المزيد وكان العذاب يظهر بابلغ آياته على وجه الرأس المقطوع، ويصله منها المعنى كاملًا لليأس النهائي من الرحمة، وسمع غرغرة الكائن الأسود وهو يصرح له قائلًا:



- (كانت مثلك وحاولت التوبة.. قبل موتها)

***

((العثور على جثة فتاة في الرابعة عشر من عمرها مغمورة في مياه ترعة المنصورية قبل الطريق الدائري، الجثة ثم قتلها بالخنق بعد أن تم اغتصابها عدة مرات، الانفلات الأمني يسبب تعثر البحث عن الجناة، الفتاة هي ابنة مقاول مشهور يدعة (م. الجمال) وقد اعترف الأب باختطاف ابنته وبفشل الشرطة في العثور عليها، وأنه دفع فدية مليونًا ونصفًا من الجنيهات، وبرغم ذلك قُتِلَت الفتاة خنقًا بعد اغتصابها، والآن يجري عمل مسح شامل للمنطقة بحثًا عن الجناة الذين يشتبه في وجودهم بمركز (المنوات) وحدود الطريق الزراعي للصعيد))

***



مروة تتكلم

لم يكن خطيبي (معتز) جميلًا وسيمًا مثلما كنت أحلم، بل هو أقرب إلى أرمل يحمل صبغات رمادية في نفسيته لا أدري أين تتكثف وأين تختفي، كان أقرب لصورة ذات كثافات بين الأسود الكالح والأبيض المتسخ، يملك مسحة أخلاقية وهدوءًا لم أجده في الرجال الذين تعاملت معهم من قبل، ويملك هالة حول ذاته تجبرك على الانصياع المباشر بلا أي مقاومة.

أجد نفسي مشدودة له بنفس منطق انجذابك لطعام تعرف أنه يضرك، ويرفع عصارة معدتك لبلعومك، ولكنك تفضله وتحب تناوله، وطعم «معتز» كان حريفًا شديد التطرف، وكنت أشعر وأنا معه أنني في جلسة روحانية تتلامس مع شعيراتي الدموية الدقيقة، أنسى الوجود وأرتشف عبق كلماته وكأنها خيوط الحركة في يد الذي يحرك العرائس (الماريونت).

بدا قويًا متمكنًا وغنيًّا يملك الكثير ويفعل ما يريده وقتما يريد، ويزيح الستار عن مفضلاتي بلا تردد وقتما فقط أفكر بها، كان يعرف أنني قوية أستثير الرجال وأجبرهم على دفع الثمن، أما هو فقد أجبرني على دفع ثمن كبريائي العاتية في صورة تحقيق كل ما أريده، شعرت معه أنني أتحول لملكة لا تريد الأضواء ولكنها بالفعل تملك السلطة والهيمنة على الآخرين.

نعم كنت دومًا أتناول خطيبي في الظلام بعيدًا عن أعين الناصحين، بل إن علاقتي به أثرت بشكل أو بآخر على علاقتي العتيدة بأمي، التي لم تأخذ موقفًا محددًا تجاهه، بل هو من كان يقتحمها وينظر لها نظرات العارف ببواطن كل الأمور، وغياب أبي المزمن عنا جعلني انتحارية في تعلقي به، وكنت -في الحقيقة- لا أفضّل أن أعيش

في ظل أمي المتحررة نوعًا ما والمتورطة في أشياء بالغة الخطورة، بل كنت أتقصى نوعًا خفيًّا من الضعف باعتبارنا سيدات بلا رجل تقريبًا، كانت كل خِطبة لي تفشل فشلًا ذريعًا خصوصًا لو كان العريس من طبقة المستقرين لأنه كان يلمس شيئًا من التهتك المغلف لحياتنا، شيئًا في مظهرنا أو في سلوكنا يجعل الرجال إما أن تطمع أو أن تبتعد إلى أن اقترب قطار العمر من محطته الثلاثين وعبثًا حاولنا أن نجد الحلول عند الروحانيين الذين تدمنهم أمي وتحترم آراءهم، ولكنهم فشلوا في تفسير تضخم عنوستي بالرغم من جمالي الباهر الذي يشهد به الكل، وبالرغم من بذخنا وصرفنا المبالغ فيه عليهم، فنحن لسنا فقراء أبدًا، لقد كانت أمي وبلا فخر، زعيمة أكبر شبكة لترويج البودرة المخدرة (الهروين) وكنا نكسب في الربع كيلو الواحد ما يزيد عن العشرين ألف جنيه في مشوار واحد، وآسفة لو كنت ذكرت كلمة (هيروين) المرعبة، لأننا كنا نتاجر في مسحوق تدميري صناعي أشبه ما يكون بالهيروين، ولكنه أقل وطأة وأعلى تأثيرًا، وأنا من كان يقوم بالتسليم للموزعين وتحصيل المبالغ منهم، وكانت صلتنا بأبي (اللواء السابق) تحمينا نوعًا ما من التفتيش أو المتابعة باعتبارنا فوق مستوى الشبهات، نعم أنا ابنة تاجرة البودرة حاليًا والحشيش سابقًا والتي تعرف في أوساط المزاج باسم (الحاجة) وكان الأمر مقصورًا تمامًا على أمي وعليّ أنا ولا دخل لأختي «هبة» المتهورة فيما نفعله، وكانت اتصالات أمي وتخطيطها يحميني من أي مجازفة، وكانت أمي تستغل جمالي الشاهق في التأثير على الموزعين، وأهمهم كان رجلًا خمسينيًّا كان يعمل كصبي أو مساعد لجدي الراحل وكان يسمى بالشيخ (حشمت).

***

كان «معتز» غنيًّا بما يكفي لأن يغري أي امرأة، ونحن عائلة تقدّر المال لدرجة العبادة، تعلمنا من أمي (غير المتعلمة) أن المال هو ما يقضي على أي منغصات أخرى، المال هو ما يعوضك ومن يؤانسك ويجالسك، المال هو هدفك، هو مبتغاك، هو... ومن هذا المنطلق أتممت مشروع زواج لم أعرف أبدًا أنه سيكون فأسًا ستقسم ظهري وتبتر حبي للحياة إلى الأبد.

اشترى شقة فاخرة في منطقة قريبة من أمي وطعمها بالفرش والرياش الثمينة، واشترى لي شبكة ماسية لا تقل عن النصف مليون، بل وزادني بسيارة رباعية الدفع تلمع في عيون الحاقدين بكل ألم وغل، وبالطبع رحبت أمي التي تقدس المال وزاد هذا من شراهتها في المطالب التي كان يستجيبها معتز بكل استرخاء وأريحية.

ووجدت نفسي أشاركه الفراش كزوجة بلا أي تعليق منّي بعد حفل زفاف مقتضب اقتصر على القلة القليلة من معارفنا، حتى أبي كان حضوره باهتًا كطيف يزروك في أحلامك واكتفى بأن أعطاني عدة آلاف من الجنيهات كحلوان أو (نقطة) وذهب قبل حتى ساعة زفافي، نعم كان أبي وهو اللواء العتيد يكره كل ما يربطه بمطلقته ابنة تاجر الحشيش المشهور، ويتشمم في سيرتها نشاطًا مسمومًا، ولكنه بالفعل التزم الصمت حيال مطلقته وبناته..

***

مازالت «مروة» تتكلم

لم أعرف معنى للحياة الزوجية مع «معتز»، فقط كنت أستيقظ وأنا أعرف أنني كنت في أحضان زوجي ليلًا.

كان يختفي كثيرًا وعززت ذلك إلى أنه ربما يملك زوجة قديمة- مثلًا- لا يريد لأحد أن يعرف عنها شيئًا، ربما يقوم بتصفية حساباته السابقة بعيدًا عن ناظري حتى لا يعكر صفو حياتي الجديدة معه، تعلمت منه ومعه الانعزال بمعناه الحرفي، حتى في أثناء اختفائه العجيب لم أكن أقوم بأيّ زيارات بل كنت أستقبل أمي وأختي من حينٍ إلى آخر وعلى كره مني، وكنت دومًا أنفح أمي آلاف الجنيهات كتعويض عن توقف نشاطي معها في ترويج البودرة المخدرة، فأنا الآن أستمتع بوحدة لم آلفها في نفسي من قبل، وبالتالي توقف نشاطي مع أمي على كرهٍ شديدٍ منها إذ أنني ذراعها الأيمن في تجارتها الخطيرة، بل أصبحت صامتة لا أتحدث كثيرًا مثل السابق، وحينما يعود زوجي أستقبله كزوجة مخلصة وأقوم على خدمته بكل الأساليب المتبعة والتي

أوصتني أمي بها كي أعتصر أكثر من أمواله التي يغدق بها عليّ بدون حساب، لدرجة أن أمي فكرت فعلًا في اعتزال نشاط المخدرات اتكاءً على «معتز» كمصدر لا ينضب من الأموال والهدايا النفيسة، فجيوبه لا تنضب والنقود لا تمثل له أكثر من تصاريح مفتوحة لاقتناء أي شيء يحلو له، بما فهم أنا شخصيًّا.

ومع أنه ليس شابا تمامًا إلا أنه كان يملك قوة الجرانيت ورسوخه، لم يكن يشكو من أي مرض مزمن كان أو مؤقت، كان نومه عميقًا لدرجة تحسبه فيها أنه ميت.

فقط كان يؤلمني انبعاث رائحة غريبة من ثناياه، رائحة تذكِّرك بمشاعر الانقباض والخجل والوجل وربما تذكرك أيضًا بالشؤم والتشاؤم، هل تتذكر رائحة نفسك عندما اكتشفتك أمك تفعل شيئًا قبيحًا؟، إنها تلك الرائحة على وجه التقريب.. رائحة لا يمكن الإمساك بها ولا الحكم عليها من حيث القبح أو الجمال.. أريج غريب يخرج في أوقات غير محدده تشعرني بقلق خفي يدب في أعضائي..

وبعدها كنت ألقاه كرجل وزوجته في الفراش لكن ذكرياتي عن فراشه كانت هلامية تتمثل في فوران مستمر ونشوى عارمة وألم عاتٍ، لكنها فقط في أحلامي دخانية الهيئة، تتشكل حسبما أراها أنا أو أحاول تذكُّرها.

أحببت وجوده وكرهت وجودي إلى قربه، وتحولت في الأيام والشهور إلى كثافة رمادية أخرى لا منها بيضاء ناصعه ولا سوداء قاتمة.. فقط رمادي يتشكل في كثافته ممزوجٌ بأسود وأبيض غير متجانس.

وفي يوم من الأيام استفقت مصروعة على مشهد لن أنساه.. فقد تفاجأت به يطارح أختي الصغري الغرام بعَهر لم أتصوره، بل كان الأمر يشوبه إباحية تراها فقط في أفلام البورنو.

هرعت منهارة عليهم وقلبي يرفض ما تراه عيناي من فرط الذهول، ولكنه تخلى عن الدفاع واكتفى بنظرة تحدٍ عارية ووقف عاقدًا ذراعيه حول صدره، وترك أختي تنشب أظفارها في لحمي أنا، وتستحثني على تركه لها بكل تَبجح ووقاحة.

أبدًا لم يكن بيني وبينها أي شقاق؛ فهي قطتي الصغيرة التي أدللها دومًا وأغرقها



من عطفي ما يفوق التصور، وأعتبرها ابنة يافعة أعاملها بكل حب وحنان واهتمام، وأبالغ في إخفاء حقيقة تجارة أمي عنها حتى لا تتأذى نفسيًّا أو يقودها التهور لما لا يحمد عقباه، داريت عنها سواد الحقيقة العارية كي لا تتعكر مياه الأمومة بيني وبينها، ولكنها تحولت لكيانٍ عدواني تبادلني أنا وأمي الشجار والفجور في التعبير، وتجاهر بعشقها لزوجي كما لو كان حقها الأصيل.

واختفى هو مع أنني كنت أشعر بأنه يراقبنا عن كثب وتركيز من لا مكان.

كان الشر متجسدًا ملعونًا.. وكانت تلعب في رحمي بذرته الشائكة، حاولت أن ألفظها من رحمي ولكن الطبيب أخبرني بأنني لن أستطيع التخلص من الجنين إلا بأذى كبير يصيب رحمي وبأنني سأحرم تمامًا من الأمومة التي تتمناها أي امرأة.

***

الصباح الباكر ٩ يناير ٢٠١٣

قبل أن تدخل الأم هائجة من منظر ابنتها العارية أمامي، وقبل أن أضطر لتصوير بطنها وصدرها، كنت أحاول أن أقرأ تلك الكلمات، شيءٌ ما في تركيب الحروف مألوفا لدي، (ديجافو) يلح على سوائل المخ بأنني قادر على فك الطلاسم، جربت ذلك كثيرًا ونجح معي في أوقات نادرة ربما لو كنت تعرف السريانية مع مزج الأرقام والأوفاق فأنت قادر على الأقل على معرفة هدف الطلسم أو اللغز الروحاني الذي أمامك، ولكن هذه تظهر كجملة.

كانت الجملة وكأنها مكتوبة بحد سكين أو موس لا أعرف تحديدًا، ولكن شكلها مؤلم للبصر والبصيرة، فما بالك بصاحبة هذا الجلد الناعم، ولكنها كانت تصرخ بتحذير دائم، يصرخ هو أيضا داخل إدراكي، بأن أبتعد أو أتورط معهم للأبد.

اللهاث يتعالى من مروة يوشك على تفجير لحمها في وجهي..

مددت يدي ووضعت إصبعي الإبهام على جبينها وأنا أتلو آية الكرسي التي أعرف أنها تخفف كثيرًا من سكرات التلبس؛ فقاومت ووجدت عينها تبكي بدموع متصلة،

واندفع مخاط شفاف مخلوط بجلطات دموية من أنفها المستقيم، وعضت بقوة على شفتيها حتى نزف الدم من أكثر من موضع في شفتيها، المكان كله يتموج أمام ناظري ولكني مستمر في القراءة في اسبتسال الجندي المحاصر في خندق، في مثل هذه المواقف لابد أن تكون رابط الجأش ولو ظاهريا لأن الضعف يفضي إلى كبس شنيع وضغط أكبر من الأرواح الشريرة التي تتحرى أي نقطة ضعف لتخترقها في روحك أنت.

وتدريجيًّا بدأ المكان في الاتزان، وبدأت الموجودات تعود لصورتها الثابتة وهدأت «مروة» وتوقفت عن إيذاء نفسها بينما قبضت أنا بكفي على رأسها، رفعت يدي عنها لأجدها تنظر لي بتركيز ودموعها تسبق كل معاني الحرج والتوتر من كونها مازالت أمامي.. عارية، فاضطررت لأن أصور ما صعب على فهمه وقتها، ستقولون إنه فعل لا أخلاقي، ولكنني كنت أريد فقط تسجيل ما أراه؛ فأنا في النهاية باحث أرصد الحالات التي تعترض طريقي، وهذه حالة نادرة ندرة اليورانيوم في الطبيعة.

ثم دُفع الباب لتدلف الأم مرة أخرى وتتجمد من هول المنظر؛ فأمام عينها تقف ابنتها عارية الصدر والبطن أمامي ليستحيل الموقف إلى... إلى صراخ من الأم تصرخ في وجهي بكلام واتهام لا يليق وهي تمسك بطرفي سحاب سترة ابنتها لتغلقهم على جزعها العاري ثم توقفت قبالتي ونظرت لي نظرة احتقار وهي تقول:

- اخص عليك.

ثم كورت في فمها بصقة لتقذفها على وجهي:

- اتفووووو..

***

بسم يسوع الناصري وقوة دم صليبه، وسلطان لاهوته المحي
نأمر كل روح مضادة، هاربة أو محاربة أو ساكنة في الجسد
بمغادرة الجسد وعدم العودة إليه
كل رقية كل سحر كل عمل شيطاني يبطل
تُقطع كل الرباطات، تُبطل كل المحاربات
هذا الجسد يتحرر بسم يسوع المسيح الناصري



اخرج

أخرج

اخرج

- ......

- اخرج، اخرج، اخرج

ثم سُمعت صرخة عاتية ارتجت لأثرها جدران الكنيسة

تخرج من «مروة» نفسها

وتقوم لتهجم على شخص القس بكل شراسة، كانت تحاول أن تفتك به وتهاجمه في المضاد بعدوانية ما بعدها عدوانية.. انطلق الصوت الساخر من فم مروة بصوت أقرب للشرخ الشرجي:

خخخخخخخخخخخ

كان ذلك صوت (شُخرة) يتبادلها السفلة من الرجال حين يعبرون أن لا شيء يثنيهم عما سيفعلون، خرج الصوت من البنت الرقيقة الجميلة صادمًا للجميع قبل أن ينهي القس الجلسة غاضبًا، متناثرة ثيابه وتعم الفوضى مظهره إثر هجوم البنت عليه.

* * *

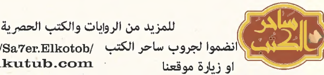
نعم لم يكن هناك سبيلٌ روحانيٌ معروفٌ تتخلص به مروة من ذلك الرجل.. فما حدث مع القس حدث مع الشيخ. نفس العداوة والقذارة تخرج منها متوجهة للشيخ ونفس الفشل حتى في إنهاء الجلسة.

كان شيئًا لا يطاق ولا يستطيع أي إنسان أن يتعايش معه

إذ أن التخلص من الجن والشياطين يحتاج لبعض الخطوات المعروفة لدى المختصين بهذا النشاط الشائك

أما أن تتخلص من آدميين فهو يحتاج إلى سفاحين وقتلة مأجورين وليس لقس أو شيخ.

* * *



هبة تتكلم

لا تتهموني بالعَهر فليس لي علاقة بما أفعله مع زوج أختي، ولا أعرف تفسيرًا لكل هذا؛ فأنا أفعل بلا إرادة تمامًا بل وأدافع عنه وكأني شخص آخر وليس أنا، لدرجة أنني أشعر بأنني أراقب نفسي من زاوية مظلمة، وأقوم بدور المُشاهِد لنفسي بكل جدية، بل إنني كنت أسمع اوامر معينة في أوقات ثم أسمع أشخاصًا يتكلمون عني أنا بمنتهى الصدق، كنت أسمعهم تارة يقولون افعلي كذا يا هبة، اغضبي، انفعلي، افجري، وكنت أطيع بلا تردد، كل ما أعرفه أن هذا الرجل يثير غرائزي وكأني لست أنا، دومًا أشعر نحوه برغبة الالتصاق والخدمة المشمولة بكل أدوات الجنس، نعم أنا أفعل كل هذا بجسدي، ولكن ليس بروحي نفسها، لم أتصور أن تنظر لي أمي وأختي بتلك الطريقة وتعابير الاشمئزاز تفوح من كلماتهما ونظراتهما لي، أو حتى تكلماني بهذه الطريقة، كنت دومًا متعالية عليهما بحكم التصاقهما العجيب ببعض، أريد بكل قوة في أن أتميز عن أختي الكبيرة وارفة الأنوثة والتي أبدو بجوارها ككنجة القهوة القديمة، سئمت من تدليل أمي لها ونعتها باستمرار بأنها البيضاء المضيئة والتي تشبهها هي، أما أنا فمنبوذة لا أعرف للجمال طريقًا كما تقول لي أمي بسخريتها المربرة أن (بوزي) أزرق كوالدي، في إشارة مستمرة منها لدكونة لوني وعمق سمرتها وخصوصًا بالمقارنة بيني وبين أختي مروة المضيئة، كانت أمي دومًا تسخر من سواد ركبتيّ وازرقاق ما حول عنقي وأنا صغيرة، أما «مروة» فكانت تعاملني بأمومة صناعية لأنها تعرف جيدًا انحدار مستوى جمالي مقارنة بها، فأنا بالمقارنة معها مجرد بنت (مصدية) أي يعلوني الصدأ كما تقول أمي في أي عراك بيني وبينها، كان كبرياؤها وغرورها يقتلانني قتلًا ويجعلانني أتمنى قهرها ولو مرة واحدة، حتى مع كل سخائها وحنانها الزائف. لم اصدق في البداية أن زوج أختي معجب بي أنا، وأنه يراودني عن نفسي بطريقته الملتوية، حتى

إنه كان يزورني في أحلامي عاريًا مثارًا زاخمًا لكل تصوراتي، أما استجابتي له فلا توجد أصلا لأن الاستجابة تأتي بأن يكون لك اختيار، أما أنا فلم أملك أي اختيار تجاهه، كيف لم يلتفت لدكونة لوني والصدأ الذي يعلو بشرتي - ذلك الوغد الشاذ- وفي العموم لقد أضحت فضيحتي بجلاجل وتدخل في الأمر عدد من الناس، منهم ذلك الإعلامي الذي تحبه أمي كثيرًا - وكان لا بد من اقتناصه لي ولكنه لم يعرني الاهتمام المطلوب مما يؤكد لي أن (معتز) هو الوحيد الذي قد يهتم بأمري كأنثى في كل هذا العالم.

مهلًا، أنا لم أنهِ كلامي بعد، ثمة أسرار لا يجب أن أقولها لكن الذي أقدر على التصريح به هو أن أمي لها علاقة سرية متينة مع أختي (مروة)، إذ أن الاثنتين يحملن سرًّا غامضًا لا أعرفه، فهما تختفيان سويًّا وتعودان سويًّا كما أن الحديث بينهما يتم بالعين أحيانًا كثيرة في حضوري، شيءٌ غامضٌ يحمل رائحة الفضيحة يجري بين أمي وأختي الكبرى، وحاولت أن أقتحم عالمهما السري، ولكني لم أفلح أبدًا، أمي تجيب على كل مطالبي وبسخاء ملحوظ لا أنكره، لكني أبدًا لم أعرف مصدر دخلها الكبير ولم تطلعني يومًا عليه، كل ما تقوله أنه خبر جدنا الراحل - تاجر الحشيش – (زايد الغول) وأنه إرثها منه، ولكن لو كان كلامها صحيحًا لكان خالي (أبو ماهيتاب) في نفس مستوانا، ولكنه رحمه الله مات شبه فقير وزوجته تعيش في نفس الشقة التي تركها لها بحي (دار السلام) الشعبي، وأيضا ظروفهم أجبرتهم على إلقاء ابنة خالي (ماهيتاب)التي - لا أحبها كثيرًا- لرجل ثري يملك ورشة خراطة كبيرة في حي (الملك الصالح) وشقة واسعة في (المنيل) وقد أذاقها سنينَ من العذاب قبل أن يرحل تاركًا لها بعض الثروة، لكن من أين لأمي بكل تلك النقود؟، أنا أعرف أن أبي يرمي لنا فتاتًا من معاشه لا يتعدى الخمسة آلاف جنيهًا، ولكننا نحيا حياة باذخة بفضل أمي، ولكنها وأختي تتكتمان المصدر بل تتعمدان عرقلة أي تساؤل يصدر مني وقد زاد هذا من غيرتي وكرهي لهما، فأمي ثرية فعلًا تملك الذهب والنقود السائلة، ولكن من أين لها هذا؟؟ ولعل هذا سبب آخر يدعوني للتشبث برجلها الذي فضلني عنها بكل وضوح

وجرأة إلى أن رأتنا في وضع غرامي لم أعرف متى بدأ، ولكني وجدت نفسي راكعة بين ساقيه أمارس الغرام القبيح بلا أي مقدمات أتذكرها، فقط كنت كلما نظرت للمرآة.. كنت أراه يبتسم لي في إغواء، أتذكر مشاعري الدافقة تجاهه

***

لم تكن طقوس حرق المصحف الشريف أو تدنيسه مجرد طقوس عادية؛ لأن الشيطان يختار عقيدتك ويجبرك على تدنيس جوهرها نفسه فلو كنت مسيحيًّا ستطعن الإنجيل بخنجر متعرج من المنتصف ثم تمزقه وتدنس أوراقة وتعلق الصليب مقلوبًا بسخرية، وهكذا بالنسبة لليهودية مع استبدال الخنجر بقرن ماعز مذبوح يوم السبت، حتى الأديان الوثنية القديمة تجبر المتقرب إلى الشيطان على فعل الأفاعيل الصعبة في العرف والمعايير، كالقتل وشرب البول وأكل البراز والرقص بلا توقف في الغابات المظلمة حتى الإغماء أو حرق نفسك بالنار، كانت هناك بعض الطقوس التي تجبر الطالب على حكّ جلدة وجهه بالرمل الخشن حتى يتخلص تمامًا من جلد وجهه أو سلخ أجزاء من وجنته أو جبهته، كانت هذه الطقوس تقود صاحبها لجنون مطبق فهو أضحى حيوانًا مستأنسًا من الشيطان، يفعل كيفما أراد سيده وإن كان يُمنح بعض الامتيازات التي توصل شر الشيطان على الأرض ومدى عمق رفض الإنسان للانصياع للأوامر الربانية، وتجسُّد الشياطين لا يأتي إلا بدرجات؛ فأحقرها هو من يأتي إليك وترى خيال نفسك فيه، أو قد يتواصل معك ويكلمك، وقد يكون تواصله مجموعة من الأوامر الحازمة، أما أن يتكلم معك الشيطان فهو شيء لم يتم إلا في أوقات قليلة جدًّا؛ فالشيطان - ليس إبليس فقط، ولكن التصنيف العام - كلما علا قدره كلما ترفع عن التواصل مع الطينيين بل يكتفي بأن يتابع بصدق أعمال التخريب والشر التي تسود الأرض بلا كلل ويستحثهم على المزيد، نحن هنا نتكلم عن جنس أصيلٍ في العداوة والحقد الكبير على استئثار رب العالمين بفضله على الآدميين وبلا شك معارك الإنسان مع الشياطين لا تتوقف وإن كان الإنسان قد يتفوق في شره على إبليس نفسه ولنرى كيف استجاب بطلنا للطلب المُذهل.

***



أربعون الرماد، ٢٦ سبتمبر ٢٠١٢

غريب أمر عدد الأربعين في الروحانيات على مستوى الثقافات في جميع أنحاء العالم؛ فالهنود الحُمر يعرفونه جيدًا، وكذا العرب والأفارقة والمصريون القدامى والهنود، أربعون يومًا بعد دفن الميت، أربعون يومًا بعد ولادة الطفل، له من الطقوس ماله من إجراءات التثبيت سواء على مستوى الحزن أو الفرح، فالأهل نراهم يقيمون قداس الأربعين أو عزاء الأربعين على ميتهم، وهم ذات نفسهم الأهل الذين يقيمون الأفراح على تمام أربعين يومًا على مولودهم، كيف لرقم الأربعين كل هذا الرسوخ في حضارة الروحانيات حول العالم وفي أجزاء من المستحيل أنها كانت على تواصل منذ القدم لابد أن في الأمر من شيء سنعرفه لاحقًا.

في اليوم الأربعين تم الاقتران العجيب مع شيطان بلا اسم وبين (معتز الجمال)، كانت عملية الاقتران صعبة تشبه في صعوبتها خروج الخامة الأصلية للروح لتحل محلها الروح الشيطانية التي اتخذت من جسده مسكنًا ومنتقلًا، تم الاقتران يا «معتز» وأنت تعرف جيدًا أنك مُت وشبعت من الموت وودَّعت للأبد كل ما يمتّ للإنسانية بصلة، أنت من القلائل الذين ماتت أرواحهم قبل موت أجسادهم، وها أنت تقف أكثر انتظامًا وقوة أمام المرآة تتأمل ماذا فعلت أربعون يومًا من الصلاة لأجل الشيطان، أنت الآن تملك (بعض القوة) ونقول (بعض) لأن شيطانك ليس بالكرم بأن يعطيك كل شيء بلا ثمن أو لمجرد أنك أعلنت ولاءك له، لابد أن تمارس عبادته كلما أمرك بذلك ليباهي بك أمام زملائه وأهل قبيلته بأنك مازلت تحت طاعته وجبروته، وهذا سر تغيبه- معتز- من وقت لآخر، ولم تدرك «مروة» بأن غيابه مجدولًا قبل سابق، أنه مجرد آلة تطيع، بل لم تعرف «مروة» أنها تعاشر شيطانًا، وأنها حملت من هذا الشيطان نفسه وليس (معتز) الذي يُعتبر جسدًا بلا روح، والغريب أن الطبيب نصحها بجدية بأن تحتفظ بحملها وإلا ستتضرر للأبد، ماذا يعني هذا؟ أيريد الشيطان أن يحتفظ بابنه الذي خرج من صلب «معتز» أم أن الأمر له ترتيب

آخر، لم يخطر ببالها، كل ما تعرفه أن «معتز» ليس طبيعيًّا على الإطلاق وأنها لابد أن تتخلص من قيدها الذي يربطها معه للأبد.

***

من القفز من ارتفاع كبير إلى المبالغة في التنظيف الحساس، إلى التعامل بعنف مع كل الأشياء الثقيلة، لعله يسقط ويفشل هذا الحمل ولكن لم يحدث شيء، لم أرَ أي نزيف، وكم كان النزيف محببًا لنفسي عن عشرة وثمرة لا أريدها من ذلك المخبول، كان طفلي يتشبث بي ويعلق بداخلي مثلما يفعل أبوه وأنا معه في الفراش بل إنني لاحظت أن معتز يتعمد الابتعاد عني بمجرد ما علم وتأكد بحقيقة حملي، كنت أستشعر خموله ونشاطه تبعًا لمزاجي أنا، فلو فكرت بالتخلص منه كان يبدو عصبيًّا متوجًا بالغضب داخل بطني، وعندما كنت أتحسس بطني بحنان وشجن كان يستجيب لي بتماوج أقل حدة وأكثر دفئًا، كان جنيني يملك إدراكًا عجيبًا لأفكاري، ولعل هذا سر ذعري الأساسي منه، فأنا أحمل بذرة حية وواعية ومدركة لكوامن نفسي، لابد أن في الأمر شيئًا أشد شذوذًا من زوجي المخبول نفسه، وأنني أنتظر بفارغ الصبر سوادًا معتمًا لمستقبلي على يد زوجي وابنه الذي لم ير النور بعد.

***

في اليوم الأربعين، وبالتحديد بعد أذان العصر بقليل، لم يكن «معتز» قد وصل للجنون بل من العجيب أنه بدا أهدأ بالًا كمؤمن كوفئ واستراح بعد أداء نذر لقد استكانت نفسه القلقة وبدا أن تحديد مصيره أصبح أكثر رسوخًا من ذي قبل، بل إن المكان لم يبدُ له موحشًا كما كان يراه بل بدا له من الأفضل أن يجلس فيه أبدًا، ولولا الحلقة الصلبة التي تربطه بالمدينة لعاش هنا للأبد، لن أذكر لكم كم القذارة التي تعلوه ولا ذقنه وشاربه اللذين صارا كغابة من الجذور.

هل عبادة الشيطان تعطي كل هذا الصفاء والرضا؟، هكذا تدافعت الأفكار إلى مخيلة «معتز» وهو يتمطع صاحيًا من النوم بعد سهرة طويلة في العبادة والإخلاص.

ثم...



ماذا الذي يحدث..؟ ما هذا..؟؟

إن الأرض تبدو لينة أكثر من اللازم، بل إنها تتخلخل من تحتي، ماهذا؟

إنها تمتصني كما الدوامة كما لو كانت رمالًا متحركة تريد بالفعل ابتلاعي.

رجرجني الذعر العاتي والمناسب لهذه اللحظات، الشفط مستمر في الابتلاع قبل أن يصل الامتصاص لمستوى عنقي.

لا مناص من النزول، وقبل أن تغطيني الأرض مرة أخرى لمحت طائرًا يجلس فوق إطار النافذة الوحيدة، يوجد شيء عجيب يخص الطائر. إنه بلا رأس تقريبًا، ولكن ريشه ملون كببغاء، وكان في حجم الديك الرومي لقد رأيته يقفز من مكانه ليعلو رأسي ويغرز مخالبه في فروتها، إنه يمارس ضغطًا مضاعفًا ليدفعني إلى أسفل أكثر وأكثر أشعر بانغراس المخالب في لحم رأسي بكل قسوة..

ثم اندلقت في الجحيم نفسه بلا أي مبالغة..

، هواء لافح وحرارة تأتي من كل الموجودات، صخور ناتئة وعنفوان يصرخ بصمت الخواء في الأماكن الموحشة، الهجير هو الطقس ولفح النيران هي النسائم.

خيالات لأشخاص يتجولون حاملين أشياء بها سوائل أو أشياء تعوم في هذه السوائل، إنهم يحملونها بحرص كبير، الرؤية لا تتضح بسهولة في عينيه التي تدور بذعر في أنحاء الجوف الذي رُمي فيه، لابد أنه هناك في الجحيم الخاص الذي يفضّل سكانه من أهل الليل في إقامتهم الدائمة، نعم لابد أنه جحر من جحور الشياطين والأبالسة، ثم انطلقت قدماه تجري بدون أي إرادة منه إلى حيث لا يدرك عقله، ثمة وجوه يعرفها تهيم وقد علاها غَمٌ يكفي سديم الفضاء، ووجوه أخرى تكسوها الشراسة العنكبوتية، ولكن الغالب الأعم يمشي ببطء وهويني ويندلق على وجهه لتمتصه الأرض كما تأكل الحُمم البركانية خشب الأشجار، كذلك لاحظ أن الجدران تمتلئ بأرقام وحروف من كل اللغات ولكنها بدت حية لا مثل أرقامنا التي نكتبها على الورق أو نطبعها على الحاسوب؛ فرقم سته «٦» مثلًا يستدير حول نفسه لتخرج منه زهرة نارية عظيمة الارتفاع ورقم تسعة «٩» تفور منه الحمم البركانية الحمراء، ورقم



اثنان «٢» يبكي بدموع لا تتوقف بينما يهز الرقم سبعة «٧» وجوده فوق أي جدار، كما أن الحروف تتراقص وتتكون في كلمات سرعان ما تتغير لكلمات أخرى، ولكنها كلها لا تحمل أي معنى معروف ينكتب الاسم معتدلا فتقراه عاديا ثم تنعكس الحروف فتقرأ شيئا آخر.. معتز. زتمع، محسن ..نسحم كما لو كان الاسم وقرينه، لأن اسم قرينك هو اسمك أنت لكن من الآخر للأول، ولكنه محسوسٌ أكثر، بل إنها تتجسد على شكل كيانات معقدة مرعبة التكوين، أجساد يمتزج فيها التكوين الحشري مع الرخويات البحرية في شكل شبه آدمي، عالم مليء بالطلاسم والرموز، ولكنها رموز حية تنبض بالرعب، تكاد من حيويتها أن تنطق وتتعامل مثل البشر، إلى أن توقف أمام جبلٍ من الركام، وكأنه إعصار تجمد في عز عزعز عنفوانه أو صرخة هائلة شقت أجزاء الفضاء ثم توقف صداها بغتة، ثمة فتحة تتسع لشخصٍ واحدٍ منخفضة لمستوى الأرض الجهنمية، وجد نفسه يجثو على أربع ويزحف إلى داخل الفتحة كما الصرصور، ليدلف إلى تجويف شديد الاتساع والارتفاع، كأنما الكون تقلص في ذرة عظيمة التجويف بلا نواة ولا مدارات فقط فراغ هائل ينطوي على عرش من هجير.

حاول أن يقوم فلم يطعه جسده بل واصل جسده التمسك بوضعه الساجد، حتى ناظريه لم يعرف حتى أن يرفعه لما دون الأرض، لفح من هواء شديد السخونة يعتريه قبل أن يسمع صوتًا مشروخًا متموجًا يقول:

- لا ترفع نظرك أيها الطيني، إنك في حضرة سيدنا ومولانا (عزازير).

اجتاحت جسده رعده باردة وسط كل هذه السخونة بل إنه بال على نفسه رغمًا عنه وهو يسمع دبيبًا يرج الأرض رجا، وعلى مستوى ناظريه رأى أقدام حيوان ضخم بل هو من أضخم حيوانات الأرض قاطبة وأكثرها رهبة وجمالًا.

كان يجثو على ركبتيه وكفاه ملتصقان بالأرض حين رمق أقدام هائلة الحجم لفيل كاسح..

نعم فيل يكاد يملأ جسده تجويف الجبل الجهنمي، ولكنه كان يقف على اثنين كما الإنسان، ويعلو خرطومه بنفير حاد يمزق نياط قلب الحجر، تتقاطر من خرطومه حمم ما إن تمس الأرض حتى تخترقها كما الحمض الحارق مع اللحم الطازج وينبع من



مكان الاختراق زهور نارية تلفظ اللهب الدسم، إنه يقترب من حيث وجودي.. يقترب.. يقترب.. يقترب.

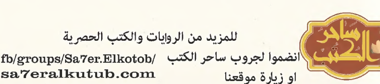
وقبل أن يموت، شعر بواحدة من القدمين ترتفع ثم تهبط على جسده هو.. شخصيًا.

***

صباح يوم ٩ يناير ٢٠١٣

تلقفت البصقة على وجهي كإهانة لن أنساها لتلك الشمطاء وحاولت أن ادافع عن نفسي بعبارات متقطعة، ولكنها بدت كتنين الكومودو تلفظ سوائلها الحارقة في كل اتجاه، نظرت لـ «مروة» مستغيثًا فوجدتها ذاهلة لا ترى شيئًا بل أشاحت عني وتركت الحيزلي ولأمها الغاضبة، لملمت أشيائي بسرعة وتوجهت حيث الباب والمرأة من ورائي تتوعدني بالويل، خرجت للطريق والساعة تنبئ بالتاسعة إلا ربع، وكانت الشوارع مكتظة بالسيارات والبشر، لم أكن أملك سيارة وكنت أصلًا لا اخرج إلا ليلًا لأني لا أطيق زحام المواصلات في شوراع القاهرة، وعملي لا يقتضي خروجي نهارًا إلا في ظروف نادرة، الشمس ساطعة تغتصب عينيّ بفحش وتستلهم من ضعفي وتوتري ثقبًا ممتعًا لها، تبا لم أحضر نظارتي الشمسية معي، مازال أثر البصقة يلوّن خياشيمي بغضب ملتهب الحواف، وعليّ أن أتحمل ما يزيد عن الساعتين قبل أن أصل لبيتي بوسط البلد، عصارة معدتي تغلي من الغضب المكتوم، ولكم أن تتخيلوا مزاج شخص مثلي في هذا الموقف..

أخيرًا عدت لداري في وسط المدينة بعمارتي العتيقة الكائنة في شارع من أكبر شوارع وسط القاهرة السيارت والبشر يتنافسون على احتلال الشارع والزحام على أشده، نعم كنت أشعر بغثيان من أوصَل ليله بنهاره دون نوم؟ ومازالت تجربتي مع النسوة الأربع تدوي في لا شعوري، كيف حدث هذا؟ وانتهى بتلك الإهانة العاتية لشخصي، ثم.. ثم ماهذا الذي رأيته هناك؟، لابد أن أدوّن هذا في مذكراتي الآن قبل



أن أنسى تفاصيله، من الواضح أن هذا الرجل يمت للعالم السفلي بطريقة مباشرة، نعم لابد أن الامريستوي حدًّا عند الشذوذ في القاعدة، وكنت في هذه القضايا ألجأ إلى أهل الاختصاص من علماء الروحانيات المختلفين على تباين مشاربهم، فأنا أتعامل معهم معاملة الزميل للمهنة ولست مجرد مذعور آخر من جمهورهم أو زبائنهم، لابد من إجراء اتصال بأحدهم لاحقًا، أما الآن فأنا أريد أن انااااااااااام بلا أي شروط.

جلست أرضًا لأكتب بسرعة قبل أن تطير الأفكار مرفرفة حول رأسي حيث لن أتمكن من الإمساك بها مرة ثانية، ومضى الوقت وأنا أكتب بمنتهى العصبية والتعب في نفس الوقت، ولكنها تجربة تستحق التدوين وبسرعة.

وبالفعل توجهت لآخذ حمامًا دافئًا سريعًا قبل أن أدلف لفراشي اللين وأتدثر بالغطاء، وبمجرد أن وضعت رأسي المكدود على الوسادة ذهبت إلى حيث.. لا أدري..

***

هل كان حلمًا أم أنه نوعٌ من (الإسقاط النجمي) لا أعرف تحديدًا، ولكني وجدت نفسي في منزلٍ مهجورٍ يحمل الطابع الريفي القديم أتجول فيه بخوف، كان الوقت نهارًا، ولكني استشعرت ظلامًا أبديًا يلفني بلا سبب لعلها الجدران نفسها هو ما يعطيني ذلك الشعور المضني؛ لأن جدران المكان تحمل خبثًا واضحًا وتنظر لي في عداوة سكان الغابات للمستكشفين الأوائل، الجدارن هي ما يجعل المكان آمنًا سخيًّا موحيًا أو ما يجعله فوارًا بالحقد والكراهية وعوامل الطرد، بعض جثث الحيوانات ملقاة بإهمال في أركان المكان ولكنها جثث مبتورة عوملت بوحشية وكأن تمساحًا أعمل فيهم أسنانه، دلفت للحجرات الداخلية وكأني أبحث عن شيء لا أعرفه، ثمة عظامٌ بشرية أيضًا تحتشد في أركان إحدى الغرف، ثم وجدت غرفة مغلقة في الركن القصي من هذه الدار الخربة، هل تعرفون جوهر المكان أو أهم نقطة فيه؟، إنها تلك النقطة التي تجعلك تدرك أن هذه الغرفة هي المقصودة من وجودك في هذا المكان، كما أن غرفة العمليات هي أهم مكان في المشفى أو كما غرفة الحجز هي أهم غرفة في قسم الشرطة، هي مصدر الطاقة وهي التي بواسطتها تهدر آليات المكان كله، ذهبت إليها ثم دفعت درفتي الباب



والتي أحدثت صريرًا مؤلمًا لأذني وأسناني وغددي الدمعية، «زيييء.. طكطكطك.. زيييييي»، الصوت يفح في خاطري كأن أحدًا يبري أسناني بمبرد ناعم من الحديد، ودخلت لغرفة واسعة الأركان مظلمة ظلامًا رماديًا ثقيلًا يتيح رؤية مسمومة لخواطري المستحثة سابقًا بفعل شؤم المكان ككل، خالية كانت بلا أثاث نهائيًا اللهم إلا بساطًا مزركشًا تعج رسوماته بأيدي مرتعشة مفرودة الأصابع كأنها تستجدي رحمة لن تطولها أبدًا، وفي وسطه دائرة حارقة من اللظى، كانت الدائرة بالفعل تشع سخونة من مجرد النظر إليها، كان هذا البساط يغطي معظم أرضية الغرفة، وقفت حائرًا في وسط تلك الغرفة أستمع إلى خواء عجيب قبل أن.. قبل أن.. قبل أن يتماوج البساط نفسه، معلنًا انه ك..ك..كائن حي وليس خيوطًا وعقدًا وشراشيب..

***

اليوم ٢٧ نوفمبر ٢٠١٢

كان الرجل يركع ويسجد أمام المرحاض في مشهد مذهل
كيف قام من شلله وتوجه إلى الحمَّام؟
كيف يجرؤ على الصلاة في هذا المكان؟

هل هو منوم مغناطيسيًا أم أن الأمر يخص شيئًا لا تعرفه المرأة عن زوجها الذي كان عشيقها.. نعم إنها هي السيدة (رانيا الصاوي) وهذا العاشق المتعبد في النجَس هو (محسن الغندور) عشيقها السابق وزوجها الحالي والذي سقط فجأة منذ ما يقارب من التسعة أشهر فاقدًا النطق والحركة إثر شلل سببته بضع جلطات في المخ.

وظل على حالته يمارس كل بروتوكول مرضي الجلطة بل ساءت حالته كثيرًا وتأخر شفاؤه مسببًا حيرة الأطباء المعالجين، وكانت السيدة (رانيا) تخرج وتتابع أعماله بنفسها حتى لا يضيع البقية الباقية من رأسمالها الذي استحوذت عليه من طليقها السابق (معتز الجمال)، والذي اختفى فجأة وسمعت بأنه غادر البلاد إلى غير رجعة.

اقتربت بحذر متسائل ورعشة داخلية من هول الموقف ككل، اقتربت من المتعبد العجيب وهو يتابع الركوع والسجود أمام المرحاض وهي في ذهول ما بعده ذهول،

أيكون الرجل قد جُن؟، لكن كيف قام من الفراش وهو القعيد المشلول منذ شهور؟ مالذي يفعله؟ إنه يقيم الصلاة في أكثر الأماكن رفضًا.

اندفعت غصة ذات حراشف مسنونة لحلقها وهي تراه ينهي صلاته كما يفعل المؤمنين ويسلم يسارًا ثم يمينًا قبل أن يقوم على قدميه ويلتفت وراءه ليجدها واقفة تنظر إليه.. بذهول.

***

نهار ٩ يناير ٢٠١٣

كان البساط يتموج كإنسان يتثاءب ويفرد عضلات جسده ويقبضها رغبة في التركيز أو كأنه شخص كسول يصحو من نومه، ثم تجسدت الرسوم إلى واقع ثلاثي الأبعاد وخرجت عن نطاقها الأفقي إلى تجسيم ثلاثي الأبعاد، وكنت خائفًا أشعر برعبي يجمدني في مكاني وأنا أرى رسوم البساط تتمحور إلى كفوف وأقدام شديدة القبح والخبث؛ فقد كانت الكفوف متوترة الأوتار كما لو كانت تريد خمشك أو تقطيعك، وكلما حاولت الخروج من حافة منها كانت تلك الأيادي تهاجمني بضراوة وتمنع خروجي نهائيًا لخارج مساحة البساط، ثم فجأة اندلعت النيران في وسط البساط إلى أن انصهرت أرضية الغرفة نفسها وبان تجويف نازل لهوة سحيقة تلمع بأحمر النار وبرتقاليته اللافحة، ثم.. ثم كما المصاعد برزت في وسط الحفرة رأسٌ ضخمة صلعاء، تجاهد للخروج منها محتكة بجدرانها اللاهبة وبدا وكأنها محترقة مجلوطة في مواضع من ملامح وجهها البارزة، كنت أنا متجمدًا أشاهد تفاصيل حارقة لخلايا مخي الرمادية والعرق يسيل مني مالحًا حارقًا لجلدي نفسه، صرخت بل صرخ صوتي بلا أي إرادة مني فخرجت الصرخة مبحوحة لها طعم الحامض المعدي، وبدت مقاومتي بطيئة لا تتماثل مع هول المشهد، وكلما جاهدت لأي مقاومة كلما كان الكادر أبطأ وكأن سرعة الزمن تعاندني وتجبرني على التمركز حول ذاتي في هذا الحيز، لف الرأس نفسه مرارًا ليستفيق من زحفه الضيق الخانق ثم ركز ناظريه عليّ أنا وضاقت عيناه ليكتفشني ثم ابتسم.. نعم ابتسم فبان تجويف فمه الخالي من الأسنان، ولكنه مفغم



برعب الامتصاص وسمعته يقول في وجداني بصداء متردد في أجواء عقلي الباطن:

- أيامنا حانت.. زماننا حان.. أيامنا حانت.. زماننا حان.

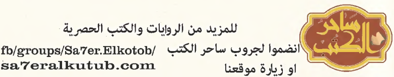
واصلت الانزلاق البطيء للفم المقزز والرائحة الخبيثة المنصدرة عنه تشعرني بدوار القيء، وقبل أن أصل لفكيه العاريين من الأسنان..

استيقظت مفزوعًا.. على الأسوأ من هذا الكابوس بمراحل..

***

لم يكن الشفاء التام في حسابات (رانيا الصاوي) فقد بدا رجلها الثاني على شفا الفناء، تحسرت على فحولته السابقة، ولكنها لم تكن من النوع الذي ينهار أو يفقد تعقله، كانت تسعى إلى لملمة أوراقها وحساباتها منه قبل أن تغادره آسفة على شبابه المشلول، ولكن الذي حدث قلب كل موازينها تمامًا، فها هو زوجها (محسن الغندور) يقف على قدميه مجددًا بل وتظهر عليه مخايل الصحة والفحولة السابقة، كيف حدث هذا؟!، لن تجد إجابة أبدًا خصوصًا وأن زوجها صامت على مدى أسبوع لا يخرج من المنزل وإن كان استعاد صحته لكامل عهدها، بدا أكثر شبابًا وبنوعة، لقد بدا الأمر أن سحرًا تم عمله أو سحرًا قد تم إبطاله، أن يركع إنسان أو يسجد في حمَّام لا يعني لها الكثير، ولن تتوقف عنده أساسًا؛ فهي تؤمن بأن لكل شيء لزومه، فلو كان الشفاء مرتبطًا بالقفز لداخل المجرور أو بتقطيع القرآن فلا بأس المهم هو الشفاء، وليست وحدها من يهمل تلك التفاصيل بل إن هناك الكثير من البشر يؤمنون بأن تلك الغاية تبرر تلك الوسيلة مهما كانت شاذة أو فيها انتهاك للمقدس من المعتقدات، بل إنها هي نفسها من زبائن الروحانيين على اختلاف أشكالهم وطرقهم، أن القائل بأن كل شيخ وله طريقه لم يكن يقصد الشيخ الذي تراه في الجامع بل يقصد بالتحديد الشيوخ التي تعالج الناس بمختلف الوسائل السحرية، سواء كان ظاهرها العبادة أو النجاسة على حدٍّ سواء، المهم أن الرجل استعاد عافيته وقد ألغت كل خططها السابقة لهجرانه، بل بدت سعيدة بعودته، وأخبرت الجميع بأن (محسن الغندور) عاد لتوه من رحلة مرضه الطويلة سليمًا معافى.. كالحذاء الجديد.

***



ليلة الخميس ٩ يناير ٢٠١٣

شهقت ونهضت وقمت مفزوعًا من نومي الملبد بالكابوس الجهنمي، رأس وبساط حي وأيادٍ وأقدام، كيف للعقل البشري أن يضع كل هذه التصورات المريعة ويمزجها بأحلامه، لابد أن الموضوع فيه.. إن، احترت واستعدت روعي وكان آذان العشاء يعلن عن وجوده، لقد نمت ما يقارب الساعتين، قمت متأرجحًا إثر ذلك السفر أو الإسقاط النجمي؛ فأنا أعرف الكابوس والحلم والرؤيا وأعرف كيف أفرّق بينهم، وهذا الذي كنت فيه لا يمتّ بصلة لأي من الثلاثة، بل هو انتقال نجمي حقيقيّ مررت به في تجربة جنونية سابقة. وأخذت حمامًا دافئًا لأستعيد روعي ثم توضأت وقمت للصلاه فأنا أصلي بشكل متقطع للأسف، ولا أعرف لماذا لا أنتظم، ولكن هذا هو الحاصل بلا أي تجميل، جميلة هي الصلاة بل هي نعمة كبرى للإنسان قبل الخالق نفسه، فالإنسان هو من يحتاج للصلاة وليس الخالق، لأنها بمثابة دواء فوار يساعد الشخص على تجشؤ غازاته النفسية الكابسة على روحه، وتعطي الإنسان دفقة من الراحة والليونة بلا أي شك، وحتى وإن كنت أنت ممن لا يواظبون عليها مثلي، فإن أقل صلاة تعبّر عن وجودها في روحك بكل أمن وطمأنينة، وأثناء صلاتي استغفرت ربي كثيرًا شاعرًا بذنب كبير في أن يعجن عقلي تلك الرؤيا القبيحة، هل يوجد داخلي هذا السواد فعلًا أم أن الأمر مجرد زيارة عابرة للجحيم، وعندما أذّن العشاء وكنا يوم (خميس) ولم أكن أعرف أنه آخر (أذان) أسمعه في.. حياتي

***

اليوم الخميس ٣ ديسمبر ٢٠١٢

استعاد (محسن الغندور) مكانته سريعًا في عالم الأعمال والرجال أيضًا، وفرحت (رانيا) زوجته بعودته ولم تعلق حتى ولو بينها وبين نفسها عن مشهده يسجد أمام المرحاض، بل واحتفلت كثيرًا به وأقامت الولائم ووزعت العطايا على المساكين



وذبحت العجول استبشارًا بعودته من محنة دامت شهورًا من التبول اللارادي وتغيير الحفاضات لرجل كانت تعتبره مثالًا للفحولة الهرمونية، وبدت الحياة أكثر إشراقًا بعد أن انزاحت الغمامة عن حياتها، واليوم هو الخميس وقد طار محسن لأداء (العمرة) تبركًا وشكرًا لشفائه الميمون، ذهب وتركها تخطط لحياة جديدة تستأنفها حين عودته وهو اليوم الأول لها وحيدة في بيتها بعد أن أوصلته بنفسها للمطار، كانت من الناس التي تعتبر أن الصلاة والحج مجرد طقوس لابد من إجرائها لتطهير ما سبق من آثام ومن ثَم تستعيد تفعيل ذنوبها جميعًا لتغسلها من جديد أثناء موسم الطقوس التالي، وهي الآن فرحة بعودة زوجها للحياة، وعلى سبيل الاحتفال الحقيقي فهي ستستقبل عشيقها الجديد والذي كانت تدبر للهروب معه بعد أن تترك المشلول سابقًا يواجه مصيره، إنها على موعد مع عشيق أصغر سنًا وأعلى فورانًا اكتشفته أثناء عمله مع زوجها الثاني للعلاج الطبيعي في بيتها، كانت على موعد مع الممرض (أشرف الدسوقي) ابن الواحد وعشرين ربيعًا وصاحب الجسد الرياضي والوجه المنحوت القوي والذي واعدته مرارًا ولم تجد فرصة للقائه إلا عندما سافر (محسن) لأداء العمرة.

والليلة ستستقبل العشيق الجديد الفائر بالحيوية والشباب، جهزت نفسها ودعكت بالكريمات المرطبة بشرتها، لم تكن على قدرٍ كبيرٍ من الجمال ولكنها تمتاز بنفسها وترى نفسها وتعشق نفسها لدرجة الهوس بجسدها المائل للقصر وبدانتها المحببة والمميزة لامرأة على مشارف الأربعين مع استواء ظهرها والعمار الكبير الذي يميز ردفيها اللذين يرتفعان كالأجنحة خلفها، ووجهها الناعم المحقون بالبوتكس والكولاجين، دق جرس الباب ليخبرها بأن العشيق ينتظر، جرت بسرعة للمرآة الكبيرة أمام الفراش فقط لتتأكد من فاعلية كل ما قامت به من زينة، ثم ابتسمت بحبور وهي تفتح الباب لتستقبل الممرض الشاب والذي يعمل في عيادة العلاج الطبيعي (أشرف)، ارتبك الشاب وهو يراها فاقعة الزينة وتحسس ظهرها وهو يحتضنها لأول مرة مستشعرًا إثارة بالغه من احتضان هذا الإسفنج البشري، لم يكن مستعدًا لمبادلة المشاعر فقد جرها جرًّا ليبدأ في الغوص في بركتها الهلامية، وهي تستحثه على

الانتظار ريثما تعبئ له كأسًا ولكنه لم يكن (كحولي) بطبيعته الرياضية، كان متوترًا قليلًا وسألها عن زوجها فقالت بأنه ذهب إلى سفر بعيد، ثم شهدت جدران غرفة النوم لقاءً عاتيًا بينها وبين الشاب الرياضي، إلى أن أنهكهما التعب وامتلأ من تعبئة اللذة بين جسد لين قديم وآخر متصلب جديد، أغمضت عينها استرخاءً وهي تضع ساقها اللحيمة على صدره وتعبث براحة قدميه وتزغزغهما وتضحك من قشعريرته إثر تلك الحركة وراحت تتكلم عن نفسها بكل نشوى فهي فرغت الآن من مخزونها في الإمتاع وتبقى أن تتعرى هي نفسها وتنتهي مما كان يجيش في صدرها من أفكار، وتشكو له حرمانها الطويل بسبب مرض زوجها وبأنها شريفة لا تقصد إلا اللحظات الحلوة، وأنها تعاود الحياة كما كانت، وبأنها حزينة ملتاعة لفقدانها ابنتها، وأن طريقة في التغلب على الحزن هي أن تحب من جديد و.. و..

ولكن ماهذا..؟

لم تكن ساق ذلك الشاب على هذا القدر من الاكتظاظ أبدًا، ولم تكن على هذا القدر من البياض الخالي من الشعر الكثيف، لقد ذكرتها هذه الساق بشخصٍ آخر، هبت جالسة وململمة ساقها عن صدر الرجل ليظهر وجهه لها..

لم يكن (أشرف) البته، لم يكن الشاب الذي استقبلته منذ أقل من ساعة في فراشها

كانت تحدق في وجه آخر يميتّ لشخص آخر..

كانت تنظر بكل رعب إلى وجه طليقها الأول (معتز الجمال)، نعم.. نعم إنه هو بنظرته وبشرته البيضاء المشوبة بالأحمر وعينيه العسليتين، ودسامة جسده الذي تعرف كل موضع فيه، كككككيف..؟؟

ثم اكتظت اللحظات القادمة محملة بصرخات رعب لم يسبق أن أطلقتها.. أبدًا..



الخميس ٣ ديسمبر ٢٠١٢

وصل (محسن الغندور) إلى مطار(جدة) الدولي توطئة للذهاب إلى الحرم ليبدأ في أداء مناسك العمرة وإن اعتراه نوعٌ ثقيلٌ من التوتر، فهو لم يزل يذكر ذلك الصوت الذي أوقظه في من منامه وهو بعد كسيح ،(قم يا محسن نحن معك وسنشفيك من شللك)، نظر جانبه ليرى أن زوجته (رانيا) تغط في نومها وتحتضن وسادة بين ساقيها، جرب أن يرفع ظهره فارتفع بسهولة من يملك الصحة والعافية، قام ليغادر فلم يقع حسبما يتوقع بل قام واقفًا على قدميه، الصوت مازال يؤكد عليه أنه شُفي ولابد من إجراء صلاة شكر سريعه لمن كان سببًا في شفائه، وهل تكون الصلاة لغير الله؟، اندفع البول يغرق حفاضته المطوقة لوسطة وحوضه، ذهب للحمّام سريعًا وتخلص منها وترك الماء البارد يندفع غامرًا جسده، إنه لا يشعر أبدًا ببرودة الماء بالرغم من أننا في أواخر نوفمبر، ولكنه سعيدٌ كطفلٍ وقع في حوض من الشيكولاتة، اهتز طربًا وغمرته سعادة وهو يتحسس جسده الخاص، ذراعاه تعملان بشكلٍ فوق الطبيعي وساقاه تحملانه بلا أي اهتزاز، إنه الشفاء الكامل يا محسن، لقد شفيت من شللك ويأسك وقنوطك، لن ترى علامات الامتعاض على وجه زوجتك وهي تغيّر على حفاضاتك بعد الآن، لن ترى علامات الشفقة المزيفة على وجوه زائريك، لن تلبس الحفاضات مرة أخرى، وحانت منه التفاتة للحفاضة التي كان يرتديها، فوقع نظره على.. على.. على امرأة ذات شعر أسود طويل، يغطي الشعر تفاصيل وجهها بجسد مستدق الأطراف وكتفين عريضين ونهدين بارزين كما المدافع، تستوي جالسة على مقعد المرحاض وفاتحة ما بين ساقيها، ترك الماء المنهمر واتجه مغناطيسيًّا لها يحدق فيما بين ساقيها، واقترب منها فوضعت يدها على رأسه ضاغطة بأن يركع.. فركع، بأن يسجد.. فسجد، وهي بعد جالسة تنظر له بتركيز بينما (محسن) يصلي بين ساقيها.. مخلصًا شاكرًا.

***

نهار الجمعة ٩ يناير ٢٠١٣

إنه يوم الجمعة الذي أحبه وأشعر أنه من أجمل أيام الأسبوع؛ فيوم الجمعة المحكوم من كوكب الزهرة كوكب الحب والمال والجمال حسب علم الفلك ويحكمه (الملك الأبيض) وهو ملك من ملوك الجن السبعة الذين يحكمون أيام الأسبوع (حسب كلام علماء الروحانيات) تبعًا لجدول الفلك الصارم الذي لا يتغير، الملك الذي يحكم اليوم يشيع في الحياه بهجة وروحانيات وتسامح واقترابات كثيرة بين بني البشر ويشجع من يكون طالعه مثل يومه على أن يمارس النشاطات الاجتماعية بين الناس ويتحابون ويتذكرون بأن الله هو الخالق الجدير بالشكر والعرفان، وفي (الإسلام الحنيف) يكون يوم الجمعة هو بمثابة التوبة الصغرى لكل العصاة الذين فتح الله عليهم بغسل همومهم في صلاة الجمعة بين جموع الناس المستغفرة، نعم كان يوم الجمعه عيدًا أسبوعيًّا رقيقًا يشع بالحبور والتعاطي لأسباب المحبة وفيه يستغل المسيئون لحظات استغفار المحسنون لياخذوا من ثوابهم وطاقاتهم الإيجابية، صحوت من نومي على الساعة الحادية عشرة متخبطًا شاعرًا بالضياع والقلق من ليلتي السوداء ونومي المتقطع، وأشعلت عودًا من البخور وأدرت جهاز الكمبيوتر على سورة (الكهف) حسبما عرفت أن ذِكرها في ذلك اليوم يسهل الصعب من الحيا وييسر الرزق، وكان يستهويني فيها قصة سيدنا موسى مع الخضر وكيف أصابه الذهول من تصرفات الرجل لدرجة أن سيدنا الخضر استغنى عن مصاحبته لكثرة أسئلته واستفساراته عن أفاعيل الرجل العجيبة، ولكن مهلًا، الجهاز لا يخرج منه أي صوت، راجعت الوصلات الكهربية والأسلاك الرفيعة الموصولة للسماعات، ولكني لم أسمع أي صوت، قمت بإدارة زر المؤشر لأعلى درجة، ولكن أيضًا بلا صوت، عززت ذلك لعيب طارئ في الوصلات وسأراجع هذا الموضوع لاحقًا، ولكنني الآن بصدد الاستحمام والتوضؤ، كي ألحق بصلاة الجماعة بالمسجد القريب في شارع الشيخ ريحان، إلى أن سمعت جرس الباب المزعج وهو (جرس) ورثته من المستأجر

السابق وهو يرن بأزيز يُفقدك أعصابك، وعرفت فيما بعد أن الخواجة السابق كان سمعه ثقيلًا فابتكر ذلك الجرس حتى يسمعه جيدًا، ولم أقم بتغييره لأنه يعتبر أثرًا باقيًا من عصر الستينيات يعتبر أثرًا صناعيًا نادرًا.

فتحت الباب لأجد بواب العمارة المتحفظ دائمًا يكلمني زاعقًا بصوت عالٍ جدًّا..

- أستاااااذ تااامر لو سمحت وَطي صوت القرآاآن.

نظرت له مغضبًا لأنه يرفع عقيرته كما لو كان يتعارك معي، وأنا لا أسمع أي صوت يخرج من جهازي.

- صوت إيه يا زفت؟

- صووت القرآاآن يا أستاذ تامر، عشان آدان الجمعة بيأدن أهو.

أرهفت بسمعي فلم أسمع أيضًا أي أذان، هل يداعبني ذلك البواب الغبي؟!

- فين الصوت ده يا بغل؟

نظر لي البواب بدهشة وكأنه ينظر لراقصة تمشي نهارًا في الشارع.

ثم رفع عقيرته مرة أخرى:

- يا أستاذ تامر حضرتك فاتح صوت القرآن على آخره، والجيران ندهولي عشان أقولك، وكمان آدان الجمعه بيأدن أهو أنت مش سامعه؟؟

انتابتني الحيرة والتخبط: فأنا أسمع صوته هو عاليًا مجلجلًا، ولكن لا أسمع صوت القرآن الذي يرجوني أن أخفضه، كما لا أسمع صوت أذان الجمعة أساسًا.

تركته وقد تعاظمت حيرتي وتوجهت فورًا إلى جهاز الكمبيوتر، فعلًا مؤشر برنامج الصوت (الوين آمب) يتلاعب فعلًا على آخر درجاته، ولكني لا أسمع ما يسمعه الجيران فقمت بإغلاقه وأنا في حيرة من أمري. ما الذي يحدث هنا بالضبط؟

صرفت البواب الذي كان ينظر لي بشيء من القلق، ثم توجهت إلى دولاب ملابسي لأنتقي بنطالًا رياضيًا وأنتعل نعلي الخفيف وانطلقت إلى المسجد لأصلي صلاه الجمعة التي أحبها وأحرص عليها كل الحرص.

المصلون متزاحمون في المسجد ينصتون ويعمهم صمت عجيب والخطيب على

المنبر يقول شيئًا ما ولكني.. ولكني.. ولكني بالفعل لا أسمعه، ماذا يجري لي، هل جننت أم ماذا، من بعيد أسمع أصوات الشارع والسيارات ولكني لا أسمع شيئًا من كلام الخطيب أراه فقد يشيح بذراعه أمام جسده، ماذا دهاك يا تامر؟ هل أصابني الصمم..؟

الحيره تعتصرني وكأن مقص المونتاج أزاح شريط الصوت الديني من أذني تمامًا، أشعر باعتصار وعنصرية تجاه من حولي، الكل يستمع ويستغفر ويتمتم إلا أنا، حتى عندما دعا الإمام الناس للدعاء والاستغفار سارع الجميع برفع أكفهم وضمها أمام وجههم للدعاء، إلا أنا، وعندما قام الكل لصلاة الجمعة قمت معهم ولكني أشعر بانعزال قاسٍ وكأنني داخل كبسولة شفافة من الزجاج السميك، نعم أرى وأسمع أصوات الشارع وهمهمات الناس من حولي، ولكن..

انتهيت من صلاة الجمعة الصماء تمامًا، وكنت أقوم بصلاتي مسترشدًا بحركة المصلين من حولي وانتابني الغَم والارتباك والحيرة الملبده بالغيوم.

عدت لشقتي بسرعة وضربت أزرار الكمبيوتر لتشغيل أي مقطع من القرآن الكريم العزيز والذي عرفت مكانته بفقدانه حين حُرمت من سماعه: فالحرمان من التعبد أو التقرب أصعب بكثير من هجره أو التنطع والتسويف فيما يخصه، لأنك إذا حرمت من التعبد ستعرف جيدًا أنه قدر شيطاني مُصرٌّ على اجتذابك إليه بقوة دفع شائكة تنشب مخالبها في نفسيتك وشعورك بالأمن والاستقرار، أعدتُ تشغيل أغنية فسمعت صوتها مرتفعًا جدًّا من تحريكي لكل المؤشرات سابقًا..

أسقط في يدي فأنا أصم تمامًا ولا أسمع أي شيء من كلام الله.

شعرت بقبضة باردة تعتصر قلبي، وبدموعي تندفع رغمًا عني من القهر والحيرة..

تُرى هل هذا من غضب الله على شخصي؟ هل سأموت محرومًا من سماع كلمات ربي التامات؟ ما هو لون مصيري إن لم يكن الأسود الحالك؟. لابد أن الله غاضب عليّ لدراستي للروحانيات والأبراج، لابد أنني ارتكبت معصية كبرى لا ينفع فيها ندم ولا شفاعة، لابد أن أجلي قد حان الآن ولا مفر من الاستسلام واليأس النهائي، كل هذه



الأفكار وأكثر كانت تدور.. وتدور.. وتدور في تلافيف وجداني إلى أن انهرت باكيًا مختنقًا بالعبرات مستشعرًا سكرات الموت تدنو من بابي.. وقد كنت محقًا.. تمامًا..

وسط كل هذا الضياع والانهيار سمعت طرقات على باب شقتي (طك ..طك.. طك)، ومع أنني أملك جرسًا مزعجًا يئز بخشونه عندما تضغط على مكبسه وتشعر بأنه يسُبُك بأقذع الشتائم ويجعلني أهرع دومًا لفتح الباب لأخرس رنينه الكهربي الحاد وسر احتفاظي به أنه قديم عتيم يزين لوحتي الكهربية البدائية بشيء من التوكيد بجرسه الأسود ومطرقته النحاسية المؤذية، وتشنجه المتربص.. إلا أن هذه طرقات، نقرات، على زجاج (الشُراعة) تحدث طرقعة محدودة، بها شيء من التوجس والسرية وكأن الواقف هناك يخشى أن يسمع الآخرون قرعه للباب، استفقت جزئيًّا من بحيرة الدموع والحيرة التي اجتاحتني ومسحت عيني وأنفي بظهريدي، فأنا لا أحب أن يراني أي شخص في هذا الوضع من الضعف والوهن النفسي المهين، وتقدمت أنا أيضًا بهدوء مماثل وشعرت ببطء في الزمن لوهلة وتعمدت التباطؤ حتى تهدأ نفسي تمامًا مما كنت فيه وفتحت لصاحب النقرات..

لأجد شخصًا يلبس - في عز عز شمس ظهيرة الجمعة- بدلة سموكن سوداء كاملة بل ويتلف حول ياقة قميصه المنشاة (بابيون) أنيق ويحمل في يده مسبحة تحمل في آخرها صليبًا أو ما شابه لم أستطع التدقيق إلا بعد برهة.

يحمل وجهًا صارمًا مداهنًا شديد الخبث بقامة فارعة فأنا تقريبًا عند مستوى كتفه بينما يناهز طول عنقه ورأسه ما لا يقل عن أربعين سنتيمترا تقريبًا، (إن تصف الطول بالمترين فهو عادي أما أن تقف بجانب صاحب هذا الطول فهو شعور آخر)

وجدتني أحملق فيه فترة أطول من المعتاد وقد نسيت أصلًا أن أسأله فبادرني هو بعد ما تركني أمسحه ببصري وأنظر لعينيه الزرقاوين الزجاجتين..

- مساءُ الخَيريا سيد «تامر» هل تسمح لي بالدخول وبالحديث معك لدقائق؟

شيءٌ فيه يثير شيئًا ما في نفسي، ثم هذه اللهجة الأقرب للمستشرقين واللغة الفصحى و..



- مساء النور، مين حضرتك؟

- معك مستر (جاكوب زنجيلو) من أقرباء المستر (كوستا) المستأجر السابق لشقتك.

أها إنه يسالني عن الخواجة الذي كان يقيم بشقتي قبل أن أستأجرها أنا، ولكن الرجل توفاه الله قبل أن أستاجرها أنا باكثر من خمسة عشر عاما على الأقل.

- ولكن الخواجة (كوستا) توفى من حوالي ١٥ سنة يا مستر..

- (زنجيلو) يا سيد «تامر» اسمي هو (زنجيلو) وكل ما أطلبه منك هو أن تسمح لي بالدخول عندك لدقائق لنتحدث في أمرٍهام يخُصك.

نظرت له بدهشة عاتية فمن هذا الزنجيلو؟ وكيف له التحدث بالفصحى هكذا؟ وماذا يريد مني؟ ثم هذه الملابس العجيبة التي خرجت لتوها من أفلام (ليلى مراد) لتأتي لي هنا أمام باب شقتي كما أن حركته توحي بتصلب عميق يداريه هو بابتسامة قمينة مداهنة، الرجل ينظرلي بتركيزوكأنه سينفجرفي وجهي بين لحظة وأخرى، ولكنه مستمرفي هدوئه المستعار.

ماذا ترون أيها القراء؟ هل أسمح له بالدخول؟.. ها.. لماذا لا أسمع إجابة منكم أيها الحمقى؟؟

***

نزلت قدم الفيل العملاقة على ظهر «معتز» لتسحقه تمامًا وتحيله لفطيرة مكتظة باللحم والعظام، ولكنه وياللعجب لم يشعر بموت أو ألم أو انسحاق، فقط استسلم لهذه القدم الجبارة وهي تمارس كَبْسَه وكأنه جسدا آخر غير جسده، ثم رفع ذلك الفيل قدمه عن الجسد المُبطط لينتفخ اللحم وتستوي العظام التي انسحقت منذ قليل، ليعود الجسد لسابق عهده وهو مازال ملقى على وجهه على أرض ذلك الكهف الجهنمي، لم يحرك ساكنًا بل تابع بصمت واستسلام ما يجري وهو يعرف جيدًا أن الاقتران الذي ترجاه منذ أربعين يومًا على وَشك الفاعلية، ثم سمع أصوات أقدام تأتي، لم يرَ أصحابها ولكنه رمق حوافرَ معكوفة وأظفارًا خبيثة تحوم حول



جسده قبل أن يشعر بنصلٍ يحز في أسفل ظهره مخترقًا لحمه، هنا فقط شعر بآلام هائلة إثر ذلك الاختراق ومن ثم خرجت صرخة مشروخة من حلقه قبل أن يستدركه الفناء بقدر نهائي.. ومحتوم.

***

انتفضت (رانيا) من على الفراش وهي ترمق (معتز) مسترخيًا على جانبه وعاريًا تمامًا، لقد كانت في أحضان ذلك الشاب (أشرف) فمن أتى ب «معتز»؟

- مافيش فايدة فيكي، طول عمرك كده.

-....

- السرير ده شاف كتير منك يا (رانيا).

- ... أ أ أعو ووذ بال ل لل لله ممن الشي الشيط.. الشيطاان الرجي الرجي الرررجيم..

هكذا خرجت منها العبارة متكسرة مخلوطة بالذعر والهلع.

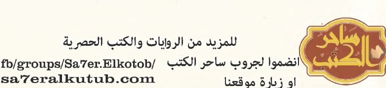
- اخرسي يا بنت الحرام.

صرخ فيها محتدًا.

- اززاي.. أنت.. ج ج جيت ..ههههنا وفين (أشرف)؟

قام واقفًا على الفراش عملاقًا متجليًا في أبهى صوره.

كان «معتز» قد أعدَّ العُدة ليمارس انتقامًا بطيئًا ضاغطًا مستمرًا كما الحياة تستمر بكل الأوغاد، لقد قرر أن ينتقم بكل استرخاء من الجميع، ومشكلته أنه غبي لأنه قرر أن يتخلص من أعدائه بسرعة، أيها الوغد التافه لمن تدخر قواك الشيطانية في حال فرغت من أعدائك؟، كان الصرع يتلبسه ويجعله أقرب لحيوان مسعور بل هو يعرف تمامًا أنه لا يتحرك برغبته الخاصة منذ التعميد وأقرب ساعات الحرية له تأتيه مع تفعيل رغبة الانتقام لديه، لقد أطلق تعاويذه التي تجعله يتلبس بهيئة غير هيئته وبالفعل تلبس بهيئة ذلك الشاب الرياضي ليدخل لرانيا في عقر عقر فراشها ويستمتع بمضاجعة وداع قبل أن..



جرت (رانيا) خارجة من الغرفة لتصطدم به واقفًا في ردهة البيت ينظر لها بابتسامة مقيتة أقرب ما تكون للاستمتاع.

- ماتخافيش أنا مش هموتك يا صفيحة الزبالة، أنا مجهزلك عرض ليكي لوحدك.

خرت راكعة أمامه تطلب عفوًا تعرف أنها لن تتلقاه أبدًا واندفعت الدموع مخلوطة بذعر ورجفة في حضرة ذلك الكائن الذي كان زوجها في يوم من الأيام، وأدرك عقلها أنها تواجه شيئًا لا القانون ولا التلاعب ولا محاضر الشرطة لها قبل به.

أقبل عليها «معتز» وقد لاحت في عينيه نظرة الافتراس ويكاد لعابه يتساقط عبر شدقيه بينما تنظر له (رانيا) غير قادرة حتى على إصدار.. صرخة اعتراض.

أمسك بذقنها لينظر في وجهها الملتاع ومد كفه الأخرى ليمسح دموعها وهو ينظر لها بتأثر كبير ومرت أمامه لحظاتهما الحلوة وصورة ابنته الفقيدة وانداحت منه دموع ساخنة تنزل بغزارة من عينه الجاحظة، تخيلت رانيا أنها لحظة ضعف لطالما رأته فيها في حياتهما السابقة فاستدرت عطفه بارتعاش، لقد ساحت الزينة واختلط الذعر بالكحل وبدت..

- معتز أنا..أنا.. أنا عارفة إني... سامحني يا معتز بحق العشرة.. سامحني لأنك لسه بتحبني، ممكن نبتدي من جديد وصدقني هعوضك عن كل اللي حصل، أنا هخلع (محسن) ووونرجع لبعض تاني.. سامحني ورحمة بنتنا(ولاء)، معتز.. رد عليا.. معتز ...ااااااااااااااااه

***



مروة

ذهبت لبيت الزوجية لأحضر بعض الأشياء التي تخصني وقد قررت وللأبد أن أغادر تلك الشقة اللعينة، ولتذهب هي وفرشها ورياشها الثمينة إلى الجحيم مع مالكها الذي هو زوجي، شيء ما يجعل قلبي لايكف عن الوجيب المضني وأنا أدلف لجوفها، يا رباه كأنني مساقة للإعدام، شيء يذكرني بحياتي مع ذلك الحيوان المسعور، مشيت مسرعة إلى خزانة الثياب وخلعت قدر المستطاع من ملابسي المعلقة، كانت أمي تنتظرني أسفل العمارة في سيارتي واستحثتني على الإسراع قدر المستطاع، إنها تخشاه كما تخشى المرض، وخصوصًا عندما صرّح لها الشيخ (حشمت) الذي هرعت إليه كعادتها بأن زوجي ملبوس ولا أمل قريب في خلاصه من شياطينه، وأنه من الأحسن الابتعاد عنه وطلب الانفصال أو الطلاق، لملمت ملابسي على عجل ووضعتها في حقائب بلاستيكية كبيرة ثم اتجهت إلى المرآه الكبيرة أجمع متعلقاتي الشخصية من أدوات زينتي وزجاجات عطري بسرعة بسرعة بسرعة، قلبي يخفق بشدة وأشعر ما يشعر به اللص حين يقتحم مكانًا بشكل غير مدروس، أرى انعكاسي بزاوية عيني ومن ورائه فراشي وتفاصيل غرفة نومي.. ما هذا؟؟ لمحت ما يشبه جسدًا متكومًا على الفراش عبر انعكاس المرآة.

لكن مهلًا مهلًا

الفراش لا يشبه فراشي

بل الغرفة كلها لا تبدو مثل غرفتي من الأساس

كان هناك ثمة تكوين لم أستطع تمييز ما هو، لويت عنقي لأجد البطانية مبرومة على ما يشبه شيئًا يقارب طوله من طول فتاه صغيرة، مددت يدا مرتعشة وأمسكت

بحافة البطانية الثقيلة وفككتها من التفافها حول نفسها، قلبي يكاد ينخلع من التوتر..

لأجد

لأجد

لأجد.. لأجد فخذًا آدميًا وذراعًا أنثوية مبتورة، كانت اليد مازالت تتحرك بتشنج وتلبس سوارًا من الذهب ذي الدلايات وخاتمًا ذا فص أرجواني، نفضت يدي عن البطانية صارخة في هلع فوقعت الساق على الأرض، ساق أنثوية رجراجة لحيمة بلا دماء ولا نزيف ومكتوب عليها طلاسم وأسماء بلون أحمر داكن، لم أتمكن من قراءتها بسبب ذعري الشديد، والذي جمدني في مكاني وكان الزمن توقف معي لينظر إلى تلك الفاجعة، وعبر نقطة بصري العمياء أرى نفسي في انعكاس المرآة ولكن ولكن.. ببطن منتفخة كبيرة جدًا مدلاة إلى ما قبل ركبتي بقليل.

نعم إنني حامل، ولكني على أبواب الشهر الرابع وهذا المنظر جدير بامرأة حامل في فرس النهروليس في جنين بشري، نظرت بجنون إلى نفسي بينما بطني يترجرج بثقل مع كل حركة، ثقلت خطواتي وأصبحت ساقي لا تقوى على حملي، أنفاسي تتسارع وأنا أستند على حافة التسريحة أرمق الهول الحادث لي، الذراع مازالت تتحرك في تشنج أعلى فراشي والساق ملقاة أمامي، الهلع لا يعطيني إشارة الإغماء للأسف، وجهازي الحركي يرفض الركض بشب ثقلي الجديد.. قبل أن يُدفع باب الغرفة كاشفًا عن.. عن عن.. عن «معتز».

***

لابد أن الزمن توقف لدقيقة وانا أرمق ذلك (الخواجة) بعينه الزرقاء المزعجة، العيون الزرقاء مفزعة أكثر من أي لون آخر، ربما بسبب عمقها الشفاف حيث يكون تصدير الذعر مباشرًا ظارجًا وبشرته الكالحة المائلة للرمادي فكان أقرب لزنجي أبيض لونه أو لأشقر قتلته الشمس قتلًا، والواقف على باب داري كما أشعر به ينتظر على أحر من الجمر دخوله بإذني للشقة، كان يقف بحيث يكون سادًا عليّ إغلاق الباب



ولكن حتى ظله لم يجرؤ على تخطي عتبة الباب، تعمدت أن أطيل الصمت عسى أن أخرج بأي تفسير كما أن قلبي ينضغط بصدري رافضًا أن أستجيب لهذا الكيان العجيب، يبدو لي كقِس كاثوليكي أو شيء من هذا القبيل، أو يبدو كحانوطي ممن كنت أراهم في أفلام الرسوم المتحركة لا أعرف ولا أستطيع أن أصف لكم انطباعي حينها ثمة رائحة عطن تذكرك بتراب المقابر وتباشير الموت التي تستنشقها عنوة وأنت في زيارة القبور.

إلى أن فُتح الباب المقابل لباب شقتي، إنه جاري (أحمد) وهو شاب أنيق يصغرني ببضعة أعوام ويعيش هو أيضًا وحيدًا مثلي، القس مازال واقفًا ينتظر الإذن بالدخول و(أحمد) يقترب مني وينظر لي مندهشًا من جمودي ونظري الموجّه لأعلى حيث رأس هذا القس المحملق بعينيه في وجهي.

- صباح الخير يا «تامر» ...ممم مالك واقف كده ليه؟

كان (أحمد) يقف خلف القس تمامًا وأنا أسمع صوته فقط، بينما القس يحجب رؤيتي له.

- صباح الخير، لا مافيش أصلي سمعت الباب بيخبط من شوية وبحسب حد من عيال الجيران بيلعب.

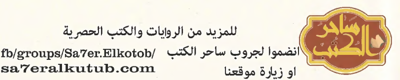
تلفت أحمد حوله بتمثيل كوميدي بعدما نزل درجة سلم ثم عاد لينظر في حدقة عيني. أحمد يحبني، ولكنه دومًا كان يخشى نشاطي الروحاني مثله مثل السواد الأعظم من الناس.

- لا مافيش حد يا مولانا، يظهر بيهيألك أصلك النهارده كنت فاتح القرآن على آخره.

لم أتحر جوابًا أرد به قبل أن يستهل نزوله على السلم قائلًا:

- على فكرة كان فيه حد سأل عليك امبارح وفضل واقف على السلم ييجي ساعة مستنيك.

- واحد مين؟



- هو قالي على اسمه وقالي إنه هيفوت عليك ضروري النهارده وأخد مني رقم الموبايل.

قلت له بنفاد صبروأنا أتابع تعابيروجه الخواجة. من الواضح أنه لا يراه أصلًا.

- اسمه إيه يا أحماااااااااد؟

نظرلي جاري باستغراب وقد فوجئ بانفجاري:

- اسمه.. اسمه (معتز) ياتامر مالك متعصب كده ليه؟

لاحت مني نظرة للخواجة الواقف بهدوء فوجدته - ذلك اللعين – يستغل انشغالي اللحظي في الحديث مع الجاري، ويمد يده دافعًا إياي للداخل بهدوء وحزم.. يريد ذلك الوغد أن يدخل باية طريقة لبيتي ويستغل سهوي عنه.

استفقت فجأة وغافلته أنا أيضًا ودخلت منفردًا لخطوتين، ودفعت ورائي الباب في عنف لدرجة أن زجاج شراعة الباب انفجر متناثرًا في وجه القس ووجه (أحمد) جاري الذي تابع نزوله مندهشًا من تصرفاتي ومبتعدًا عني في قلق.

تُري هل رحل الضيف؟ أم أنني من أوشك على الرحيل؟

....

أغلقت الباب في عنف كيبورجعت للوراء كأن شياطين القاع تقفزورائي جارية، إنهم بالفعل شياطين الجحيم، ثم من هو هذا (المعتز) الذي قابل جاري وسأل عني وانتظرلساعة أمام باب شقتي لابد أن الأمركان ملحًا لدرجة تجعله ينتظرني ساعة كاملة، الأمرله علاقة بمضيفتي التي بصقت في وجهي طردًا في ليلتي السوداء.

أمسكت بهاتفي المحمول وبحثت عن رقم «عايدة» مضيفتي الإجبارية والتي طردتني شرطردة أمس، ثمة رابط يجمعنا كلنا في مقلاة واحدة الآن. أنا باحث روحاني وهذه التصرفات لا تنبع إلا من قوى شيطانية حملتها معي من عندهم كمن يحمل فيروس الأنفلوانزا من رفيق الفراش.

رن الرقم مرارًا ولم ترد - تلك الشمطاء- أتحسب نفسها أنثى حتى تتدلل ولا ترداو لعلها تغلي الآن وتعد لي انتقامًا هذه الفاجرة خريجة الكباريهات، وجريت للكمبيوتر



وبحثت في (جوجل) عن شيطان أو جن على هيئة خواجة يحمل الصليب لأفاجأ بهذه المعلومة التي قرأتها عنوة في أحد المنتديات واخترقت عقلي:

(خربط ابن زحبيلة. جن (مسيحي) وهو حفيد الملك الأحمر ويتجسد وقت صلاة الجمعة ويحمل في يده مسبحة معدنية ويرتدي كما الخواجات الوجهاء، ويبدو كأنه قِس إذ أنه يحمل صليبًا في مسبحته، لكن لا تنخدع به فهو صليب مقلوب، هو يطلب الإذن في الدخول بأدب، وعندما يُسمح له بالدخول فهو يستحوذ على البيت بسُكانه ويجعلهم تحت أمره ويفعل لهم كل ضرر وسوء- وهو من عتاة الكفرة الذين خرجوا عن ديانتهم الأصلية -المسيحية - ويملك الكثير من النفوذ في العالم الآخر بحكم حجم التلبس والأذية التي يلحقها بالبشر أقلها الانتحار)

أسقط في يدي وشعرت برعدة قاسية تشمل عمودي الفقري، رجل يرتدي (السموكن) ويمسك الصليب مقلوبًا بيده، رجل لا يراه جاري وهو يكلمني، رجل يطلب بأدب الدخول إلى داري، لابد أنه هو، وأن أيامي باتت أسوَد من قرون الخروب فعلًا، ولكن لماذا؟؟ هل الموضوع له علاقة برحلتي أمس لبيت النسوة الأربع، ومن هذا (المعتز)؟ أسئلة بلا إجابات، رأسي يكاد ينفجر وخصوصًا أنني أعاني من خلل ما يجعلني لا أسمع لا قرآن ولا أذان..

ماذا فعلت بنفسي؟؟

***

تقدم نحوي كما يفعل تنين الكومودو ينقصه أن يمشي على أربع ويسيل لعابه اللزج تحسبًا لافتراسي، كان (معتز) يتقدم ببطء نحوي بينما أُمسك ببطني المدلاة والتي تثقل على جسدي الآن وأتقهقر للوراء إلى أن تعثرت بتلك الساق المبتورة فوقعت رغمًا عني على ظهري، وقبل أن ارتطم بالارض فوجئت بساعد «معتز» يحميني من سقوط مؤكد قائلًا بكل بقسوة الجليد وبنبرة عجيبة:

- حاسبي على اللي في بطنك.. يا قلبي.

ثم عدلني وضمني بشوق وحنين وأنا أهتز رغمًا عني في أحضانه.

- انتي ماتعرفيش انتي شايلة إيه، اللي في بطنك ده هوعوضي عن كل اللي شُفته في الدنيا الوِسخة دي.

نظرت له شاحبة بينما يملس هوعلى شعري الأشقروعلى خدي ويقول لي بنعومة الانزلاق:

- ماتقلقيش ، حملك مش هيطول عن كده انتي خلاص على وشك الولادة.

نظرت لبطني التي تضخمت بالفعل وأصبحت كما لوكنت في التاسع أوالعاشر.

- أمك مستنية تحت مش كده؟، اتصلي بيها وقوليلها تمشي أنا عاوز آخدك في حضني الليلة دي.

استجمعت مقاومة مُهلهلة ودفعت بيده بعيدًا عن بطني فتصلبت يده بقسوة على بطني ثم ركع إلى جوارها وألصق أذنه بها وابتسم.

- أيوة يا حبيبي أيوة يا سيدي وتاج راسي.. أنا منتظرك على أحرمن الجمر.

ثم كشف بطني لتبدو أمامه عارية وصعقت من منظرها وهي مدلاه كالقربة، فوضع كفه عليها بتمهل وهويمشي بها على نسيج لحمها المشدود ويطبع من شفتيه قبلات متتالية على سطحها.

وأمام عيني وجدت انبعاجًا ينموتحت يده ويرتفع أكثروأكثر..

بدا لي كرأس طفل يحاول أن يخرج ثم تلاه انبعاج آخريشي بكفه الصغيرة تجاهد لشق جلدة بطني

كان طفلي الذي لم يتم حملي فيه أربعة أشهريجاهد للخروج حتى لوشق لحمي.. شقًا..

***

تصاعدت عصارة معدتي لأعلى معلنة أن توتري آخذ طريقه للغليان وأصبحت أتجول في شقتي كحيوان وقع في مصيدة، ماالذي يجري هنا؟، بل والأسوأ أنني من خلال زجاج شُراعة الباب المسكورة ألمح هذا (الخواجة) لا يزال واقفًا على عتبة بابي ينتظرويبتسم بهدوء، كما أنني لا أسمع أي قرآن وبالتالي لن يسمعه ذلك الشيطان



الواقف على عتبتي، نهار الجمعة مازال في منتصفه وأنا عالق بشقتي، ماذا أفعل؟ بل ماذا فعلت لكل هذا؟ أولًا ذلك الكابوس المريع وذلك البساط الآدمي، وثانيًا ذلك الشيطان المهذب الذي يطلب بإلحاح مهذب الدخول لبيتي، بالتأكيد أنا عالم الروحانيات والفلك، ولكن هذا يفوق احتمالي بأكثر من المعتاد، باختصار لأنني مجرد (باحث) ولكني أبدًا لا أستطيع مجاراة تلك الأشياء المريعة وكفاني ما حدث في شبابي الأول في (شقة الهرم)، ثم ما حدث بعدها في شقة (وسط البلد)، في شقة الهرم كنت مجرد ضحية ووجدت نفسي في وسط لعبة لا أعرف قواعدها، وساعدني الآخرون في تجاوزها إلى حدٍّ كبير، وفي شقة وسط البلد كنت أنا المسببْ في الحدث بتهوُّري واندفاعي وغروري، أما الآن فأنا أشعر بعجز حقيقي ، بل إن الذعر يتملكني والحيرة تمزق تدبري لأمر نفسي، أمسكت بهاتفي وأجريت اتصالًا لحوحًا بصديقي عالم الروحانيات والعالم السفلي والذي أعرف يقينًا أنه لن يرد الآن على مكالمتي، ولكن لا بأس من التجربة. أعرف أنه خبيث كالشيطان، وأنه يريد أن يتلاعب بي معظم الوقت لأنه يغار من نزاهتي في عملي ويحقد على حب الجمهور لشخصي وثقتهم التامة في أخلاقي، تعرفت عليه من خلال البرنامج والتصق بي رغمًا عني بالرغم أنني لا يعجبني أسلوبه الحقير في التعامل مع الروحانيات، ولكن من قال إن الساحر لابد أن يكون شريفًا، كنت أعرف كيف أوقفه عند حده بطرق كثيرة، ولكنه ما يلبث أن يحاول الدخول لي من شتى الطرق بدعوى الصداقة.

- أهلًا أستاذ تامر، دي أول مرة تتصل بيا.

لمحت نبرة غريبة لم تدخل لإدراكي بشكل سليم ولكني استدركت قائلًا:

- أهلًا يا شيخ (حشمت).. ممكن أسألك في حاجة، فيه..

قاطعني بحدة قائلًا:

- لحظة يا تامر....

فترة صمت ثم فوجئت به يقول:

- إيه اللي أنت هببته ده؟



من الواضح أنه يمارس طقوسه الآن ويكشف على حالتي كعادته دائمًا حين يتفاخر أمامي بإمكانياته الروحانية، ولكن هذه المرة يتكلم بحدة وعصبية قائلا

- أنت مرصود وواقف على بابك شيطان هو سيد المنتحرين وتاج راسهم.

تظاهرت بالثبات الأجوف وإن اخلتج صوتي بعض الرعشة وأنا أرد:

- آ ..آيوة فعلًا.. بس آ.. بس مكتش أعرف إنهم بيظهروا بالنهاركده عيانًا بيانًا.

- وانت مالك ومال الحاجات مش قلتلي انك مالكش في المواضيع دي؟ ولا كنت بتتعالى عليا؟

تغيرت لهجتك الآن يا (حشمت الكلب) والله لأؤدبنك ولو بعد حين، ثم تابعت بنبرة ملحة متعجلة:

- اللي حصل، ما أعرفش، عندك حل ولّا اشوف غيرك؟

أنا أعرف كيف ألاعبك نفسيًا يا (حشمت) وأعلم أنك تريد الظهور أمامي بدور الفذ العليم ولن ترفض مساعدتي حتى تستعرض عضلاتك، ولكن لا بأس من إظهار بعض الاستغناء.

تصنع (حشمت) الأهمية القصوى كما يحلو لكل العاملين بالشعوذة قائلًا:

- الموضوع ده لحسن حظك مايقدرش عليه إلا العبد لله بس – بس ليا شرط يا تامر.

(حشمت) يمارس الابتزاز الناعم والمحسوم مسبقًا منّي بالموافقة.

- اشرط براحتك، بس خلصني من اللي واقف ده.

- تتكلم عني في الحلقة الجاية من البرنامج بتاعك وتخليني أعمل مداخلة وافية.

ركبني العصبي فأنا أعرف أنه يخطط ليشهر نفسه على حسابي، وأنا أعرف أيضًا أنه شيطان في صورة إنسان ويصعب علي أن أكون واحدًا من الذين يظهرون أولئك المشعوذين على الهواء ولكن أسقط في يدي فلم أملك غير الموافقة الكريهة.

- ماشي يا(حشمت) بس خلصني وحياة ولادك أنا هموت من الرعب.

- خليك معايا على الخط وافتح (الاسبيكر).



- فتحته..

- خليه قريب من باب البيت.

اقتربت من بابي المكسورة شراعته لأجد القس الأنيق مازال واقفا ينتظر، ويبتسم بإغواء لأفتح له الباب، لم أجرؤ على الاقتراب منه، بل دفعت بالهاتف المحمول لينزلق أرضًا كما نفعل مع قنابل الغاز.

ثم انطلق صديقي الساحر السفلي يرطم باللغة السريانية التي هي مزيج من لكنات إغريقية مع مخارج ألفاظ عربية معكوسة، ويقول أهل الروحانيات إنها اللغة التي تكلم بها الجن مع النبي الملك (سليمان) عليه السلام، عندما سمعتها لأول مرة في حياتي، ضحكت وتذكرت الراحل الكوميدي (اسماعيل ياسين) وهو يرطن في أفلامه بها وابتسمت، ولكني عرفت أن لها تأثيرًا ساحقًا على من يرددها فعلًا بشكل متمكن.

(كوستنايفو لاكازبون قورنا، لا فيتورا يبرسا بينا لااو. كومكما اربلالربونابيها، سمسيائيل برهيتيه موهاجنه بار عزازبر، ابهال كهكهيال بانفلاف نياندرفال)، ثم يكمل بالعربية الفصحي وكأنه يترجم توعيذته السريانية أن ارحل بسلام وأنه من سليمان أن آتوني طائعين محمولين على ريح (عشاج هجظز) بانوا أجمعين، والسمع والطاعة بحق النارومروجها وبحق الطاغي الأكبر الذي رمي بولده في اللظى وأنه، في العجل العجل الوحا الوحا والساعة الساعة)

هكذا استمر صديقي يرطن بلا كلل بينما كلما نظرت للقس وجدته مازال واقفًا يستمع بانصات للهاتف، وتلين ملامحه وتعبث بتردد البندول، وتلوح من نظرة مركزة لي أنا، تشمل غيوم العبوس والافتراس، فأغمض عيني مرتعبًا وأتجمد في مكاني يائسًا، صديقي اللعين مستمرباستعراض نفسه ومستمربالرطانة السريانية ثم فتحت عيني فجأة لاجد أن ذلك الخواجة المُهذب.. قد رحل

تنفست الصعداء اخيرا فقال لي صديقي.

- احترس يا صديقي «تامر»، أنت (مرصود) من كيانات سوداء ولكن ما عندي علم بالسبب.

- طيب إيه حكاية الأذان أنا مش بسمعه نهائيًا، كمان القرآن مافيش خالص.

- لأن (الراصد) هنا كافر تماما ولا يرحب بأن يسمع (المرصود) أي كلام من الله، هو يسد أذنك ويغلق قلبك تدريجيًّا، لعلهم يريدون منك شيئًا، عهدًا مثلًا، أو خدمة، أو أنهم مسلطون.

- لكن ليس عليه لسلطان من كلام الله يا (حشمت).

- اسمع، لو قلت للناس في الماضي إنك ستحمل هاتفًا في جيبك لن يصدقوك، مكذا الجن يبتكرون وسائل التحايل حلالًا كانت أو حرامًا، (الراصد) هنا بيسيطر على (المرصود) مش على كلام الله بدليل إن الناس اللي حواليك سامعينه لكن أنت لا، يعني أنت بس، يعني سمعك وبصرك ومشاعرك أنت بس، يبقى هنا السلطان عليك أنت بس، أنت عملت إيه يا تامر في نفسك؟

الحقيقة أن كلامه يقترب من المنطقية إلى حدٍّ كبير بدليل أن الجيران والناس مازالت تسمع كلام الله إلا أنا، و(حشمت) يؤكد نفس المعنى.

فقلت له لأول مرة منذ أن تكونت علاقتنا المفروضة على تمامًا.

- ممكن آجي أزورك يا شيخ (حشمت)؟

- ممكن.. بس مش حالا.. لازم اعمل شوية ترتيبات وهبقي أتصل بيك.

- خلاص قولي فين لحظة أكتب العنوان لأني بقيت نساي جدًّا.

- سفح الهرم آخر الطريق الدائري من ناحية ترعة المنصورية، تعالى هناك وأنا هخرج أجيبك بس انتظرمني مكالمة الأول خلال أيام معدودة.

* * *

هل تعرف معني أن تملك قوة روحانية ما؟، وفي نفس الوقت تحمل حقدًا وألمًا حارقًا يكوي تلافيف مخك؟ . ثم هل تعرف معنى أن تكون تلك القوة الروحانية شيطانية لا مجرد اتصال بالجن؟ إنك توصد باب الرجوع بل تحرق كل السفن، وتعرف أنك مقيم للأبد على شاطئ الكفر والهتان، وإما أن يكون الحقد في قلبك عاتيًا، ومقرونًا بحياتك التي تكرهها، إنه أنا بلا زيادة أو نقصان، لقد استمتعت أيما استمتاع وأنا أتابع تلك الزانية (رانيا) تشاهد بعينها لحمها وهو يتمزق تحت سكيني



قطعة قطعة، أنتم لا تعرفون قيمة ومتعة التركيز في عيون ضحيتك وهي تأخذ نصيبها القدري من انتقامك، لقد عرضت على الفاجرة بأن تخلع زوجها الذي هو صديقي الخائن وجلادي (محسن)، لقد ذكرت اسم ابنتي الراحلة (ولاء)، لا تعرف أنها أججت الحقد والكراهية في قلبي بلا عودة، لقد حكمت على نفسها وهي لا تدري، اشتعلت نيران الحقد في كياني، فقررت أن أبوح لها برأيي النهائي في مصيرها، تخيل أنك تهرس لحم زميلك الذي طالما سخر منك، أو تفتك بمن جعلك أضحوكة وعبرة، نصيحة مني لكم، انظرو جيدًا في عيون من تنتقمون منهم، إنها اللذة الكبري التي ما بعدها لذة، إن الله قال لنا (الكاظمين الغيظ) ولكنكم تعرفون طباع الرب، إنه أبدًا لا يعطيك منتهى اللذة التي يعطها لي الشيطان، أما ما كانت تعرف بزوجتي فأنا أدرى الناس بالذي يحرقها حية أمامي، إنه جسدها الذي طالما بالغت في العناية به، وطالما وهبته لكل طارق على بابنا، انظري جيدًا يا (رانيا) وأجّلي الصراخ لما بعد، لن أهبك الموت بسهولة يا رضيعة الرجال، أعرف أنك تتشبثين بالحياة رغم ذراعك المبتور وحلمتي ثدييك الملقيتين في طاسة المطبخ، إن طعمهما عندي الذ من البول الذي تجرعته والبراز الذي لوكته بين شدقتي لأجل تلك اللحظة، عندما جعلتها تراني ألعق أصابعي بعدما التهمت الحلمات، بينما تراقبني والصدمة العصبية تهرس وجدانها، لقد نقشت على لحمها الذي طالما ارتعش من النشوة طلاسمَ جهنمية تليق بحبس أي رحمة عنها، بل إنني لن أترك روحها تذهب بعيدًا، بل أشرفت بنفسي على التوصية بحملها إلى الجحيم بعدما وهبت روحَها كهدية لا ترد لسُكان الليل وأسياد الظل، إنني الآن أستمتع بالإصغاء لروحها وهي تصرخ بعدما كتبت كل لعناتي على جسدها قبل أن أمزقها إربًا، لقد رحلت الزانية الخائنة محمولة على نعش من سعير حيث الشياطين الذين نافَستهم في شرهم وغوايتهم، حينما أهملت ابنتنا المريضة بالدرن وتركتها تموت مغتَصبة، حينما استَحلت فِراشي وتركت للحمها العنان تحت أسنان صديقي يمضغها وقتما يشاء، حينما تخلت عني لمجرد أنني تعثرت بسببها واحتفظت بأصول أملاكي، جميل جدًّا أن تلعب دور القدر ولا تنتظره يأخذ مكانك في التشفي

وتصفية الحسابات، فأنا هنا قدرٌ أسود مسلط بحد الحربة على عنق كل ما سوّلت له نفسه أن يطحن عظامي على نتوؤات الرحايا. لا تسألوني مغفرة لم أعرف لها تواجدًا أو طريقًا. لقد بعت روحي لمن هو أشد قسوة من الدنيا وليكن رد اعتباري مُلهمًا للشياطين أنفسهم جيلًا بعد جيل.

هكذا كان يفكر (معتز الجمال) وهو يشق لحم (رانيا الصاوي) بالساطور ويقطعه مربعات كالدجاج، بعد أن احتفظ بالرأس لحين استخدامه في وقته، والتي لم يكن ينوي أبدًا أن يستخدمها إلا لمصلحته الشخصية، فهو لا يريد شعوذة ولا دجل ولا زبائن، كفاه نفسه كزبون المحل.. الدائم.

***

لم أكن لأسمح (لمحسن الغندور) بإتمام العمرة فأنا أريد نهاية ممزوجة بالنجس واللعنة الأبدية لروحه، فلا انتقام من مجرد القتل بل لابد أن أتمم صفقتي وأن أرسل روحًا أخرى للجحيم كهدية مقبولة، وبالطبع لن تتقبل الشياطين روحًا كانت تتعبد تائبة، لأن ذبذبتها لن تتوافق أبدًا حيث أريد إرسالها، بينما كان (محسن) يعد نفسه للقب (الحاج) محسن، وجعل يخطط كيف سيذهب ليشتري الهدايا للناس الذين تشَفوا في شلله السابق، لم يضع في اعتباره أن شفاءه جاء بالسجود في المرحاض فهذه أشياء قد تحدث ويختل الإنسان في لحظة ما، لكنه في الأخير (مُسلم) اسمًا فقط ومجهز للعبادة والتوحيد، هو يخشى موسم الحج لأنه مزدحم طويل التفاصيل لا يستطيع له صبرًا، فالكأس والسيجار المحشو بالحشيش لن ينتظروا لأكثر من عدة أيام، أما العمرة فهي إجراء سريع يؤتي أُكله من حيث الشكل الاجتماعي والسمعة النزيهة، وقد خطط محسن بالفعل لإجراء (العمرة) المباركة مرتين في السنة حتى يتأصل للجميع أنه وَرِع تقي ويظهر بصورة جديدة تتأقلم مع خططه المستقبلية، يعامل الناس بما يرضي الله، إنه اليوم الأول له في (مكة المكرمة) وأول يوم في الفندق قبل أن يذهب للمسجد الحرام والمحتوي على جوهرة الدين الإسلامي وصاحبة الرداء الأسود المطرز بالذهب.. الكعبة.

***



أضحيت كمجنون أبحث عن إجابات لما يحدث لي فأنا على الرغم من تعرضي لتجارب ماورائية كثيرة إلا أن هذه المرة أشعر بحيرة لزجة تلتصق بسقف عقلي كبُلغم معلق يرفض الكشط، لماذا ما يحدث وكيف يتأتى لإنسان أن يرسل شيطانًا يقف جهارًا نهارًا أمام باب شقتي يطلب الإذن بالدخول؟، الساعة الآن الثامنة مساءً وأشعر بثورة عصابية تكاد تخلع عقلي من جذوره، الجو بارد بشكل مسموم وأريد بشدة أن ألتف بالغطاء وأذهب في ثُبات عميق، فقمت من فوري بالتوضؤ مرة أخرى وحسبت الوقت إلى أن أقيمت صلاة العشاء بالتقريب لأنني لا أسمع أي أذان، وأديتها بتروٍّ وخشوع توطئة للذهاب إلى الفراش على غير عادتي في هذا الوقت المبكر، وبالفعل على الساعة التاسعة والنصف تقريبًا كنت أدلف لفراشي الوثير، أترجى جفوني بالانغلاق وبعقلي أن يطفئ مُحركه، وبجسدي أن يرتخي تحت الأغطية الدافئة، تلوت آية الكرسي ثلاثًا ومن ثم ذهبت إلى عالم النعاس.

الساعة في المنبه تقترب من الثانية عشرة، أتقلب على وسادتي سابحًا في الأثير، إلى أن انتبهت إلى اهتزاز الهاتف المحمول جواري يئز بزنين صامت، فتحت عيني جزئيًّا ومددت يدي إليه، كان رنينه المهتز الصامت يرسل شيئًا من الضوء للغرفة المظلمة فأنا أعشق النوم في الظلام الحالك وأقل مصدر للضوء يزعجني، وعلى هذا الضوء وجدت مفاجأة ضخمة بل مفاجأة طويلة لدرجة أنها تصل لسقف الغرفة إلى الآن لم أنسَ طعم الهلع المصاحب لما رأيته.

فعلى وسادتي الطويلة أجد رأسي أنا بين ساقين رفيعين ينتهيان بقدمين آية في القذارة والقبح الشديد معروقة خبيثة لا تشي أبدًا إلا بكل شؤم، رفعت بصري بهلع شاهق لأجد جسمًا نحيلًا معروقًا ينتهي برأس كبير أصلع، اهتززت في موضعي كما يفعل الهاتف النقال وشعرت بسخونة تحتي، لابد أن جهازي البولي يعترض على انضغاط أعصابي وذعري ويتبرأ من تحكمي في مثانتي، ماذا أفعل؟ ظل الوضع لدقيقة حسبتها دهرًا قبل أن ينحني الجسد ويقترب الرأس من وجهي الملتاع.

يارب الرحمة، ماهذا القبح ولقد تقابل رأسه مع رأسي بوضع متعاكس، لو كنت



مكاني هل تجرؤ على الحركة أو على فعل أي شيء ؟، تماوج الزمن في رعشة الذهول، رأس كبير يشبه ما رأيته سابقًا في كوابيسي، نعم إنه الرأس الذي نبت وسط البساط، الآن أنا أراه بوضوح الواقع المقيت، لابد أنه شيطان من سكان الليل الدائمين.

تفحصني الوجه ردح من الزمن قبل أن أسمعه يقول:

- أنت ....مطلوب

؟؟؟؟؟؟

؟؟؟

* * *

أمضى (محسن الغندور) ليله في الفندق غير البعيد عن الحرم الشريف، حاول أن يستشعر تلك الروحانيات التي تغلف المكان بل حاول أن يستلهم شيئًا من الخشوع والتوبة لسطوة الحيز المقدس، ولكن هيهات، أفكاره كلها تتركز بشكل غير طبيعي في زوجته (رانيا الصاوي)، كان يعرف طباعها الشَّيِقة وتساءل بينه وبين نفسه الخبيثة، أي شيء تفعلينه الآن يا عشيقتي السابقة في غيابي؟، حاول طمأنة نفسه فلم يستطع، التصورات النجسة تهاجم عقله بمشاهد تجمع المرأة برجال آخرين..

أمسك هاتفه المحمول وأجرى اتصالًا بها.. لا رد..

أجرى محاولات كثيرة ولا رد..

أين ذهبت العاهرة؟ ولماذا لا ترد على مكالماتي؟

لابد أن في الأمر شيئًا، لابد أنها دبرت إقصاءً له من حياتها

صبرًا.. سأنهي طقوسي وعُمرتي وأعود لمصر لأعلمك الأدب، ولو تطور الأمر فالطلاق بعد فضيحة بجلاجل.. لابد أن ألقي بها في المزابل تلك العاهرة

لم ينسَ أبدًا استقبالها للرجال أثناء شَلله.. أو معاملتها الجافة له والتي اتسمت بالضجر من خدمته، واشمئزازها المقيت وهي تغيّر حفاضاته وهو بعد مشلول كسيح ملتوٍ في فراش مرضه المهين.

لسوف يكسر جُمجمتها على أية حال ويجعلها عبرة للزانيات أمثالها، لسوف يفضحها بين سكان الحي ويسحبها عارية للشارع قبل أن يتركها.

وعلى هذه الأفكار نامت عينا (محسن) تمهيدًا لزيارة الكعبة غدًا.

صحا من نومه ثقيلا مهموما. قام باتصال أخير ل (رانيا).. لا رد..

فقام متثاقلًا لينضم إلى فوج المعتمرين. الجو يتسم بحرارة مقبولة تليق بخريف متقلب، ولكن كل شيء مكيف الهواء باردًا بدرجة محسوبة.. حتى أرضية الحرم باردة تشي بخدمة متفانية، ولكنه فعلًا لا يشعر بأي روحانية ولا أي انصياع من الذي سمع عنه من أصدقائه وأقاربه. فلا خشوع ولا دموع ولا قلب وجل من وجوده ببيت الله الحرام.

وبمجر أن دخل الفوج صحن الحرم حيث تقف الكعبة. بدأ الجميع في البكاء والتشهد والدعاء لأنفسهم وذويهم.. إلا (محسن)

فقد عُقد لسانه وحُبس بين فكيه مقيدًا، مد بصره إلى حيث يشير زملاؤه إلى خير بيت بني للناس، ولكن لم يرَ شيئًا على الإطلاق وكأن الكعبة أصبحت شفافة يخترقها ضوء عينه إلى ما وراءها..

تعجب بقلقٍ وسأل من حوله:

- فين.. فين.. فين ال.. الكعبة ؟

نظر له المحلقون باندهاش كبير فهو على مرأى مباشر منها وخصوصًا في تلك الأيام التي خف فيها زحام المعتمرين، كيف لا ترى الكعبة بردائها الأسود المطرز بالذهب يا أحمق؟ وهي درة المكان والجوهر البارز فيه.

سأل مرة أخرى في حيرة أكبر:

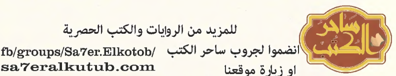
- فين دي أنا.. أنا مش شايفها خالص.

نظر له الناس برعب وابتعدوا عنها مسافة ابتعادهم عن كلب أجرب، بينما يعلو صوته متسائلًا فيما يشبه الذعر الوليد:

- فين الكعبة أنا مش شايف غير المسجد والناس بس..

- فين الكعبة ؟ فييييييين؟

***



انهيت من طقوسي وتم تعميدي، ولا أحسب أن الذي فعلته يطيقه شخص عادي من الذين ينكبون على شهواتهم ويجمعون الأموال ويصرخون دائمًا في حملة دعاية ذاتية يتكلمون فيها فقط عن أنفسهم، أنا الآن أحمل جنسية الليل وواحد من سكانه، ولكن شيئًا ما يؤرقني وهوشعوري بأنني لست ملك نفسي أبدًا بل أنا منقاد بشكل حتمي لقائد لا أعرفه تمامًا، ولا أعرف أي نية يريدني بها. هل تعرف هذا الشعور؟، بأنك مجرد دمية من لحم ودم وانتماء لا تعرف وجهته.

تحرك الهواء مبعثرًا شعيرات وجهي الذي ينظرلهذا العرين الذي قبعت فيه أربعين ليلة أتقرب لهم، والآن حان موعد الرجوع لدنيا الغبار والزحام والبشر التافهين، نسيت أن أقول لكم بأن ثمة تغيرات فيزيائية طرأت على ذاتي، جسدي أصبح أكثر تماسكا من ذي قبل وفقدت بعض الكيلوجرامات وبدت عيناي أضيق وأكثر عمقًا وسُمية بل إنني لم أعد في احتياج لأدوية الضغط والسكر، لكن لكن لكن.. ماهذا ؟ وجدت تحت إبطي الأيسر ما يشبه زائدة لحمية غامقة مثقوبة القمة، إنها كما لو كانت دملًا قبيحًا، تحسستها، لا لا إنها ليست دملًا، بل هي.. هي.. لا لا.. إنها تبدو كحلمة ثدي امرأة، بل إنها بالفعل حلمة ثدي كبيرة نوعًا وقد تمركزت حول نفسها متخذة لونًا بنيًا لا يتناسب مع بشرتي البيضاء أصلًا، نبتت وسط الشعر الغزير تحت إبطي الأيسر، تفحصتها بذهول عارم، ولم أعرف الهدف من وجودها، وهل هي ناتجة من طقوسي أم ماذا؟ كما أن أذني تقريبًا أصبحت مسدودة لا أسمع منها إلا صفيرًا متواصلًا ممزوجًا بهمهمة متدخلة ذات رجع وصدى وكأني أسترق السمع من خلف الأبواب الموصدة على فراغ الأهوال.

لملمت متعلقاتي وأوراقي التي أفرغت فيها التعاويذ وكتبي التي أخذت منها مصادر التواصل الجهنمي وحزمت كل شيء، بقي أن أنظف نفسي نسبيًا من طبقات القذارة التي أضحت كتربة خصبة للبذور، خرجت من الداروجمعت من حيزالمقابرالمتاخم للداركيسًا من التراب، ورجعت للمنزل وخلعت ملابسي التي التصقت تقريبًا بجلدي وبللته بالماء، ثم أهلت التراب على جسدي لأفركه وأدعكه كي أتخلص من طبقة



القذارة الزيتية بالكشط والتفريك المتواصل، ثم اغتسلت وإن شعرت أن القذارة لم تذهب بشكل كامل، وانطلقت لدنيا الأحياء عائدًا لشقتي الحقيرة الكائنة على السطوح، أتحرق شوقًا لتجربة ما حل بي من قدرات سحرية شيطانية، ولأختبر نفسي ببطءٍ وتلذذ، والويل كل الويل لمن يعترض طريقي أو يحاول أن يقف في وجهي، يالها من مشاعر التي تجتاحني وأنا عائد من قبر مظلم، الحياة تضج بالحياة، والناس يتفاعلون فيما بينهم كما الجرذان في الخرائب، ثمة فوضى عامة تلون الحياة في مصر وتجعلها مملوءة بالهلع المتواري خلف الوجوه، ثمة أحقاد طافية على سطح الوجوه، إثر التوتر السياسي الرهيب الذي يجتاح الشارع المصري في ذلك الحين. بين العمامة والبيادة، بين الناس وبعضهم وقد فاض بهم الكيل وتفحشوا وانقسموا كما لو كانت الحياه لن تسير إلا بهؤلاء أو هؤلاء.

وصلت ل(بولاق الدكرور) على السادسة مساءً منهكًا مكدودًا أريد تنظيفًا إضافيًا أتخلص فيه من طبقة الأربعين يومًا التي لم تذب تمامًا تحت تأثير الدعك والفرك بتراب المقابر، استعنت ببعض العطر لكي أتحرك في مشوار السفر من الفيوم للقاهرة وكانت الناس تُقشعِر أنوفها وتبتعد عني مشمئزة من رائحتي الخبيثة، لكن نظرة واحدة من جفوني العامرة بالأشواك كانت كفيلة بإخراسهم وإبعاد نظرهم عني، الآن من حقي أن أنظر لبني البشر جميعًا بكل استهانة واحتقار، فمثلهم لابد وأن يهرع خائفًا لو عرف من أنا الآن، لقد تولد لدي إحساس جارف بالكبرياء ولعله هو ذلك الكبرياء الذي قابل به إبليس قرار الله بالخضوع لآدم، ياله من تعسف إلهي أجبر مولانا إبليس على الرفض، فكيف تجبر من هو أعلى شأنًا على الركوع لمن هو أقل أقل أقل من مجرد خادم له، نعم هو نفس إحساس سيدي الشيطان حين رفض تفضيل الرب لآدم عليه، وهو الأرقى والأعلى والأكثر ذكاءً وحنكة، نعم لقد ظُلم إبليس وكان له الحق في مثل هذا التكبر وإعلان هذا العصيان القدري، مازال الهسيس الصافر يعمر أذني ويجعلني بالكاد أسمع صخب البشر من حولي، كما أنني صرت قادرًا على رؤية الشياطين والأرواح بشكل متقطع، لو أتيحت لباقي البشر رؤية ما أراه لصار الهلع

ممزوجًا بحياتهم اليومية، أري الشياطين تعمر الحياة اليومية بين الناس بل وتلتصق ببعضهم بطريقة لم تتصورها، فأجد بعضهم وقد جلس الجن جلوسًا على أكتافهم يهمس لهم بخامات الحقد والعدوانية، بينما أرى بعضًا منهم يلتصقون بأعضاء البشر الحساسة ليجعلوهم أقرب للحشرات في موسم التزاوج ويجبروهم على التحرش والإتيان بالفاجر من القول والفعل، كنت أعتقد أنني الوحيد المتصل، لكنني وجدت السواد الأعظم ملتصقًا بهم على غير علم منهم هم، سليت نفسي بمراقبة هذه الذبذبات الصادرة وأنا مستمتع بالمراقبة التي لن يتصورها أحد من العوام المتكاكين على حياتهم كما الصراصير تلعق أحلامها من بقع القاذورات، كنت أرى سكان الليل بأحجام مختلفة منها ما هو في مقاس دبوس الشعر ومنهم الهلامي الذي يماثل الجسد ومنهم من هو غليظ ثقيل يركب على الأكتاف وتتلون أشكالهم تبعًا للنفس التي تسكن الجسد الآدمي، يالها من قدرة تبعث على الرجفة فأصبحت أرى الناس بأشكال شياطينهم لا بشكلهم المتداول، وصلت لمنطقة بولاق الدكرور التي تسمى مجازًا بالصين الشعبية، حركة التعمير الرأسي بلغت منتهاها وباتت الأبراج شاهقة متراصة على شوارع ضيقة لا يبلغ عرضها أكثر من أربعة أمتاربات الحواري والشوارع مظللة بكتل الأسمنت والبشروبات التنفس فيها كما لو كنت تاخذ شهيقك من مؤخرة كلب منفوخ بالغازعرجت لحارتي الضيقة، تحوطني نظرات الناس الفضولية بلا سبب، إلى أن وصلت للبيت القديم الذي لم يطله بعد السحق المعماري الجديد.

وقبل دخولي للبيت فوجئت بالمعلم صاحب العقار يسد عليّ الطريق بسحنته الغارقة في الحشيش والتوهم بأنه رجل، كان المعلم (سيد) يسد الطريق عليّ متوعدًا إياي بالويل نظير اختفائي وعدم دفعي لأجرة الشهر الجديد، ثمة شيطان أعمى يجلس محوطًا ساقيه برقبة سيد الغليظة ويهتز بنشوى للغل الطافح من ملامح الرجل.

- فين أجرة (المخروبة) اللي أنت قاعد فيها يا سي «معتز» ؟

كان المعلم (سيد) رجلًا شعبيًا جدًا تفوح منه رائحة المعسل والبن والشاي إذ أنه صاحب مقهى يشمل الدور الأول بالكامل من البيت الذي أسكن سطحه، يجلس على



بابها دائمًا ليسطر على أملاكه كما يحدد الكلب منطقة نفوذه بالتبول في الأركان، وهو يأخذ من الكلب شراسة منظره فقط؛ فيبدو حين يغضب كمسعور يستلهم نهش مؤخرات الناس ويحسب نفسه من قادة المنطقة نظرًا لسنّه ووضعه كصاحب ملتقى للمتسكعين ، تعيش أسرته في الدور الثاني ثم ثلاثة أدوار أخرى عامرة بجيراني الذين لا أعرفهم، ثم السطح الذي يشمل شقتين صغيرتين إحداهما أقطنها أنا والثانية يسكنها رجل ضرير اسمه (مصطفى) بلغ من العمر عتيًا ولا يخرج إلا بصحبة أقربائه الذين يأتون لزيارته نادرًا.

نعود للمعلم (سيد) الذي يسد باب البيت بجسده المفلطح الأكرش ويسألني عن أجرة تافهة لا تتعدى المئتين جنيه، لقد تضاءلت قيمة النقود عندي بما لا يقاس، فأنا أحصل على ما اريده بدون تردد حتى ولو كان على جثث وأشلاء، ولكن صبرًا لا أريد استنفار الشياطين بشيء تافه كهذا الأكرش الدميم.

جاوبته بثبات هذه المرة فأنا كنت أهرب دومًا من مواجهته لأنه يملك نفيرًا عاليًا في كلماته، يجذب به انتباه المارة والجيران ليؤكد على سطوته التي أدمن إشهارها لدرجة كوميدية، أما الآن فالوضع اختلف أيها الرمة،ايها الجيفة المركوبة من عميان الشياطين.

جاوبته في ثبات وأنا أنظر لعينه الحمراء من كثرة تدخين الحشيش.

- بكرة ابعتهولك يا (سيد).

ذهل الرجل من نطقي لاسمه مجردًا لأول مرة، استشاط غضبًا وقال في عنجهية رافعًا عقيرته المشروخة بينما شيطانه يصيخ السمع وينشب مخالبه في فروة رأس المعلم الذي صرخ وهو يهز راسه بحركة نسائية:

- وأنا مش بَعَر.. يا سي «معتز» عشان تقولي بكرة وبعده، يالا لم كراكيبك وبالسلامة فيه واحد هياخد الأوضه بمتين وخمسين.

نظرت له بثبات مستمرًا في استفزازه وكأني أقاوم النعاس:

- لا أنت مَعَ..ص فعلًا يا (سيد) وبتعَرَ.. على مرات صاحبك اللي ساكن في الدور التالت وماشي معاها في البطال والناس كلها عارفة.

بُهت الرجل لبرهة قبل أن يكفهر ويغلي طافحًا سيلًا من الألفاظ الشعبية الصميمة التي تخص شرف أمي وجدودي وسيرتي وذكورتي وكل شعرة في جسدي بل امتد به الأمر إلى أن يمد يده ويحاول صفعي أمام الناس الذين تجمعوا ليشاهدوا هذا السيرك بين المعلم ذائع الصيت وبين رجل غريب يكادون يعرفونه بالشبه..

- يابن.. يا جربوع يابن الحرام.. ياللي..

كان كرم الرجل بالغًا ومبالغًا في وصفي كما لو كنت ألد أعدائه ورأيت شيطانه يبلغه بالمزيد ويتسحثه على الانتحار أمامي أنا.

قبل أن أرفع اصبعي أمام عيني ويستحيل لونها كلها للأسود القاتم وأنا أقول

- لو فتحت بقك تاني.. هموتك..

لابد أن شيئًا في عيني وحركة إصبعي أوقفت مشاعر الرجل؛ فقد توقف تمامًا عن الكلام وتحول لتمثال ذي كرش قبل أن أزيحه بسهولة وأرتقي درجات السلم حيث شقتي شديدة التواضع.

الغضب ينمو باهتًا لم يأخذ لونه القاني بعد، ولكنه يتكون على أية حال.

وأرجأت حسابه لما بعد استفاقتي وانتعاشي أما الآن أنا فعلًا مجهد وأريد النوم الطويل الأسود بعد أن أنظف نفسي من أوساخ الطقوس.

***



محسن

الكثير من الناس يعيشون ويموتون بلا أي مغادرة للذات، فعالمه مختصر على جسده واحتياجاته ونزواته وشهواته فقط لاغير، لا يعرف أي معنى للعطاء أو التفاعل الإيجابي، ولولا طبيعة الحياة التي جعلتنا جنسين، لتزاوج ذاتيًا مع نفسه، ولنكِح نفسه وضاجع ذاته بلا أي تردد وبكل فجور وأنانية مع أنها نفسه هو، ولكن احتياجنا للطرف الآخر جعل هؤلاء بالكاد يتواصلون معه، ليس للتواصل ولكن للاحتياج، وكان (محسن الغندور) من هذا النوع بالذات، فهو يعشق نفسه ويعبدها ويُبجلها بل تذهب به هذه الذاتية بعيدًا عن اعتبارات أخرى، كان صديقًا وشريكًا ل (معتز الجمال) ولكن بمجرد أن ناوشته زوجة صديقه عن نفسه، نسي من هو صديقه، وبمجرد أن ارتفعت المياه لأعلى مع شريكه ثار حاقدًا وكاظمًا غيرة وحسدًا بلا نهاية، لم يضع في اعتباره أنه شريك، وأنه يقاسم «معتز» أرباحه ونجاحه كلٌّ بنسبته، بل اربد وجهه الحقيقي كارهًا لصديقه، نعم يا (محسن) لقد تسببت في موت ابنته بشكل غير مباشر عندما حرضت على اختطافها من أجل الابتزاز، ولم تحتمل الفتاه عملية الاختطاف بعيدًا عن أبيها وأمها، وتعرضت للاغتصاب المتكرر من خاطفها بعدما شققت طريقك أنت أولًا فيها لم تبالِ بمرضها التنفسي ولا بضعفها ولا مظاهر المراهقة غير الناضجة على محياها، فهي بالنسبة لك أنثى وكفي، وبمجرد أن تعرفت الفتاة عليك من وسطهم، أضمرت التخلص منها سريعًا قبل أن تتم عملية الابتزاز لآخرها، فقتلت ابنته (ولاء معتز الجمال) فتاة في الرابعة عشر وجدت مهتوكة الشرف، شاخصة العينين تنظر للسماء في ارتياع من قسوة شياطين الإنس، بل زاد الأمر عليك أنك اختطفت زوجته واتخذت منها خليلة رسمية يعرف بقصتها كل أقرانك إلا معتز

،وبعد انهيار صديقك وشريك عملك المربح طمعًا في الاستيلاء على كل ما هو ليس أبدًا من حقك، والآن أنت سليم معافى بعد مرورك من تجربة الشلل والتقوس على فراشك بل أنت الآن في فرصة ضخمة للتوبة أثناء تأديتك لمناسك (العُمرة) في بيت الله الحرام، ولكن لابد أن الله لا يتقبل منك عبادة زائفة بسبب تعسفك لذاتك الدنيئة التي لا ترقى أبدًا لتقرب أو عبادة.

حُجبت الرؤية عن ناظريك، ولم تعد ترى مناسك الله في بيته بل حُرمت من رؤية (الكعبة) يا صفيحة القمامة، ولكن ليس هذا كل شيء فالانتقام الإلهي قد يتبلور على أيدي الشياطين الذين جهزوا لك نهاية تليق بحبك العميق لذاتك وانتمائك الحقيقي لنفسك وجرائمك التي لا تغتفر.

هكذا تزاحمت الأفكار نفاذة الرائحة في رأسه، واقتنع بأن حرمانه نابع من سخط الله عليه.. أيها الأحمق لا تظلم نفسك فالله بريء من حرمانك، ربما كائنات أخرى تريد تصفية حسابها معك، وهنا في الحرم الشريف في قلب العقيدة..

***

السبت ١٠ يناير ٢٠١٣

هناك في الركن القصي يرقد، بجلده السميك ومحتواه المشئوم

هو الأقدم بينهم والأكثر شعبية وشهرة، ولكنها شهرة مسمومة ومحمَّلة بالبُغض

إنه على أي حالٍ مميز وينتقي تميزه العميق بينهم بكرههم وابتعادهم عنه

هناك في أقصى اليسار من مكتبتي حيث شتى أنواع المعرفة التي أهتم بها، كان يرقد كتاب السحر سيىء السمعه (شمس المعارف الكبرى) للفقيه العابد ولا أعرف كيف له من فقه وعبادة وهو مؤلف هذا الشر المقيم أنه أحمد البوني.

أمسكت به وأطلقت العنان لذكرياتي معه حين أمسكته أول مرة قبل عشر سنوات وكان هدية من رجل من أعقد الشخصيات التي رأتْها في حياتي، أهداه لي وهو



على فراش الموت ينصحني به وقت الشدة واللزوم. لا أنكر أنني تورطت مرات عديدة في أشياء روحانية. فكنت استخدم شهرتي في التعرف على مختلف الناس ومشاربهم ومنهم علماء الروحانيات والسحرة السُفليين وعلماء الفلك والتنجيم الذين كانت لهم جاذبية كبيرة في قلبي، إذ أن هؤلاء الناس ينظرون لي على أنني (ابن كار) وزميل مشهور ولامع وهذا يفيدني كثيرًا في عملي كإعلامي ومؤلفاتي التي أحب أن يقرأها القارئ ويستمتع، قصص الرعب والسحر والشياطين لا تخلو أبدًا من لذة التعذيب التي يستشعرها القارئ وهو غارق في تفاصيل القصة ونتوءاتها الخادشة لإحساسه بالأمان، إنها لذة قد تعادل أو توازي اللذة الشبقية لأي شخصٍ مماثل، قارئ الرعب بطبيعته روحاني يستمتع بالتلامُس الشبقي بينه وبينه مخاوفه، وهم من أكثر القراء تذوقًا وحساسية ومتابعة، لأنهم لم يعودوا من هناك حيث التلال الأرجوانية والشمس الحمراء لعالمهم الخاص، تغافلوا عمدًا عن ملل الحياة اليومية وتفاصيلها البغيضة وسبحوا في البركة المحرمة طالبين بعض الرطوبة لجفافهم الخاص، كان لي رأيٌ طالما صرخت به في مقابلاتي وهو أن الرعب يوازي لذة الجنس بل ويغلب عليها لدى فئة المهتمين بذلك العالم الدخاني الواقع خلف الإدراك الحسي العادي.

نعود ل(شمس المعارف) وهو مصيبة مسلَّطة على أغلبهم وباب حظ وتفرد للبعض الآخر، ولا يشترط أن تكون ساحرًا أو ملبوسًا بالجن حتى تعرف أن الكتاب يؤثر فيك سلبًا أو إيجابًا، بمعنى أصح الكتاب هو من يختار قراءَة.. وهو ما يحدث مع (شمس المعارف)، لقد اختارني حين لفت نظري وأنا متواجد عند صديق، شعرت به يناديني بأنه أنا هنا أيها الأحمق، أنا من تبحث عنه، أنا الخلاصة أنا الخبرة، أنا التفعيل، أنا الثقافة الروحانية الأصلية لمن يريد إلى ذلك سبيلًا.

أهداه لي صديقي كأنه مُجبر وكأنني بلا اختيار، فقط انتقلت ملكيته من صديقي إليّ أنا وكأنه – الكتاب - ابن زنا ووليد سِفاح يختار من الآباء ما يحلو له وكنت أنا الأب الجديد لهذه النسخة منذ ما يقرب من اثنتي عشر عاما، لن أقول إنه الكتاب الأصلي

ولكن حتى النسخة المتوافرة في الأسواق لها خطورتها خصوصًا لو أكملت الناقص منه من كتابين آخرين وهما علم (الجفر) و(الزايرجة الهندسية) وعلم الأوفاق، ولكن شمس المعارف يكفي في أغلب الأحوال لو كنت على علم ببيوت القمر والمواقيت اليومية للكواكب من ساعة زحل لساعة المريخ لساعة العقرب وهكذا لو كنت على علم بتراجع الكوكب ورصد النجوم، ورقابة السطوع والأفول للنجوم في السماء.

فتحته سريعًا على باب التحضيرات لابد من حماية ما ، فأنا غير قادر على مواجهة لا أعرف مستواها وأنا عاري الصدر مفتوح القنوات، وكنت أحتفظ سرًا ببعض المسائل الروحانية التي تخص الحماية من أي هجوم روحاني ظالم على باحث مثلي ومعرض لشتى أنواع الفيروسات الشيطانية، إنها شياطين وعالم سفلي لا يعرف الرحمة، يكفنيي ما رأيت من هول في جلسات العلاج وعشرات الضحايا يتلوون كديدان تحت مجهر أسود العدسات يراقب ويتابع عمل خَدَمِه في بني البشر وهي مهمة تحلو له ويريد طوال الوقت أن يثبت كفاءته فها أمام رؤسائه.

كنت بصدد تحضير أنا الآخر وليكن ما يكون، فأنا بطبيعتي المتوجسة لا أرتاح للشيخ (حشمت) ولا أثق فيه تمام الثقة، وكنت أكتفي فقط بتواصل فقير من المودة والتلاحم الطبيعي بين الأصدقاء، شيء في صدري يرفضه.

كنت بصدد تحضير جن خطير له شعبية جارفة فالكل تقريبًا يعرف شكله وإن كانوا يجهلون اسمه، هو جن المجاذيب وأهل الله، هو زعيم الصوفيين المشردين والراقدين على أعتاب الأضرحة لأولياء الله الصالحين، وسأقول لك لماذا أنتم تعرفون شكله، لأنه يتمثل في كل مجذوب تائه من الممكن أن يصادفك في الشارع أو على أبواب المساجد، إنه حضرة الشيخ.. (علي أبو الشراميط) والاسم الأخير صحيح لا لَبس فيه ولا يمتّ للصفة الحقيرة التي يتعارف عليها الناس الآن.

وهو (جن) تقي ورع زاهد يلبس الأثمال، ويأتي لك قاصفًا غرورك وكبرياءك ويجبرك على تذكر الموت والفناء والمصير الأسود الذي ينتظر أرواح الخطاة والفاجرين



من الإنس والجن، ولكنه وعلى كل هذا اليأس والخوف الذي يرصده فيك يجعلك محصنًا ما دمت تواظب بشكل سليم على صلواتك وذكرك وبعض الرياضات الروحية التي يهمس لك بأن تفعلها في لحظات تجليه ورضاه.

كنت أشعر بخوف كبير، ولكن لابد مما ليس له بد.

وقمت بالتحضير

***



لنسترح قليلًا مع فاصل علمي ثقافي أسود

إن أهم ما يقوم به الساحر أثناء تادية الطقوس السحرية هو التفوه بكلمات لها رنين أو تردد.. أو إيقاع خاص يدعو به القدرة على استحضار الأرواح الشريرة أو الخيرة أو الشياطين أو الجان.. فهذ الكلمات تمثل الرنات المختلفة التي يحملها هاتفك المحمول أو هي أرقام خاصة كلما طلبت إحداها رد عليك من يملكها أو يختص بخدمتها وتختلف تلك الكلمات (التي تترجم أرقام الطاقة الموازية للكواكب والنجوم وأسماء الله الحسنى وبعض الآيات سواء من القرآن الكريم أو الإنجيل المقدس أو التوراة) باختلاف اللغة التي يستعملها الساحر، ولكن الملاحظ أن معظم الكلمات المستخدمة والتي تدعى (أسماء القوة) لها أصول عبرية مؤكدة.. مما يدل على تأثير الديانة اليهودية والتوراة بصفة خاصة.. ثم (الكابالا) هي سحر اليهود بعد ذلك على الطقوس السحرية في شتى أنحاء الأرض.

وتقوم فلسفة الكلمات السحرية أو أسماء القوة على أن استجلاب القوى الشريرة أو السحرية التي لا تأتي إلا بالاستدعاء بالاسم اللازم لها وأن لكل شيء في الكون اسمًا.. سواء كان شيطانًا أو ملاك.. ويقولون إن الكون مسكون بمجموعات من الملائكة والشياطين.. وأن كل ما يحدث من أحداث إنما هو نتيجة لإيحاءات من أحد النوعين.. إما خيرا من الملائكة (علويا) ويكون تردده عاليًا وذبذبته كبيرة أو شرًّا من الشياطين(سفليًّا) ويكن تردده منخفضًا وذبذبته منخفضة لزجة.. ويقولون إن الإنسان له وضع متوسط بينهما، وأن لكل إنسانٍ قرينًا من الملائكة وآخر من الشياطين.. فإذا عرف الساحر كيف يمكنه السيطرة على الناحيتين أصبح أقوى منهما.. وهو لذلك يستعمل أسماء تحمل أسماء الملائكة أو الشياطين ويضعها في جداول مربعة تحمل أحرف أو أرقامًا مكتوبة بالطول والعرض وبشكل محدد ومدروس تؤدي إلى الغرض المنشود عن طريق توافق ذبذبات تلك الأرقام مع أصحابها من العالم الآخر فمثلًا لو كان اسمك (علي) وكنت تسير في شارع مزدحم وسمعت من ينادي ب (يا

علي) فانت تلقائيًا ستنظر لمصدر النداء ولو أنت لست الشخص المطلوب وإن كان هناك (علي) آخر فإنك ستكمل طريقك، أما لو سمعت من ينادي بيا (علي) يا ابن (بشير) يا خادم (سمسيائيل) مثلًا وكنت أنت هذا الشخص فلابد من أنك ستجيب بالاقتراب منه حتى تعرف طلبه.

وتمثل له خصوصًا وأنه ناداك باسم جدك أو مليكك، كذا الطلاسم تنادي على (خدام) الأرقام والحروف التابعة لقادة العشيرة والتي تمثل الجنسية الحقيقية لهم؛ فلابد من الاستجابة حتى ولو من باب الفضول، وهنا تكمن الخطورة القصوى في التحضير، إذ لابد أن تعرف ماذا تريد الضبط، وتعرف أيضًا كيف ستصرفه عنك في سلام، وإلا الجنون والمرض والموت أحيانًا إن كان نوع الجان شريرًا مقيتًا مثل مثلا الجن المارد (ناصور) وهو من أخبث الطوائف وأعظمها شرًّا ويقال إنه مسبب الصرع والتقزم والتشوه والعنوسة والموت المصاحب لفضيحة ما، وهو لا يُصرَف بسهولة وإن انصرف لابد من استرضائه بطرق أقل ما يقال عنها أنها الكفر بعينه، فهي تودي بصاحبها إلى التهلكة، ومنهم أيضًا (النوائل) و(سكان الجثث) و(الزعارير) وغيرهم من الخبث والخبائث (المذكر منهم والمؤنث).

والساحر الذي يصل لكيفية عمل المربعات الصحيحة يمكن أن يفعل بها ما يشاء.. مثل الحصول على الحكمة والمعرفة أو الجلب (يأتيك بالشخص الذي تريده زاحفًا متذللًا) والمحبة (إجبار شخص ما على محبتك رغمًا عنه) أو اكتشاف الكنوز المخبأة في باطن الأرض بما فيها التحف الفنية والآثار (رصد الكنوز والخبايا) كما يمكنه أن يختفي عن الأنظار وسحر العيون وجلب الأشياء (السيميا).. أو يعيد الميت إلى الحياة ويستخدمه كما يشاء لمدة سبع سنوات كاملة (الزومبي) كما يمكنه أن يطير في الهواء ويتحرك من مكانٍ لآخر (أخل الخطوة السفليين).. كما يمكنه أن يشفي المرضى أو يغير شكله أو يعيد شبابه أو أن يسبب البغضاء أو الفوضى أو يثير المعارك أو يسبب الخسائر والدمار لمن يكرهه ..... إلخ إلخ ولكن أقوى الأنواع هو الذي يُربط على مسارات النجوم والكواكب خصوصًا كواكب زُحل وأورانوس وبلوتو

ولا يُفعل بطريقة صحيحة إلا وسبَّب كوارث كبرى كالثورات مثلًا وسقوط أعداد كبيرة من الضحايا والنهب العام وانتشار الأوبئة والمجاعات وهو لا يتأتى إلا من ساحر قد أعلن كُفره النهائي بالله وأنه إلى جانب الشيطان بلا أي تراجع، كما لابد أن يمر على عمره خمسون خريفًا على أقل تقدير لذا كان الكاهن في أي ديانة يعلو قدره جدًا كلما اقترب من أراذل العمر إذ أنه وبلا ريب أصبح ملجأ الشياطين للأبد وإن جسده موبوء للأبد، ويعتبر سفيرًا لهم ومن يرثه من بعد موته وفنائه.

إنها أهداف متعددة للساحر يريد بها القدرة في التأثير على البشر.. لذلك كان الهدف الدائم لكل من مارس السحر أن يحصل لنفسه على أسماء القوة التي تمكّنه من ذلك.. ووضعها في الأشكال الهندسية الملائمة للغرض فلو استخدمت الدائرة مثلًا فيكون السحر دوريًا يتجدد بالتفعيل كل دورة قمرية أو شمسية ولو كان الشكل مربعًا فإن السحر يكون محكمًا بالجدران ولو كان مثلثًا يكون محكومًا بالزوايا الحادة للكواكب.. وهكذا، لابد أيضًا من كتابتها على أوراق خاصة بأحبار خاصة بعضها مصنوع من مواد شاذة مثل.. دماء الحمام.. أو القطط مثلًا أو دماء الطمث الشهرية، أو تختلط سوائل الجماع بين الزاني والزانية.. ثم يستخدم تلك الأحجبة للغرض الذي يريده أو يضعه بشكل ما في مكان ما.. حتى يؤدي الغرض المنشود وهو ما يسميه البعض ب.. (العمل) السفلي.

فلسفة وتفعيل أسماء القوة..

هناك أسماء يمكن تتبع أصولها مثل أسماء بعض الآلهة الوثنية، وهناك كلمات أخرى مصدرها الكتب السماوية وخاصة التوراة.. فقد تحتوي على مسميات قديمة للآلهة الكنعانية مثل الإله بُعل أو الشاموس أو الألهة الأشورية والبابلية مثل (ازموديوس) و(شماس).. وهكذا

ولكن الكلمات الأكثر استعمالًا أساسها عبراني ووردت في التوراة بالعبرية أو الكلدانية القديمة ثم حُرفت وفقًا للغة الأم التي يستعملها الساحر.

وفي الديانة اليهودية يعتبر (اسم الله الأعظم) هو أقوى الأسماء كلها ويوجد في



التوراة أو العهد القديم في الإنجيل ذِكر لاسم الله على عدة أشكال مثل.. (ألووهايم).. و(آل شاداي).. و(أدوناي).. و(ياه).. و(آل) ..

ولكن الاسم الأصلي الذي يعتبره اليهود الاسم الحقيقي والذي يحرم عليهم النطق به إلا عند الضرورة القصوى، وأحيانًا يُمنع نُطقه تمامًا عند بعض الفئات المتزمتة منهم.. هذا الاسم هو (يَهوَه) ونطقه (ياهُوَوَاه) وينطق بالعبرية وبطريقة خاصة وببطء (يود هي فوهاي) بالتقريب لأقرب نطق يهودي.

ولكن الجميع ينطقونه في كل بقاع الأرض مختصرًا إلى (يهوه) فقط ومعنى اسم الله في اليهودية (الذي هو موجود) وقد أكّد بعض الباحثين العرب أن هذا لا يمتّ لاسم الله بصلة ولكنه يمثل لقبًا سريًا للشيطان نفسه وهي معلومة غير مؤكدة.

ولما كان هذا الاسم مكونًا من أربعة أحرف عبرية فقد أصبح يُعرَف باسم (التراجراماتون وباللاتينية.. tetragrammaton)

ومعناها.. الاسم ذو الأربعة أحرف ويُحذَرْ على اليهود نُطقه بشكله السليم كما قلنا إلا عند الضرورة القصوى وبصوت خافت لا يكاد يسمع.. وحتى أثناء الصلوات والطقوس الدينية في قدس الأقداس عند اليهود يتجنبون ذكره ويستعيضون عنه بأسماء أخرى مثل (شراهيا.. أدوناي.. آل.. شداي)

ويقولو السحرة إن اسم (الله) في العبرانية لا يعرف نطقه إلا القليلون، وأن من يعرف نطقه يصبح قادرًا على عمل معجزات ضخمة ترقى للتأثير على ملايين البشر، وأنا أميل لتصديق هذا الكلام إذ كيف لدولة صغيرة مثل (إسرائيل) أن تهيمن على منطقة كاملة كالشرق الاوسط بهذه الطريقة الظالمة، وانا أعرف أن هناك صلوات من حاخامات تعدي عمرهم المائة وتسمي صلاة (سهم النار) والتي بها هم قادرون على التخلص من أي شخص يقف أمامهم حتى ولو كان رئيسًا أو ملكًا.. وقد قالت الصحف الإسرائيلية في سبق فضائحي أن هؤلاء الكهنة صلوا صلاة (سهم النار) ضد رئيس وزرائهم (إسحق رابين) عندما قرر إحلال سلام هم لم يرضوا عنه تمامًا وكان (إسحق رابين) بمثابة معارض قوي للتطرف اليهودي وقتها (١٩٩٥) واستخدموا

فيها جسد شاب متطرف اسمه (إيجال عامير) لم يتعدَّ الواحد والعشرين عامًا، وأنه وتحت هذا الطقس الأسود اغتال رئيس ورزاء بلده إسرائيل لنفس الأسباب سالفة الذكر>

ومع مرور الوقت تفنن السحرة في استخراج أسماء أخرى بدعوي أنها أسماء للملائكة أو الجان أو الشياطين بعضها يدعي أنها مصرية قديمة مثل.. باكس.. ساكس.. وساراكس.. وبعضها لاتيني مثل

ارجيديم.. مارجيديم.. ستور جيديم.. وبعضها عبري مثل

هليم.. أجيوس.. هيلاي.. ساداي.. وبعضها عربي مثل

إسرافيم.. شمهورش.. حزقيائيل.. وهي فيها يبدو أيضًا من أصل عبري وبعضها مخترع من خيال الساحر ليس لها أصول يمكن الرجوع اليها وتعتبر أسماء(تدليل) لشياطينه الخاصين.. ولا يكتفي الساحر باسم الملاك أو الشيطان أو اسم القوة في شكله الرباعي كما قلنا.. ولكنه يحوله إلى أرقام.. ثم تؤخذ تلك الأرقام وتوضع في مربعات أو مثلثات بترتيب متناقص ويكتب حولها أسماء أو كلمات معينة ثم يعمل منها الحجاب اللازم.

ولقد امتد الشر ببعض السحرة وأصبحوا يستعملون الآيات القرآنية وأسماء الله الحسنى (كما في شمس المعارف والجفر العلوي وكتب أخرى) بنفس الطريقة وأصبح لكلٍّ من الأسماء والآيات وظائف خاصة قليلها مفيد.. وأكثرها ضار ومعظمها وارد من مفاهيم (الباطنيين) الشيعة الذين يعملون بباطن القرآن وليس بظاهره (مقال للمؤلف) ومن الممكن مراجعة هذا الكلام بالبحث الدقيق في علوم السحر والعلوم الظنية خصوصًا في الميثولوجيا الحضارية وعلم مقارنة الأديان الذين يؤكدون في أبحاثهم أن الشيطان والجن هم أقدم بكثير من الرب المعبود (أستغفر الله العظيم) وأن الرقيات كلها واستخدامها لا يكون إلا لأمر لا يجوز قانونًا أو إنسانيًا لأنه يلغي الإرادة البشرية نفسها ويجعلها خادمة للشيطان فقط.





عدنا مع تفاصيل قصتنا

الشيخ علي أبو الشراميط

الزاهد العابد الباكي النائح على بلواه وكثرة معاصيه، النادم الدامع الذاهل عن الوجود، إنه حضرة سيدنا الشيخ علي أبو الشراميط، والكلمة الأخيرة صحيحة ولا مجال للتشابه بينها وبين اللفظ الشهيروالذي ننعت به كل شيء يثير احتقارنا.

فكلمة (شرموطة) تعني شريطًا أو قصاصة من القماش، وبما أن الشيخ علي (مشرمط) الثياب كثير الأثمال سُمي بهذا الاسم لكثرة هلاهيله وشراميطه، ولفترة ليست بالبعيدة، كان المصريون يستخدمون الكلمة في وصف الخرقة التي يمسحون بها البلاط وتنظف بها الأواني.

نعود للشيخ (علي)

هو خادم سورة (الجن) بحسب آراء أحمد البوني في كتاباته، وأحد الأعمدة الروحانية بها، يُحضر بعد تلاوة سورة الجن عددًا من المرات - لن أذكره - ولكنه عدد يتعدى المائة، مع وجود بخور من جاوة ومستكة حمراء وتراب المقابر من أنواع معينة لن أذكرها أيضًا (حفاظا على أي مجاذفة قد يرتكبها القارئ الأحمق ويضر بنفسه وبعقليته لأمدٍ طويلٍ أو للأبد)، وبخلي في عدم ذكرها ليس نابعًا من الهوى الشخصي، ولكن بالفعل الموضوع صعب ولن يتحمله الهواه من راغبي التميُّز أو الهروب من واقع يكرهونه، وقد فسر بعض علماء أعمدة الروحانيات بأن الشيخ (علي) هو الجن المسئول عن عملية الانجذاب للمساجد وآل البيت وأصحاب الأضرحة والكرامات ولبس الأسمال والذي نعرفه فيما بيننا ب(المجذوب)، وهو الشخص الذي يهيم على وجهه وينام أمام أبواب مساجد بعينها ولا يتحدث إلا بالابتهال والتضرع للخالق أو التقرب العميق لآل البيت أصحاب الأضرحة المباركة والتي يعمر بها بعض المساجد

أمثال السيدة نفسية رضي الله عنها وأبو السعود وعلي زين العابدين والحسين وأبو الحجاج بالأقصر وسيدي القناوي بقنا وإبراهيم الدسوقي بكفر الشيخ والسيد البدوي بالغربية ورضي الله عنهم أجمعين، ويتلاحم في مجالهم أهل الصوفية مع الزاهدين، بل ويذهب أهل الروحانيات بخيالهم إلى أن ذلك الجن العابد يلازم هؤلاء المجذوبين ويتعرض بالأذى الشنيع لكل من يجول بخاطره أن يؤذي هؤلاء المجذوبين باعتبارهم من أتباعه المخلصين، لذا تجد في كل الثقافات القديمة والمعاصرة أن الناس العاديين يتعاملون برفقٍ وقلقٍ مع المجاذيب خشية إثارة حنق أو غضب (أبو الشراميط) عليهم ولبسهم بكل الأذى المملوك لجن شديد وعاتٍ مثله، إذًا فالشيخ (علي) قد يكون هو المسئول الأول عن توريد المجاذيب للحياة البشرية وأن تحضيره لن يكون إلا مغامرة قد تعصف بالعقل والاتزان الاجتماعي تمامًا، ولكن قد أوعز لي صديق روحاني ضليع بأن التحضير هنا لابد أن يكون من الاتزان بحيث تطلب فقط دون المساس بكيان الجن الشيخ (علي)، فقط عليك أن تدرك بأنك مجرد صاحب حاجة، وأنك بالفعل بعيد عن أي رغبة في الحصول على كل ذلك الانجذاب المغنط والتلقائي الذي يصدر من حضوره، أي أنك تطلب طلبًا واحدًا، وفي المقابل تنفذ رغبة في أغلب الأحيان تكون بسيطة للجن الشيخ، منها أن تضع مبلغًا معينًا من المال في صندوق النذور لأحد المساجد الكبرى والتي تحتوي على ضريح لآل البيت أو أصحاب الكرامات وهم كثيرون جدًا وفوق ما تتصور، أو تقوم بتفريق النذر المكون من الخبز والفول أو الخبز المحشو أرزٌ ومطعومٌ بقطعة لحم على المجاذيب أمام تلك المساجد.

وهو ما يسمى (بالندر أو النذر) أمام أي مقام معين يطلبه الجن الشيخ وفي الغالب يكون السيدة نفيسة رضي الله عنها أو السيدة زينب أو مولانا الحسين، وقد يطلب منك نذرًا لإحدى الكنائس وخصوصًا (ماري جرجس) أو الكنائس التي يتجلى بها تجسدٌ مضيءٌ (نيجة الشحنات الإيجابية المهولة والمقرونة بالتضرع والدعاء) للسيدة (مريم العذراء) عليها السلام في حال كونك مسيحيًا أو يغشاك جنٌ مسيحي ظالم (كما في حالة الجن زنجيلو حامل السبحة ذات الصليب المقلوب)، وهو ما أود أن

أفعله لحمايتي من كل هذا الهوس الشيطاني الذي يلاحقني أنا، وبسبب فزعًا مكبوسًا بالانضغاط داخل نفسي وروحي.

التفاصيل تقول إنه لابد من غلق باب الحمّام(باب النجس) بل وسد المرحاض بغطاء ثقيل ثم الدخول إلى غرفتك الخاصة وإشعال ثلاث شمعات حمراء، مع رسم مربع مقسم لتسع خانات بكل خانة رقم ومجموع كل صف وكل تقاطع لابد من أن يكون العدد «١٥»

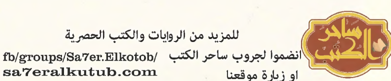
نعم أتذكر تلك المعضلة الرياضية الروحانية فقد تعلمتها من كتاب شمس المعارف الكبري في دهاليز التعاويذ والطلاسم الهندسية.

وسرها يكمن في الرقم ستة الذي ينتج بعد حاصل الجمع الرقمي للمربعات ورقم (٦) هذا له قوة الروحانيات السفلي بالذات لذلك كان رقم الشيطان هو تكرار مثلث لرقم سته(٦٦٦) وأنه يرمز للجمال المبهر والسرور العظيم الملازم للملذات الشيطانية والحظ.

والهدف من كتاباته هنا هو استحضار من يقدر على تلك القوى الظلامية السداسية، وهل يقدر على الغلبة سوى زاهد عابد لا يريد من متاع الدنيا شربة ماء، لذلك كان اختيار الشيخ (علي) ليقوم بتلك المهمة المعقدة للتحصين والحماية من شر الأذى الشيطاني.

إذًا مممم . هو ٢ ثم ٧ ثم ٦ ثم مممم ٩ و٥ و١ ثم ٨و٣و٤ .

نعم هكذا صحيح، تأملت المربع المرسوم بالطباشير على أرضية غرفة نومي الخشبية، واجتاحتني رهبة باردة، ثم رسمت دائرة واسعة تشمل المربعات لزوم الجلوس على قمتها، وتلوت سورة (الجن) وأنا أمامي طبقان واحد منهما به عدد مضبوط من (الخرز أو الحصي) والطبق الثاني فارغ، عندما أنتهي من تلاوة واحدة ومع جملة (صدق الله العظيم) آخذ من المملوء لأضعه في الفارغ، حتى يمتلئ الفارغ ويفرغ المملوء، لزوم عدم التخبط في العد والإحصاء لمرات التلاوة، الإرهاق يعتريني بشدة ومع تقدمي في عدد مرات التلاوة شعرت بتموج في نفسي وتميع يعتري أحشائي،



البخور مازال ينفث عبقه لتملأ الغرفة بسحابة رمادية معطرة بالزيوت الطيارة للجاوة والمستكة الحمراء، وظهري يكاد أن ينقسم من طول الجلوس مستقيمًا أثناء التلاوة ومع أواخر حبات الخرز اجتاحني تثاوب عميق ورغبة شديدة في الاستلقاء والنوم حيث أجلس ساهمًا، وبالفعل ذهبت في غفوة عميقة إلى أن استفقت جزئيًا ووجدت نفسي نائمًا على وجهي وآثار الطبشور مطبوعة عليه ونظرت للأطباق، مازال بعض الخرز لم ينتقل من الطبق الأول للثاني ثلاث أو أربع حبات، هاااااوم أريد أن أناااام، وقمت من فوري إلى سريري تمطعت وارتميت عليه محتضنًا وسادتي الطويلة كعادتي وكلّي رغبة في نوم طويل طويل آ خخخخخخخخ، ززز، لا أعرف كم مضى من الوقت قضيته في نومي الجبري، إلى أن... إلى أن... إلى أن تناهى لسمعي صوت حركة خافتة بعيدة، ثمة طاقة حركية في البيت، خطوات ثقيلة، مممم لا بل هو تواجد أو حضور لا إرادي أين هو إلى أن اخترق طبلة أذني صوت قريب لا يبعد أكثر من بضعة أمتار سسسس... صوت ضحك؟؟ لا لا بل هو صوت بكاء؟ بالتأكيد بكاء.. نعم نعم هو بكاء حزيييين.

بل نحيب ونشيج عميق يصف الحزن والندم في آخر مطافه ونهاية مآسيه..

انتبهت وتوترت عضلاتي المسترخية من غفوتي السابقة ونظرت إلى مكان الشموع والأطباق.. يا إلهي يوجد طبق فارغ تمامًا، والآخر مملوء مع أنني متأكد أنني لم أكمل العدد المطلوب في التلاوة لقد نمت قبل إكمال العدد.. أنا.. أنا.. أنا متأكد..

قفزت من سريري واقفًا على الأرض وجسدي يهتز برعدة متواصلة، وصوت البكاء يتعالى كقطارآتٍ من بعيد، ولكنه بالتأكيد يقترب يقترب إلى حيث أنا، لابد أنه سهرسني حتمًا لا محالة.

ثم...

تلقيت صفعة قاسية جدًا جعلتني أنكفئ على.. وجهي

***



أيام العمرة تتساقط كأوراق الخريف وصاحبنا يمارس التمثيل المتقن لكل الطقوس، وأصبح يعد الأيام بسرعه ليتخلص من ذلك العبء المشمول بعقاب وحرمان قاسٍ لمعنى الطقوس نفسها بل إن نفسه المتدنية تتوق لزجاجة بيرة ولفافة تبغ محشوة وجسد لحيم يلبس البيبي دول، الآن هو يمشي في أسواق المدينة المنورة العامرة ، تجول بلا هدف ينتقي بعض الهدايا من أجود الأنواع وأغلاها، إلى أن وقف أمام محل للمجوهرات والمصوغات، السوق السعودي من أكبر الأسواق في تجارة الحُلي الذهبية والسلطات هناك تخدم المعتمر وتصر أن يرجع لبلده محملًا بالهدايا وبلا أي نقود ويكفيه فرحة العمرة واللقب وهدايا المكان المقدس، لم ينس أن يلتقط لنفسه صورًا ادخرها فيما بعد لمواقع التواصل حتى تكتمل أركان العمرة بالطريقة العصرية الكريهة، والتي تجعل الإنسان يصور نفسه حتى في اللحظات التي يظهر فيها خاشعًا أو داعيًا، لفت نظره سوارٌ ذهبيٌ مطعومٌ بالأحجار الكريمة، تصور نفسه وهو يعرضه على زوجته (رانيا)، لابد أنه سيطير حيزًا من عقلها لروعته وبريقه وارتفاع ثمنه، اعتزم الشراء، دخل للمحل ليجد صاحبه ساجدًا يصلي بينما تنتظراه سيدتان متشحتان بالسواد الكاسي لكل تفاصيلهما فلا يظهر منهما إلا بريق عيون محلاة بالرموش المكحولة، تظاهر بتأمل البضائع النفيسة، شيءٌ ما في تلكما المرأتين يجتذبه وخصوصًا عندما نظرتا له من تحت النقاب الأسود، نظرة طويلة نسبيًا، تحركت مشاعر ما داخله وتوارد لديه خواطر حول الجمال العربي ومدى عمق الإثارة الكامنه في العطور الشرقية التي تتمخض بها نسائهم، نسي – الغبي - إنه معتمر لبيت الله الحرام، أطال النظر لهما وبان عليه الشبق والتصلب، انتهى صاحب الحانوت من صلواته وتعامل مع المرأتين بحزم، في حين تولي صبي أسيوي أتى بعد دقائق من الخارج، تولى التعامل مع (محسن)، تعجل محسن في الشراء ولم يفعل كما يفعل المصريون في فنون الفصال بل اشتري سريعًا ويمم وجهه تجاه الخارج حيث سبقته المرأتان المتشحتان بالسواد الخليجي الدسم، جعل يدور في دوائر السوق بحثًا عنهما

بلا جدوى، لقد تبخرتا، اللعنة عليك يا محسن، يالك من وغد لعين، أنسيت أنك في العمرة وأنك في البلد المقدس، هكذا كان يحدّث نفسه، إلى أن ظهرتا المرأتان أمامه مباشرة في أحد الأزقة، تصلب في مكانه وسال من شدقيه لعابٌ تستحي منه الكلاب، فأشارت له إحداهما بأن أتبعنا. كانت الإشارة بالتركيز في النظرات لعين محسن، ثم أومات برأسها تجاه الغرب، أتبعني أيها الفحل لأريك ما تفعله بنات العرب بالفحول أمثالك. كانت الرسالة نفسية مؤثرة في شعيرات جسده العائد من الشلل والمتعطش لحياة قديمة قوامها اللذة العارمة والمغامرة الشيقة، إنه يشعر بالخدر المتوتر إذ أنه لا يعرف ما الذي هو مقبل عليه، ولكنها الشهوة اللعينة والتي تزامنت مع إحساسه بأنه لن يفلح أبدًا في أداء المناسك.. إذًا ليغفر الله لاحقًا، أما الآن فأنا ابن اللحظة. تبعهما كما يتبع الكلب سيده إلى حيث... مثواه الأخير.

***

انهالت الصفعة على قفاي مؤلمة لأنكفئ على وجهي لاثمًا أرض حجرتي الخشبية وقبل أن أستفيق جزئيًا من الصدمة انتاب قلبي دبيب حاد موجع لقفصي الصدري، لابد أن قلبي موشك على الانفجار وأنا أسمع كل هذا النجيب والآهات الملتهبة بالندم والتذلل..

آه آه آه

هكذا اسمع صوت من يتأوّه في ندم وليس في ألم

ثمة مخلوق يصرخ بالآه المصاحبة للحزن العميق فيما خلفي أنا

ارتعش جلدي وتوقف الزمن يرمق الحاصل في شخصي الضعيف، عرق بارد يغزو مسامي وينضح من منابت شعري وأعلى جبهتي، عرق بارد أفضل نزيف الدم عليه لأنه يورثني تفسخًا وشعورًا رهيب بالضياع.

ثم شممت عطرًا زيتيًا فواحًا لونه أخضر مزركش، ذكرني برائحة الأضرحة التي تخص أولياء الله الصالحين.

أدركت أن التحضير أتلا بالفاعلية بالرغم من عدم اكتمال العدد المطلوب، وقبل أن أعتدل من كبوتي الملتصقة بالأرض، تلقيت صفعة أخرى أجبرتي على العودة لوضعي المنكفئ..

تذوق لساني طعم دمي المخضب من ارتطام أسناني بسقف حلقي

ثم سمعت شيئًا أعرفه جيدًا..

سمعت من يترنم ب (الجلجليوتية الكبرى)

وهي عزيمة مشهورة لتقوية الروحانيات أعرفها منذ أن عرفت كتاب شمس المعارف ذاته

بدأت باسم الله روحي به اهتدت إلى كشف أسرار بباطنه انطوت

وصليت بالثاني على خير خلقه... محمد من زاح الضلالة والغلت

إلهي لقد أقسمت باسمك داعيًا..... بآج وماهوج جلت فتجلجلت

سألتك بالاسم المعظم قدره.... ويسر أموري يا إلهي بصلمهت

ويا حي يا قيوم ادعوك راجيًا...... بآج أيوج جلجليُوت هلهلت

بصمصام طمطام ويا خير بازخٍ بمحراث مهراش..به النار أخمدت

بآجٍ أهوجٍ يا إلهي مهوجٍ...... ويا جلجلوتٍ بالإجابةِ هلهلت

بدأ جسدي في التخلي عن إرادتي الخاصة بل وتخلى عن الخوف نفسه واستقبل الجدية في التعامل مع موقف دقيق أعرف جيدًا أن فيه هلاكي لو أغفلت لثانية واحدة عن هدفي الأساسي.

ووجدتني أعتدل في جلستي وإن بقي المترنم خلفي لا أراه، فقط أشم رائحته الخضراء المزركشة وبدأت أحرك رأسي يمينًا ويسارًا كما نفعل في حلقات الذكرولكن ببطء وترو حتى لا أفقد تركيزي في مطلبي بالحماية.

أفضِ لي من الأنوار فيضة مشرق عليّ وأحيي ميت قلبي بطيطغت

ألا وألبسنِي هيبة وجلالة ....وكفَّ يدَ الأعداء عني بعلمهت

ألا واحجبني من عدووحاسد... بحق شماخٍ اشمخٍ سلمت سمت

بنور جلالٍ باذخٍ وشرنطخ... بقدوسٍ بركوتٍ به الظلمة انجلت

ألا واقضِ يا رباه بالنور حاجتي بنور أشمخ جليًا سريعًا قد انقضت

بباهٍ وبايوه نموهٍ أصاليًا......وبا عاليًا يسّر أموري بصيصلت

وامنحني يا ذا الجلال كرامة...... بأسرارعلم يا حليم بك انجلت

الصوت يزداد في العلووالتأكيد على أنني الآن أسبح في سديم روحاني بزورق ضيق يقوده الشيخ (علي) خادم سورة الجن الشريفة

ماذا كان عليّ أن أفعل بعدها

يا إلهي الرحيم

لقد نسيت تمامًا ماذا عليّ أن افعل

وأعرف يقينا القاعدة الروحانية الصارمة

(اللي يحضّر العفريت لازم يعرف يصرفه)

حاولوا معي أيها الكسالى الذين تقرأون سطوري تحت الأغطية الدافئة

أنا في مأزق مرعب يا معدومي المشاعر

***

تنمّر (محسن) ماشيًا بخفة الفهود خلف المرأتين بدثارهما الأسود الفخيم وقوامهما المغري الضارب للنحافة الموسومة بالغنى والأنوثة، لابد أنك ستقضي ليلة من ألف ليلة وليلة يا (غندور)، تابعهما ببصره لمسافة آمنة إلى أن وجدهما تركبان سيارة رباعية الدفع ويجلس أمام عجلة القيادة سائقٌ زنجيٌّ ضئيلُ الجسد،، ركبتا هما في الخلف بينما اقتربت السيارة من محسن ليركب إلى جانب السائق الصموت والذي لاحظه (محسن) أنه يحمل سحنة عجيبة، إنه فعلًا عجيب الشكل إذ إنه يتقارب إلى حد مع شكل النسناس فلونه أسود غامق لامع وأنفه دقيق ممتد للأمام قليلًا مع فمه بينما عيناه ضيقتان لامعتا البياض، وجسده لا يتعدى جسد مراهق هزيل بشعر متصل بذقنه كالنافورة مما زاد من ضآلة وجهه، كما قدر(محسن) من



فخامة السيارة أنهما أميرتان أو من العائلات الكبرى في المملكة، أوربما أميرتان من دول الخليج المجاورة، وانطلقت السيارة بسرعة كبيرة نسبيًّا.. إلى حيث لا يعرف.

***

اندفعت السيارة الرباعية الفخمة عبر جنوب (المدينة المنورة) وكأنها تنهب الطريق نهب الضباع لجثة الغزال الحي، واستمر الوضع قرابة الساعتين حتى تململ محسن في جلسته واعتراه توتر خفي في كل هذا الصمت، إذ لم يتكلم أيٌّ ممن كانوا في السيارة بتاتا، وهذه المسافة التي تقترب من الثلاثمائة كيلو مترًا وحاول أن يتواصل مع السيدتين الجالستين في الخلف بكل الطرق، ولكن أشارت إحداهما بأن يلتزم الصمت تمامًا وينظر للأمام، فصمت محسن مجبرًا ومتحيرًا من أمر تلكما المرأتين وهذا السائق العجيب، السماء تتلون بلون الغروب وأمسى الوقت مغربًا وقد طويت أكثر من ثلاث ساعات ولاحت اللافتات على الطريق بأنه على وشك الدخول لمنطقة (الطائف) الرائعة وأحد أجمل منتجعات المملكة العربية السعودية، وأجملها منظرًا وطقسًا على الإطلاق، ومع دخول الليل عرجت السيارة طريقًا جبليًّا هابطًا وبات الطريقُ معبدًا لا مُمهدًا كالطريق العام، وبدأت السيارة في الارتجاج بين الفينة والأخرى، وإن كان الوضع مازال مطمئنًا إلا أن (محسن) شدّ حزام الأمان خشية أن يرتكب السائق الضئيل أي خطأ يودي بالسيارة في هذا الجب الواقع في جانب الطريق الأيمن، قبل أن تشتعل أضواء السيارة الداخلية فجأة وتزيل إحداهما الغطاء عن وجهها وتمس كتف محسن بأن ينظر لها، ثمة رعدة اجتاحت جسد محسن الذي تخدر من طول جلوسه بالسيارة وشيءٌ ما جعله لا ينظر مباشرة إثر مس كف المرأة لكتفيه وتلاعبت به الأفكار قبل أن يلوي عنقه ناظرًا للوجه المكشوف.. ليصعق تمامًا من هول ما وقعت عليه عيناه ويطلق زفرة حارة بعد شهقة ذعر.. شرخت صدره..

***

٢٨ سبتمبر ٢٠١٢

أولجت مفتاحي في ثقب بابي الذي هجرته منذ أربعين يومًا، وبمجرد دخولي شرعت في إزالة ملابسي التي التصقت تقريبًا بجلدي وأصبحت جزءًا لا يتجزأ منه ثم دلفت بسرعة لحمَّامي كي أبدأ في عملية نظافة قد تستغرق ساعات لإزالة الأوساخ والحشرات والعفن العام المغلف لجسدي، وشرعت في فرك الصابون على شعري وجسدي متحسسًا صلابة عامة اكتسى بها لحمي بعد ترهُّل سابق، وبأنني بتُّ أكثر نحولًا وقوة عن ذي قبل، بل واكتشفت تلك الزائدة الجلدية (الحلمة) التي نبتت تحت إبطي الأيسر وتكورت حول نفسها وباتت أشبه ما يكون بحلمة للرضاعة، أو كبرعم سرطاني فاضح، وسرحت فيما فعلت بنفسي ولكنني تذكرت قدرتي اللانهائية على الانتقام؛ فشاع في نفسي سرورٌ قاتمٌ لمن يتأهب للطعام اللذيذ بعد طول جوع، بحق الشيطان سأفعل الأهوال في كل من خانني وباعني بأبخس الأثمان، لسوف أنقض على زوجتي الخائنة أذيقها مرارة الدفن وطعم التشريح، وسأجعل من صديقي عبرة الأزمان بلا منازع، ولسوف أقتل وأحرق وأدمر بلا رحمة كل من سوّلت له نفسه القذرة أن يهزأ بي و..و... إلى أن سمعت طرقًا غليظًا على باب شقتي الكائنة فوق السطوح وثمة لغط عام وأصوات توحي بتجمهر البعض خلف الباب بل إني سمعت صوت (سيد) صاحب المنزل يقول:

- أيوة ياباشا هو ساكن هنا ولسه طالع قدامي من شوية.

(باشا)..؟؟ ساكن هنا ؟؟

رنت الكلمات في سمعي المرهف لتخبرني بمن يقف متحفزًا أمام باب شقتي

لابد أن الطارق هو أحد الضباط الذين يبحثون عني، ارتعدت مفاصلي رغمًا عني ونسيت لبُرهة أنني الآن كافرٌ قديرٌ وفي خدمتي قبيلة شياطين ولكن ماذا عليّ أن أفعل في مثل هذا الموقف وأنا في الحمَّام مبتلًّا و..وعاريًا..؟

***



عبر مرآة غرفة نومي رأيته، نعم رأيته كما ترى أنت شبحك الخاص في آخر الممر.

وتصلبت عيناي على تفاصيله المضاءة ذاتيًّا، وبين حركة رأسي المترنحة بالذكر جمعت تفاصيله، لاريب أنه أنت يا حضرة الشيخ (علي)..

أسمرٌ كان شديد الدكونة يكاد يشع لونًا أورجوانيًّا من فرط دسامة سواده، بذقن متدلٍ لما تحت صدره تتلون باللون الرمادي المخضب بأحمر الحناء، عميق بياض العينين كأنهما كشافان مسلطان على أرفف وعيك، مرتعش الشفاء مهتز الرأس بجسد عظيم العرض والطول ومكسو بأثمال أقرب لقطع القماش المستخدمة في مطبخ منزلك، بألوان بالية واهتراء مزمن، يجلس بجانب باب غرفتي مهتزًا ومغطيًا صدره بعشرات أوربما مئات المسابح والأعقاد، ويعتمر عمامة خضراء عالية كشراع المركب زاهية ومتنافرة تمامًا مع ملابسه البالية المشرمطة يفوح منه مزيج عجيب من روائح العطارة والزيوت مع لمحة عطن أشبه ما تكون بتدكس الثياب في الماء لمدة طويلة أوككومة ملابس متسخة نُسيت لفترة طويلة داخل الخزانة، كفاه بيضاوان على عكس لون بشرته العام أوربما ينبعث منهما ضوءٌ لا أعرف تحديدًا، ولكن مع حركة كفيه كانت تظلل أو تضيء حركته بضوء أبيض شاحب.

انتبه جيدًا واحذر الجدل فأنت الآن في حضرة سيد المنبوذين ومنبع المجاذيب التائهين في ملكوت الاستغفاروالخوف الشديد من عذاب النار.

أنت في حضرة خادم سورة الجن حضرة الشيخ المهلهل الثياب العظيم الخشوع في عالم الجن في حضرة الشيخ (علي أبو الشراميط) شخصيًّا.. ولك عظيم الشرف.. إن كنت شريفًا.

***

انبعج بطني كاشفًا تفلطحًا كبيرًا كما لو كان الجنين في حجم ولد على أعتاب المراهقة بينما زوجي «معتز» مستمر في العبث والتربيت عليها (على بطني)، تدافع الزمن لدقيقة كاملة حسبتها سنة ضوئية قبل أن يتوقف كل شيء فجأة، وكأن يدًا كبست زر إيقاف الأحداث، استجمعت يأسي بصعوبة وقررت أن أصرخ.. أن أصرخ ..

أن أصرخ.. أصرخ من الرعب، أصرخ من الحيرة، أصرخ من الهلع، أصرخ من الرفض.. ولكن كل صرخاتي أخذت مسارًا معاكسًا وتمثلت في انفجار داخلي مكتوم، أشبه بالانهيار العصبي قبل أن يتحول كل هذا لشلال عنيف اندفع من بين ساقي أشبه بحُمم بركانية شديدة اللزوجة تتمازج باللونين الأحمر والأسود مع تصاعد فيما يشبه البخار أو الدخان ممن كل هذه اللزوجة المتدفقة الحارة ؟ مني أنا؟

انطرحت على ظهري أتلوى من الألم العاتي..

أتكون هذه ساعة المخاض؟ بعد أربعة شهور فقط؟ كل هذا و «معتز» يرقب الموقف بسكون وانفعال من يشاهد مباراة ساحقة.

مددت يدي استنجد به فاقترب مني، وأنا مسجاة على الأرض أنشحط في حممي الخبيثة اقترب مني ومشاعر الحنو والعطف بادية عليه كما لو كان أمي.

ثم مد يديه ليمسك بساقي اليسرى وربت علبها مهدئًا إياي، ثم.. ثم.. ثم شرع في إبعادها عن ساقي اليمنى بكل برود.. .

بذهول أرقب ما يفعل بي – هذا الكافر اللعين- إنه يقوم بدور القابلة (الداية) الآن..

ثم.. ثم ركع ما بين ساقي وثناهما لأعلى قبل أن يزيد في التباعد بينهما ومد يده ليعبث في نقطة التقائهما..

آه هـ هـ هـ هـ إنه يشد شيئًا من.. من.. لا لا أشعر بأنه يذبحني.. لا لا يا معتز لا.. شيء بدا لي أكبر حجمًا من صخرة تحتل رحمي .... عاااااااااااا، لااااااا ،سسسسسسس أرجوك ارحمني يا معتز.

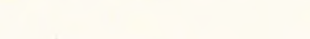
عاااااا ابعد عني يا ابن... الكلاااااااااااااب..

إنني أتمزق بالفعل، أشعر بانفساخ لحمي عن بعضه...

وفي سري دعوت الله بالموت السريييييييييع لكن... آه هـ هـ هـ هـ

هل صحيح أن الألم لا دين له؟

***





محسن

ما هذا الذي أراه..؟؟؟

كانت المرأة أقصد التي كانت امرأة على شاكلة السائق بل لعله يسبقها في سلم التطور، إنها قرد أو أقرب ما يكون للنسناس، مشعرة الوجه مستديره دقيقة الأنف واسعة الفم بشفاه غليظة محددة بقسوة التجاعيد حولها، وبعين مستديرة صفراء مهدبة برموش بل إنها طويلة مسمومة ترمقتني بتركيز الضواري. كيف تبدلت وأين الرموش التي شبكتني في فورة الرغبة؟؟ ثم.. ثم.. ثم ماهذا؟

كان ذيلها يمتد غليظًا كأفعى عاصرة ويلعب بجانبها متوترًا مهتزًا..

شعرت بتنميل في رقبتي وشحنة كهربية قاسية تصعق عمودي الفقري، بل إن الجليد بات أقل وطأة من البرودة التي أشعربها الآن، لعلي أحلم وسأفيق حالًا..

حاولت أن أصرخ فغُض حلقي بقطعة حديد صدئ، حاولت أن أتحرك فكبلني حزام الأمان في السيارة إلى أن... إلى أن ... لاالالا ... ولمحت بطرف عيني السائق الضئيل يضاعف السرعة لتتحول السيارة لصاروخ يريد الطيران مندفعًا على الأرض ويقترب كثيرًا من حافة الطريق المفضي للجُب الصخري السحيق، ثم أزاحت الأخرى غطاء وجهها لتبدو أقبح وأضخم جثة من الأولى بل بدت كغوريللا فطساء تستعد لافتراسي، نظراتها.. لن أنسى نظراتها المسعورة وهي تفتح فمها الغليظ الشفتين كما لو كانت تضحك في شماتة أو تشفٍّ نهائي، ثم يصرخ الجميع بلغة ملعونة قوامها صرخات رفيعة مؤذية لطبلة أذني بشدة، عاااااا عاا عااا، كان الطريق خاليًا فشعرت بأنني في فضاء سرمدي أسبح فيه وحدي على ظهر نعش طائر، بدأت أنا الآخر بالصراخ، أعتقد أن هذا من حقي الآن ولو كان حقًّا أخيرًا سأمارسه، نعم لقد كان محسن وحده في سيارة تسير بسرعة جنونية مع ثلاثة قرود، أي حقيقة مفرعة أكثر ستنداح عنها

الأحداث، سرعة جنونية وقرود تصرخ ومحسن مكبل بحزام الأمان.. الموت أو الموت أو الموت أو الجنون المطبق..

ثم ... ثم...

ثم اندفعت السيارة نفسها ساقطة من حافة الجرف الصخري إلى القاع مباشرة متدحرجة مرتطمة بكل النتوءات الصخرية القاسية وأنا داخلها مكبل إلى المقعد بحزام الأمان، الصراخ كان مصاحبًا للجميع بما فيهم أنا، ولكن صراخهم كان حيوانيًّا أشبه بضحكات القرود المخلوط بصراخهم وسخريتهم، وأمام عيني ألمح أجزاءً تتطاير من السيارة إثر ارتطامها في كل مرة، إلى أن انبعجت علينا وأصبحت كعلبة مياه غازية هشة منطبقة الحواف من فرط الصدمات، قبل أن تستقر مقلوبة على جنبها في قعر الوادي.. والذي يعرف محليًا في المملكة العربية السعودية باسم... (وادي الجن) بمدينة الطائف.

***



استراحة ونبذة عن وادي القرود أو ما يسمى سرًّا ب ...(وادي الجن)

((يمتد وادي(الطائف) أو ما يعرف ب(وادي الجن) لمساحة سطحية كبيرة ويمتاز بالسمعة السيئة لدى السكان المحليين إذ أنه يعتبر جزءًا لا يتجزأ من وادي (عبقر) الرامز للجحيم في اللغة العربية والذي يعج بفصائل من الجن ينسب لها قرض الشعر وتعليمه لكبار كبار الشعراء في العصر الجاهلي بل والحديث أيضًا ويصنفه علماء الروحانيات بأنه يعتبر منطقة لسجن أو اعتقال الجن من عهد الملك النبي سليمان - عليه السلام - وفيه يُكبل العصاة من مملكة الجن ممن كفروا أو لمن لم يطع أوامر ونواهي نبي الله(سليمان) ويقال إنه مساحة مفتوحة ولكن محكومة ب(اسم الله الأعظم) التي يحوطها بسور من الطاقة العظمى ولا فرار منه أبدًا، والذي حولها لمعتقل حقيقي لكل من غضب عليهم سليمان من عُتاة الجن وملوكهم وحتى أفراد شعبهم ولا ينمو في هذا الوادي إلا شجيرات من نوع واحد تنتج عصارة دمعية في أوقات غير محددة تسمى شجيرة (الكَندر) وينتج منها (اللبان الذكر) الذي يبخرون به الممسوسين فقط وهو وادٍ سحيق محاط بجدران صخرية شديدة الوعورة وغير مأهول نهائيًّا بالسكان وإن كان أيضًا مرتعًا لقرود (البابون وبعض أنواع السعادين أو النسانيس) والذي قدر العلماء المحليون أعدادهم بما يزيد عن النصف مليون قرد ويعتقد علماء الروحانيات والمشتغلين بالسحر الأسود أن هذه القرود عبارة عن (مساخيط) من شعب الجن المحبوس في الوادي الملعون، لذا يقوم بعض السحرة باصطياده لعمل الأسحار من دمه ومخه المهروس بأعشاب معينة ليسببوا الجنون وفقدان العقل للكثير من ضحاياهم

ويقال إن هناك ثمة قناة أو نفق أرضيًا سحيقًا يصل بين أرض المملكة وبين الجانب الآخر من البحر الأحمر متمثلًا في مصر والسودان والحبشة، إذ أن هذا النفق أعمق من عمق البحر الأحمر نفسه، ولعل هذا يفسر انطلاق السحرة الأفارقة لشبه الجزيرة العربية بالذات لعمل أسحارهم، بل إن بعض السحرة قادرون على العبور من أفريقيا لأساي عبر هذا النفق الموغل في العمق، وأن الأهالي هناك - في الطائف - يتطيرون من هذا الوادي المنعزل كثيرًا خصوصًا مع حوادث الاختفاء العجيب لأي إنسان يجرؤ على الدخول أو النزول فيه، كذلك اختطاف الأطفال الرضع والصغار إلى الأبد لأكثر من مرة من الذين يقفون على جانب الطريق بحجة إطعام تلك القرود، كذلك فإن قوانين الفيزياء لا تنطبق تمامًا على هذا الوادي إذ أنه يعاكس الجاذبية في أكثر من نقطة ويحيل الوزن إلى لا شيء نتيجة المغناطيسية المقلوبة المسيطرة على المكان الروحاني.. حقًا لقد استحق وادي الجن تلك السمعة السيئة وكان مقصدًا كبيرًا للسحرة والشعراء في الماضي السحيق.

(معلومات تخص المؤلف والبناء الدرامي للرواية)

***



مازال الطَرْق شديدًا على الباب وأنا واقفٌ في الحمَّام عاريًا مبتلًا أتفكر في هذا الموقف المعقد.. مفصلات الباب لن تحتمل أكثروسوف تنخلع تحت وطأة القبضات الحديدية لرجال الشرطة.. الثواني تمر بسرعة الضوء لدرجة أنني شعرت بتجمد الزمن.. لا لم يعترني ذعر أو خوف ولكن التوتر والتخبط.. ماذا أفعل؟

هل أخرج عليهم وأسلم نفسي لهم لقمة سائغة للقضاء والقانون أم أن قواي الشيطانية لها رأي آخر...

- يا عزازير أنقذني فأنا ابنك الطائع يا عزازير أغِثني يا عزازير لك المجد في الظلمات، الوحا الوحا، العجل العجل، الساعة الساعة هكذا تمتم «معتز» بلا كلل ولا هوادة في وقفته العارية في الحمام..

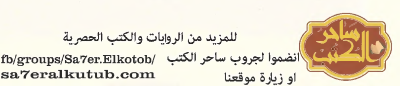
فهل سيحدث شيءٌ

هل تعلمون من هو (عزازير) أيها الطينيون ؟؟ إنه.. إنه...

تعالوا معًا لنرقب المشهد من الناحية الأخرى من الباب

سأصفه لكم ... بدقة

كان (سيد) صاحب البيت يقف منتفخًا بالغضب والشماتة بين رجال المباحث بعد أن أرشدهم عن معتز، لأن (سيد) في الحقيقة لم يكن إلا مرشدًا مخليًا لرجال المباحث حتى يتركوه يتاجر في الحشيش مقابل خدمات إرشادية ينقلها لهم عن نشاط بعض سكان الحي، كان الرجل يعرف أن «معتز» ما هو إلا هارب من تنفيذ أحكام غيابية، ولكنه تستر عليه بغرض الاستفادة من إيجار الشقة وبيعه له قطع الحشيش، ولكن بعد الإهانة الصارخة التي ضربه بها «معتز» أمام الناس قرر الانتقام وأرشد رجال الشرطة عن مكانه، وما هي إلا نصف ساعة حتى تجمع هو ورجال المباحث وجارته اللعوب وبعض الجيران أمام شقة معتز وانتشروا في باقي درجات سلم العمارة القديم، إلى أن لاحظت الجارة اللعوب التي فضحها معتز أن شيئًا ثقيلًا يهبط على السطح، كان الظلام سائدًا، ولكن وزن الشيء واهتزاز الأرض جعل الأمر واقعًا.



فجأة انقطع التيار الكهربي عن المنطقة كلها، ليسود الظلام المطبق، اعترى الجميع تخبط وإن زاد لديهم الإصرار على اصطياد الهارب من الداخل، ثم دوى صوت مؤثر انخلع له قلب الجميع، كأنه صوتٌ كونيٌ، كأنه الأب الشرعي لهزيم الرعد، استر للحظات قبل أن يحين الحضور الطاغي ل...

لقد حضر(عزازير) أيها الأوغاد، إنه الفيل الأسود الذي سحق معتز في آخر أيام الخلوة، لقد جاء لينقذ عبده المطيع بأسوأ الطرق وأشدها هدمًا وطرقعة وتحت الضغط الرهيب للجن الفيل ومسألة الوزن المركز لبعد آخر حدثت الفاجعة...

شعر(سيد) بأن هناك تفريغًا هائلًا للهواء بحيث بات تنفسه عملية مستحيلة، وكذلك شعر الباقي بذعر غير مسبب يعتريهم مع تصاعد همهمة الصمت والتي تشبه الصوت الخارج من آلاف الأرواح المعذبة، بل رأى الجميع ثمة أطياف تهيم فيما بينهم لونها أصفر مائل للأحمر الناري وكأنها خناجر تمزق أمامهم وتحليهم لزمرة من المفزوعين، صرخت الجارة صرخة حادة، كان هناك من يتنزع أحشاءها وهي حية، ثم تلاها صرخة المعلم (سيد) نفسه بصوته المشروخ، ثم...

صوت طقطقة مفزعة وارتجاج عاتٍ يهز المنزل كله بلا هوادة في أمواج من الظلام لم تفلح الأضواء التي أشعلها بعضهم من هواتفهم النقالة، ثم انبعث نفيرٌ أخيرٌ لتبدأ المسرحية.

توقف الطَّرق وسمع «معتز» بدلًا منه صوت ارتباك تحول لذعر وتخبط لمن وقفوا أمام الباب

نعم كان المنزل كله يهتز بهزيم اللارحمة والوعيد بجثث وأنقاض مختلطة بعظام الحضور.

كان الرجال وعددهم يزيد على العشرة بما فيهم (سيد) والجارة العشيقة وبعض أصدقائه في ذروة الهلع بينما الاهتزاز يهزم متماوجًا مرة ومتصلبًا في الأخرى، وكان هذا الأخير من نصيب درجات سلم البيت الحجرية، وكما قطع الدومينو تتساقط

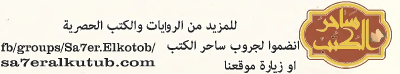


بالتتابع فقد اضطربت أول سلمة لتلقي بثقلها وبمن عليها لأختها التي تليها ثم التي تليها لتاخذ في الانهيار المتعاظم الشامل تحت ثقل الحجر والشيطان الفيل وأجساد من كانوا يقفون في الأعلى ومن احتشد في بئر السلم ليراقب الفضيحة باستمتاع ومن خرج من شقته أيضًا، كارثة محققة سيلتج عنها موتى بالعشرات بما لا يقاس خصوصًا مع ثِقل أحجار السلم والأجزاء الداخلية المنهارة معه في الداخل وعلى رؤوس الجميع وموسيقى تصويرية قوامها صراخ النسوة المتواصل وقد ادلهمّ الظلام عاتيًا ومتمثلًا بتقويض الجدران الداخلية على رؤوسهم جميعًا والكثير الكثير من الغبار إثر ذلك الانهيار العاتي على الجميع. لتلك العمارة القديمة المكونة من خمسة أدوار، هاويًا بهم إلى... قعر المبنى في هذه اللحظة بالذات فتح «معتز» الباب عاريًا وكله شموخ وتشفٍّ وتشع من عينيه أضواء متقطعة ترقب البيت، والذي صار كذبيحة انتُزِعَت أحشاؤها وبدت فارغة داخليًا تمامًا، ودخل إلى مجال بصره كيان الفيل الأسود ليسجد معتز سابحًا في الشكر والعرفان لمن أنقذه وقايض حريته بأرواح ما يزيد عن العشرين فردًا، الآن يا معتز ترى الأرواح الصارخة والتي أخذت عنوة من أجسادها وهي تطير محلقة في دوامة إعصارية وترمقك بكراهية.. وحقد نهائي..

***

عدت أدراجي وانا متأكد من العناية الروحانية الكاملة لي وسجدت شاكرًا في الحمام المليكي المعظم (عزازيل) وجمعت أشيائي قبل أن أقفز للشقة المواجهة لي والتي يقطنها الرجل الأعمى (عم مصطفى) والذي وجدته يتخبط مذعورًا وهو غير دار تمامًا بما حدث ورفقت بحاله وأوصلته بنفسي لحافة السلم المنهار وتركته يسقط تلقائيًا كتوقيع أخير مني على تلك المأساة المظلمة، بل واعتبرته قربانًا للشكر السريع لمولاي الشيطان، ثم قفزت للسطح المجاور واتخذت طريقي خارجًا للأبد من منطقة بولاق الدكرور المكتظة بالناس والعرق والصراخ على كل الضحايا، فقبل أن يعود الضوء الكهربي ليظهر الحجم الحقيقي.. للفاجعة.

***



تابع زوجي اللعين العبث في... والمفتوح على مصراعيه بينما صرخاتي تهتز داخلي من الذهول، نعم أنا الآن على وشك الولادة بعد أقل قليلًا من أربعة أشهر من بداية الحمل اللعين، أنفاسي تكاد تشتعل من الألم العاتي وزوجي تعتريه ابتسامة تبجيل لما يشق طريقه خارجًا من بطني، لم أدر متى أتتني تلك القوة لأنثني على نفسي كدودة عملاقة تريد لفظ حشرة ضخمة متكونة في داخلها ولكني صرخت.. صرخت.. صرخت.. ململة أشلاء آلامي العاتية وساعدته - نعم ساعدته- في لفظ ما يتموج داخل رحمي ولاحظ زوجي انصياعي له فربت على فخذي مشجعًا، آه لو تنظرون لعينيه اللتين باتتا سوداوين بالكامل واللعاب ينز من شدقيه كحيوان مسعور، جسدي يعتمر بألم الخلاص الآن والمخاض قريب جدًا جدًا، ماذا عساي كنت أحمل في بطني طوال تلك الشهور المنصرمة، بالتأكيد ليس جنينًا أبدًا، لابد أنه بذرة شيطان رجيم.

ثمة ظواهر كونية تتكون في فراغ المكان وأسمع خلف جدار وعيي المتلوي من الألم ثمة صراخ مواز أو لعلها زغاريد أو نحيب لا أقدر على التمييز إطلاقًا ولكنها أصوات تساعدني على لفظ تلك الصخرة المنحشرة الآن في عنق رحمي وتكاد أن تمزقه تمزيقًا. شيء ما في داخلي يقول لي أن أهدأ وأساعد زوجي في التوليد وألا أقاومه أبدًا..

الآن تعم السكينة أو بمعنى أصح الاستسلام في أرجاء نفسي ثم استجمعت ما تبقى لي من حياة في صرخة معكوسة انطلقت من خارجي لداخلي..

إلى أن لفظت ذلك ال... ال... المفروض أنه الوليد..

وبمجرد ما تلقفه زوجي بيديه تلونت الدنيا حولي بلون الدم والشقاء وتسابق لهاثي مع ضربات قلبي المتواثبة وأنا أنظر لما في يد زوجي..

بينما تجاوب معي الصوت الآخر بهزة راقصة وصخب سعيد..

لا!!!!!!!!!!!!!!!!

ماهذا .. إنه... آه هـ هـ هـ

قبل أن ينتفض جسدي كبالون ثُقب فجأة بعد طول انضغاط.

إنني أشعر بالدوار المناسب لريشة في مهب الريح والهوة السحيقة تفغر فمها لتبلعني.

***



في وادي عبقر

كان حزام الأمان عائقًا أكيدًا لموتي إثر انقلاب السيارة، نظرت حولي فلم أجد المقرودين رفقائي، أين ذهبوا ،ربما تحطمت عظامهم وقضوا نحبهم فورًا، فقط أنا داخل هذا الصفيح المنبعج، مازالت إطارات السيارة تدور بالدفع الذاتي وأنا في الجانب الملاصق للأرض، مددت يدي أحاول فك الحزام عن وسطي، وبالفعل نجحت ثم تحاملت على نفسي لأخرج من باب السائق الذي بات لأعلى، خرجت من النافذة ذات الزجاج المحطم وتدليت إلى أن لامست قدمي الأرض أخيرًا، ابتعدت مسافة عن السيارة خشية انفجارها في أي لحظة ورميت بنفسي على صخرة بعيده نسبيًّا عنها، المغارب تلون الدنيا بالأحمر المائل للسواد، ولكن المعالم مازالت واضحة للعيان، الصمت يلف المكان وكأنه إسنفجة تمتص الضوضاء، ولكن، أين أنا؟ . وما هذا المكان الموحش، لابد أنني في قاع جُب عميق، ولكن القاع هنا مستع كأنه ملعب كرة أو ما شابه . توجد بعض الشجيرات القصية منتشرة هنا أو هناك لها شكل متقزم.

التقطت أنفاسي بصعوبة وأنا في حالة من الانهيار التام وبدأت في تجميع شتات نفسي، وأحاول استكشاف إلى أين وصلت، قبل أن أتلقى حجرًا يضرب جبهتي لينفجر الدم كالنافورة من رأسي وتتلون المناظر بالأحمر القاني، وقبل أن أغيب عن الوعي رأيت جحافل ومجاميع من كائنات أشبه بالإنسان تهبط نازلة من جدار الجبال الصخرية من حولي . مع صوت صراخ متبادل بينهم وكأنهم يتسابقون من سيأتي لنهشي... أولًا.

***

طال انتظار السيدة (عايدة الغول) في السيارة أسفل مبنى العمارة التي تسكن بها ابنتها (مروة)، واعتراها قلق مشوب بالملل من طول الانتظار فتناولت الهاتف المحمول لتطلب ابنتها، الهاتف لا يرد، ثم جال بخاطرها أن تلحق بابنتها التي تأخرت في لم حاجياتها من منزل الزوجية الملعون، ولكنها تراجعت لسبب لا تدريه وأمهلت لنفسها فرصة لدقائق أخرى وأجرت اتصالًا ب(ماهيتاب) ابنة أخيها لتأتيها فورًا حيث تنتظر، كانت تريد مساندة وتشعر بشعور خفي بأن الأمور على غير ما يرام وبالطبع لم تتصل بابنتها الصغرى «هبة» بسبب موقفها العدائي الواضح من أختها الكبرى (مروة).

***

سال العرق البارد عبر منابت شعري وأنا أحملق في انعكاس الصورة لكيان الشيخ (علي) خادم سورة الجن، واعتراني مغص وتعب وهبوط اضطراري في ضغط الدم، فأنت لا تقابل جنًا كل يوم فما بالك بحضور ذلك المارد الجبار في الحيز الذي تقف فيه، لم أجرؤ أبدًا على الالتفاف واكتفيت بمعتوم الصورة في المرآة، وتمالكت نفسي كما تعلمت من خبراء الروحانيات حتى لا يستهتر بي ويعبث بخلايا إدراكي كما يحدث دائمًا عقب أي تحضير، مازلت أحرك رأسي يمينًا ويسارًا لكن ببطء والدوار آخذ في الزيادة لما أنا فيه من ذعر، ولكن لابد من الاستمرار..

- الس الس.. السلام م م على عليييكم و. وورحمة الله وبركاته

- ....

كررت إلقاء السلام مع اهتزاز رأسي وفي كل مرة ألتقي بصفحة المرآه، أفتح عيني لأراه كما هو بلا حركة، بينما هو لا ينظر لي ويستمر في اهتزازه المشوب بالنحيب..

-السلا.......

-آه هـ هـ هـ

هكذا صرخ الجني من موقعه صرخة أطاحت بغددي الدمعية وفجرتها كلها نوبة واحدة في صورة شلال من دموع بلا بكاء.

- آه من كف قابضة على جمرة الإيمان.. آه على قلب لا يعرف إلا الحرمان



توقفت رقبتي عن تحريك رأسي ونظرت له غير مدرك للمعاني لأنه قالها بنغم منحوب حزين، وتوقف هو عن اهتزازه ونشيجه ناظرًا لأول مرة لي مباشرة عبر المرآة.

يا إلهي لم أتوقع تلك الرعدة التي ضربت مفاصلي من مجرد نظرة المشوبة بالضوء الطباشيري الذي يخرج منها.

وقام نصف قومة ليصل إليّ وكان جسده يتمدد، وهو مازل جالسًا ثم مد كفه الهائلة نحوي ولطمني في منتصف ظهري بالضبط، لطمة جعلتني أنبعج نفسيًّا قبل جسديًّا قبل أن أسمعه يقول وهو يعتدل:

- الفاتِحة الشريفة.. بها تأمن من نكالة كُل شر، فهي من يجعلك لا تفجعُ من كل مكروه وضُر، أو تخافُ من بطشِ أي نَهي وأمر، فلازم درسها عُقبي عِشاء وفي صبحٍ وظهرٍ ثم عصر، ومغربِها بكل ليلٍ إلى التسعين تتبعها بعشر.

استجمعت الكلمات بصعوبة وطار صوابي من خشية نسياني لهذه الزخارف التي يرددها الجني وخصوصًا أنه عاد لاهتزازه ونحيبه السابقين من الواضح أنه يعطيني المفاتيح ويعرف مسبقًا ما يدور بخلدي.

- حسبي إذاً مدح ابنة الحسن التي

لها كرم مجد طريف وتالد

وإني لمهد من ثنائي قلائداً

إليها حلال هديها والقلائد

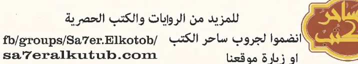
هي العروة الوثقى هي الرتب العلي

هي الغاية القصوى لمن هو قاصد

يا له من مديح جميل بصوته المشروخ الزاهد، ثمة أصوات تتبعه كأنها الرجع أو الصدى أو كان صوته نفسه يحمل اهتزازًا مزدوجًا..

لابد أنه يقصد السيدة (نفيسة) فأنا أعرف تلك القصيده للإمام (البصيري) أكرمه الله..

نعم لابد أنه يقصد تقديم بعض النذور لفقراء المقام ولسوف أفعل حتمًا فقلبي



من الأساس متعلق بمقام السيده(نفيسة) العلوم بلا أي شك وها هو ذلك الجني يشاركني العشق العظيم، تهت في زخارف كلماته قبل أن أنتبه إلى الوقت الذي يتسع ويتسع.

أما الآن فلابد من صرفه وقبل أن أشرع في برتوكول صرفه والامتثال في إلقاء الشكر والتحية والسماح لنفسي بالعودة من عالمه، لأن الخطا الشائع يقول بأنك تحضره لعالمك ولكن الصحيح وفي كل مجامع الروحانيات بأن الذي يقوم بالتحضير هو من يذهب إلى حيث التردد، ولكنه باغتني وقام واقفًا ويمم وجهته شطر الجدار العاري في الغرفة وأشار له فانشق الجدار فعليًّا عن الفراغ المفضي للشارع الذي أسكن فيه ودلق نفسه دلقًا من الطابق العاشر حيث أسكن قبل أن يتلحم الجدار فقمت من فوري بفتح النافذة لألقي نظرة على الشارع لأجده فعلًا يسير مع المارة كرجل صوفي زاهد وقد ابتعد الناس عنه بسبب مظهره البالي وجثته الضخمة.

آه لو يعرفون أن هذا جني رهيب يمشي بينهم، ثم لوى عنقه لأعلى ناظرا إليَّ وأشار بكفه.. بالسلام

عدت من فوري أستفيق من التجربة المريعة وأخرجت قلمًا وورقة سريعًا أعتصر ذهني بما قاله الجني وغير مبالٍ بأنني لم أصرفه كما تقتضي برتوكولات الروحانيات الصارمة ولعل مشاكلي ستزيد تسرطنًا بسبب هذا الإجراء غير الكامل.

لقد قال شيئًا عن سورة الفاتحة بالذات، وقال رقمًا.. نعم قال تسعين، ثم قال رقمًا آخرا ثم ظهرًا وعصرًا وعشاء ثم رقم لعله تسعة أو عشرة ، ثم، ياربي إن ذاكرتي تتسرب من وعيي وخشيت حد الموت أن أنسى ما قاله بالضبط فهرعت للأوراق أدوّن ما تجود به ذاكرتي المهتزة دون أن أنتبه للواقف في ركن الغرفة لصق الجدار، هل ترونه، إنه كظل أو ما شابه، له عيون متقدة وجسد آية في الهزال والخبث، يكاد يكون رسمًا لهيكل عظمي عن أي شيء آخر، لكنني لم ألاحظه أبدًا إلا بعد فوات.. الآوان.

***



اندفعت من بطني حمم حمراء مسودة ثم تلقف زوجي بمنتهى الحرص شيئًا مغلفًا بجلد رقيق كما لو كان بالونًا مملوءًا بالماء يسبح داخله كرة من الضوء أو خلية مشعة لم أستطع التحديد مع حالتي، كان الكيس يترجرج بين يديه يشع الضوء من داخله لخارجه أو كأنه يمتص الضوء من الخارج للداخل، ثمة هالة من الإشعاع يحيط ما بين يديه بحقل مغناطيسي محسوس، معتز يمسكه بحرص بكفيه الاثنين ويتركني أتشحط في لزوجتي وألمي ويضعه بحرص على مقعد بعيدًا عني، أراه هو الآخر يبتعد عنه خطوات، ثم يركع بكل خشوع وهو يتمتم بكلمات لا أعرف ماهيتها، أصوات تأتي من بعيد لها رجع الصدى، اجتاحتني سكينة بالرغم من آلامي وأنا أسمع تلك الأصوات القادمة من بعيد، أرى معتز ينطبع على الأرض تمامًا وقد فرد كل جسده كصليب من العذاب والندم والتبحيل اللانهائي لهذا الشعاع المنبعث من كيس الرحم . أرى بوضوح تفاصيل الكيس وما يعتمره من شعيرات دموية زرقاء وحمراء، لكن ما في الداخل غير واضح تمامًا، آه إن جسدي بالكامل تعتريه كهرباء أو مغنطة لا أدري تحديدًا، معتز مستمر بالتمتمة والهمهمة التصاعدية، وتصاعدها متناسب طرديًا مع تصاعد الأصوات القادمة من بعيد، أعرف أنني على وشك الإغماء، لقد أصابني الإجهاد النهائي من عملية التوليد الشنيعه التي تعرضت لها، لكن شيئًا من الطاقة الآن يسري في عروقي نتيجة هذا الإشعاع، الأصوات تتعالى يغشيها شيءٌ من الطقطقة أو الإيقاع، لملمت ساقي وأجزائي المبعثرة، شيءٌ من الابتهاج والسعادة يمس جراحي ويشعلها بالراحة والسكينة، هل صحيح ما أرى، مع تصاعد الإيقاع والصوت الآتي من بعيد تنمو الكرة المشعة أو ذلك الكيس الجلدي بشكل ملحوظ، معتز مستمر بالتمتمة وكأنه يعرف ما هو واجب عليه، أزيز الكهرباء يهتز بخشونة في أرجاء المنزل منذرًا بانفجار قريب في المصابيح، لكني لم أكترث وكأنني أرى الجمال لآخر مرة في حياتي، الصوت يتصاعد أكثر وأكثر، الكيس الجلدي يتفلطح ويتحول تدريجيًا لبوق أو لزهرة تشبه زهرة اللوتس الفرعونية، إنه مستمر في التضخم وكأنه يتغذى على صلوات معتز وتمتمه، بل إنه يتغذى على تلك الأصوات القادمة من بعيد، فجأة انفجرت المصابيح

في الغرفة كلها وساد الظلام، جفلت للحظة واستعدت روعي وموقفي الحقيقي وبدأت في النحيب المكتوم، ولكن عيني متسمرة على مشهد هذه الكرة المضيئة التي خرجت لتوها من رحمي أنا، الصوت يقترب . يقترب، يقترب، وصوت معتز يعلو بدروه ليغالب الحضور الصوتي الطافح بالإيقاع العجيب، الأطياف تعاود الزهور في الأنحاء المظلمة، ثم.. ثم.. ثم .... اشتعل الكيس بنار زرقاء وتفلحطت جوانبه، صرخت مذعورة، لا.. لا.. لا تحرقوا وليدي.. لا، شيء ثقيل يهبط على الثواني والدقائق، شيء يجعلها أبطأ رتابة وأقل تتابعًا، كأن هناك من يسلط على الزمن ميكروسكوبًا لتكبير لحظاته وثوانيه، يا إلهي إنني بصدد معجزة أو ما شابه، لا أرى معتز، إن الظلام يغلفه تمامًا، الاشتعال مازال مستمرًا وكأنه يُنضج ما بداخل الكرة، ثم تجسد كفان كبيران حولها، كفان مرعبان بأصابع معروقة وأظفار طويلة، لكن سبابة أحد الكفين تملك ظفرًا أطول من اللازم، أحدّ من اللازم، الصوت أصبح موسيقى أحادية الإيقاع كما لو كان ضرب قلب عملاق، ترومب، ترومب . ترومب، ثم.. ثم.. ثم نشب الكف إصبعه في وسط الكرة المضيئة لتنفجر ناشرة أضعافًا مضاعفة من الضوء الممزوج بالنيران الباردة .. ياربي ماهذا بالضبط؟

* * *

هكذا انطلقت من حي بولاق الدكرور نهائيًا وبلا رجعة مغادرًا البيت الذي كنت آوي إليه، تركته ركامًا وجثثا وأشلاء وجرحى ومتنعما بلذة الشعور بالقوة والسُلطة الشيطانية بلا حدود، نعم كنت لا أعلم إلى أين أذهب ولكني كنت مستمتعا أيما استمتاع بقواي الرهيبة التي جعلتني فخورًا تياها بنفسي لأبعد الحدود، إلى أن هداني التفكير إلى حيث شيخي الأول الذي أعطاني مفتاح السرداب السفلي وتركني أتخبط في طياته، توجهت من فوري إلى ميدان الرماية ثم عرجت يمينًا حيث بداية الطريق الصحراوي الواصل للإسكندرية ثم بدأت أمشي مع الطريق أفضل المشي على الركوب إلى حيث هو، ذهني صافٍ كزيت تم ترشيحه، لابد أن يرى الشيخ ما الذي جنيته، صحيح أنني الآن أقوى منه وبمراحل، ولكني أبحث عن الرفقة، أبحث عمّن



يعرف كيف يدبر معي خطتي لأيامي المقبلة، أنا لا أشعر البتة بأي مشاعر من العرفان أو الجميل تجاهه، لقد أرشدني فحسب ولكني أنا من دفع الثمن باهظًا، اقتربت من عرينه وهو عبارة عن كازينو ليلي ومرتع لحشرات البشر يأخذون فيه جرعات المتعة ويدفعون الثمن.·عرج بي الطريق يمينًا إلى الداخل، لا أجد أي رغبة لدي في ركوب أية سيارة، أفضّل المشي على قدمي، شعر أن الدنيا ملكي أنا وحدي، كل من أقابلهم ليسوا أبدًا في أدنى مستوى من مواجتي، أنا ابن السعير وسفير الظلام الآن، ولكن الأمر يحتاج لتدبر وتخطيط، حتى لا تخرج مني مشاعر متضاربة تضر بأثمن ما أريد امتلاكه، إنه الانتقام العزيز إلى قلبي والذي يسكنه وحيدًا بلا رفقاء، اقتربت كثيرًا من الملهى وبات لي واجهه المضيئة بالنيون، صعدت للتبة الموضوع عليها المكان، دخلته، رواد المكان ينظرون لي باشمئزاز وتعالٍ، حتى مدير المكان تعامل معي بطريقة منفرة لا تليق بملك متوج مثلي، ولكني أستمتع بكل هذا الازدراء، توجهت رغمًا عنه لأحسن مائده في صدر المكان، ثمة فتيات يرقصن على موسيقى شعبية بطريقة لاهبة لمشاعر الآخرين، مدير المكان هرع لمكاني متحدًا في تعابيروجهه، اللاترحيب ظاهر على محياه، انتبه أيها القواد فأنت لا تعرف من تتكلم معه.

- الترابيزة دي محجوزة يا أفندم.

نظرت له من تحت جفني وأشرت له بالانصراف بكل تعالٍ، لكنه لم يتأثر إلا بمظهري الرث وملابسي القديمة.

-ازازة ويسكي وتلج ومَزَة .

تعجب من صلادتي وكرر بنفاد صبر:

- بقول لحضرتك الترابيزة دي محجوزة.

نظرت له نظرة واحده لهرع من أمامي مجيبًا، وليعود بعد برهة ومعه الجارسون حاملًا ما طلبت، بينما تتابع عيناي ما تفعله الفتيات على المسرح من هز متواصل لكل ما يملكنه من طرواة وليونة، تنحنح لانظر له، فسألته بلا اكتراث:

- فين حشمت ؟

***



كان لصدى الانفجار الضوئي أثرٌ مزلزلٌ في نفسي، لقد انداحت آلام الولادة بعيدة في المجرور، وتركتني بلا مشاعر تقريبًا، عيناي مصوبتان تجاه المشهد المذهل، الضوء يعمر المكان ويتسرب لكل زاوياه، لكل مشتملاته، حتى جسدي أنا امتص طاقة عجيبة لم أعرف كيف دخل إليها، قام معتز من تسطحه على بطنه، وركع على ركبتيه منتظرًا، وصوت تمتمة يأخذ منحى ذاهل، يبدو كجثة أعادوا لها الحياة بالسحر الأسود، من موقعه مد ذراعيه تجاه بؤرة الضوء، أما في المركز نفسه فقد رأيت لحنًا متجسدًا من الجمال والعنفوان مجسدًا كفراش لين أو سحابة من ندف الآهات، وعلى سطحها يتلوى طفل لم أرَ اروع ولا أجمل ولا أرق منه، كان جسده المدملج يتمطع ويتقلب على تلك الوساده الدخانية، كما لو كنت ترى معجزة المعجزات، طفل رائق التكوين جميل ينظر حوله وهو مسجى على بطنه ينظر للعالم الذي أتى اليه بكل براءة المخلوقات الصغيرة وجمالها، دبيب قلبي يتحسر على عجزي في القيام لاحتضانه، لقد بدا الأمر أكبر بكثير من أنه مجرد ابن لي، إنه بلا شك ابنٌ للسماء والسحاب والمطر والندى ودموع الفرح، تحرك معتز حثيثًا ليأخذه قبل أن تمتد براثن اليد الشيطانية، ولكنه تراجع عندما مسح الكفان المعروقان الخبيثان على جلده الناعم، وربتت على ظهره الوضاء، ثم رفعته، أشعر أنني في مقعد للسينما، وأن المشهد كله مخدوم باحث التقنيات، ثم سلمت الكفوف الطفل لمعتز بهدوء فتلقفه معتز بتبجيل كبير، لم يجرؤ على لثم خدوده، إنه حتى لم يدنيه إلى صدره، كأنه يحمل ماسة براقة يخشى عليها من تلوثها بعرقه وآدميته، شهقت من فرط الانفعال، فنظر لي معتز وابتسم، واقترب مني ببطء وهو يحمل الطفل الرائع، اعتدلت بصعوبة وطفرت عيناي بدموع لم أعرف كيف اختزنتها كل هذا الزمن، الأضواء ترحل تاركة الظلام يعود لمكانه الطبيعي، ومع ذلك كان المكان مضاءً، وكان مصدر الضوء هو ذلك الطفل عاتي الجمال، نظرت مليًا لوجهه وتأملت وجهه الوضاء وعينيه اللتين تطلق شررًا ناعمًا، يا ربي، ما كل هذا الجمال، كان وليدًا مكتملًا نظيفًا بثغر وردي وأنف مستقيم وعينين، آه من عينيه، كانت إحداهما زرقاء والأخرى رمادية تميل للأخضر، واسعة تأكل نصف مساحة



وجهه، ينتشر الزغب الذهبي أعلى رأسه، عارٍ جميل الأطراف، اعترتني الفرحة العارمة ونسيت ظروف ولادته الشاذة، حاولت أن ألمسه فابعَده معتز عن مجال يدي، بكيت واسترحمته أن يتركه لي، فهز رأسه رافضًا وقال:

- متعي نظرك للمرة الأخيرة يا مروة، أنا سميته نبيل.

يمعن في الابتعاد عني أكثر وأكثر، معتز إلى أين تذهب بابني، أرجوك ابق ولو قليلًا أريده بشدة، ولكنه قام واقفًا ونظر لي بقسوة وحزم وتحرك خارجا من مجال نظري ليغلفه الظلام المحيط، اندفعت دموعي غزيرة وأنا أرى الضوء الصادر من بين ذراعيه ومصدره وليده الرائع، لا لا انتظر، حاولت جاهدة أن أقوم من رقدتي الإجبارية فمنعني نزيفي وجرجي ودمائي التي أتشحط فيها، لا يا معتز، عد أيها القاسي الجبان، لا تأخذه بعيدًا، أريد ابني، لاااا، ولكن الظلام الحالك أحاطني بكتل من هلام جاثم على أنفاسي، إنني أختنق، إنني أموت حسرة من فداحة خسارة، شيءٌ ما في صدري يخبرني بأنني لن أرى ذلك الجمال المبهر مجددًا.. ثم هويت إلى قعر الوعي، وفي نفسي شيءٌ من الرغبة في الموت.

***

أولجت السيدة (عايده الغول) المفتاح في باب شقة ابنتها تتبعها ابنة أخيها (ماهيتاب) ودلفتا للبيت الساكن بنوع من التوتر وقد التصقتا ببعضهما بحثًا عن «مروة» الظلام الكثيف يلف المكان والإضاءة أصابها الشلل، ثمة فوضى عارمة تلون المكان بالأسود الداكن، انخلع قلباهما وهما تتخبطان بحثًا، وعلا صوت الأم بالنداء على ابنتها، أضاءت (ماهيتاب) كشاف الضوء الخاص بهاتفها وتأكدت من اتجاهها نحو غرفة نوم مروة، فتحتا الباب ليواجهها ظلام أعلى كثافة، خيط الضوء يقطع موجودات الغرفة بهيستريا البحث، عايدة في حالة يرثى لها من الذعر، أين أنت يا ابنتي؟ إلى أن تعثرت بجسدها المكوم على الأرض، واللزوجة الدموية كادت أن تطيح بهما، وجهت (ماهيتاب) كشاف الهاتف إلى حيث الجسد، لتجدا مروة راقدة في وضع ملتوٍ صعب، شاخصة البصر بذهول نهائي، ولولا أنهما سعتا شهيقها وزفيرها

المتسارعين، لظنتًا أنها ميتة منذ زمن، عايدة تولول على ما أتاح لها الضوء من مشاهدة جسد ابنتها، جرتاها للخارج جرًا وقد شعرتا أن الغرفة هي مصدر الرعب، ولكن الظلام طاغٍ على كل موجودات الشقة، أجرت (ماهيتاب) اتصالًا سريعًا بالإسعاف، بينما الأم في حال أقرب ما يكون إلى حال ابنتها في الذهول المقيم، وكل هذا والظلام يبتسم في راحة وهو يلف الموقف العجيب.

***

في نفس الوقت بغرفة «هبة»

جهاز اللابتوب مفتوح على موقع جنسي فاحش يعرض فيلمًا إباحياً لمجوعة ذكور مع أنثى وحيدة، وهبه تشاهد المقطع بتركيز وتداعب بأناملها جسدها، الجوارئق تمامًا والبيت خالٍ من الأم والأخت، الفيلم مستمر في عرض صاعق لبشر غلبوا الحيوانات والحشرات في انقضاضهم على الأنثى والتي بدت كفريسة حية لقطيع من التماسيح، كان اللابتوب موضوعًا على الفراش يحقن سمّه في شرايين «هبة» عبر عينيها، وهي واقفة أمام المرآة تتحسس نفسها وتمثل أمام سطحها المصقول بحركات فاحشة، كان انعكاسها في المرآة يبرز مفاتنها ولكن مهلًا.. مهلًا.. انظري جيدًا يا لعينة، هل الانعكاس لا يأتي بنفس حركاتك؟.. هلموا ولاحظوا الفرق الخافت بين ملامح هبة التي تقف متلوية في الغرفة وهبة التي تقف في المرآة، الأولى كانت ذائبة كالزبد في المقلاة بينما الثانية كانت تنظر بتركيز كبير للأولى وتشجعها على المزيد، بل إنها تمارس تنويمًا مغناطيسيًّا لها، كانت في حالة تامة من الشبق الذاتي غير المقرون برفيق، فقط هي وخيالها الجامح ومع كل تأوهٍ صادرٍ من الفيديو، يتبعه التواء حاد في درجة شبقها إلى أن تسارعت أنفاسها وصار لهاثها يسبق إدراكها نفسه، بل وشعرت أن روحها تغادر جسدها لتسبح هي الأخرى في سوائل الأسير الطافح بالشهوة، شعرت بثقل يعتري أنحاء جسدها فتركت موقعها أمام المرآة، وهمدت إلى الفراش تستجدي تفريغا يريحها من زخم التصورات الحارقة، وفي أوج تلك الفيضانات انتفضت بشدة... ثمة

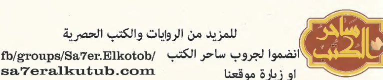
طرق عنيف على.. على.. على باب غرفتها، انساب العرق البارد بغزارة يغلفها إثرعودة روحها الجبرية قبل إتمام الانتشاء المرتقب، حل محله قبضة عاصرة لقلبها إثرهذا، قامت بعصبية وأغلقت الفيديو الفاحش، ثم... ثم انذعرت بشدة عندما تذكرت أنه لا يوجد أحد في المنزل غيرها، تُرى هل رجعت أمها الصاخبة عنوة ؟ هل هي أختها «مروة» ؟ من عساه يقرع باب غرفتها؟

اتجهت للباب ووقفت خلفه تستجمع شتات نفسها، واستعادت شخصيتها النافرة وتهيأت للصراخ في وجه صاحب تلك الطرقات المزعجة، عالجت رتاج الباب وفتحته.

لكن.. لكن.. لا أحد كان يقف أمام بابها، خرجت أكثرتتفقد ولكن البيت غارق في الصمت والظلام الخافت، سارعت إلى ردهة المنزل وإلى غرف أمها وأختها لكن لا أحد على الإطلاق.

تضاعف توترها أكثروأكثر، ثم تناهى لسمعها صوت آتٍ من غرفتها هي، آهات حميمة تضرب مسامعها بوضوح، إنه.. إنه.. صوت الفيديو الذي أغلقته من قليل تُرى هل أعاد تشغيل نفسه أم أنها لم تغلقه أصلًا أم ماذا؟؟

توجهت ببطء وتوترعائدة لغرفتها بينما تعلو الآهات كلما اقتربت من باب غرفتها الموارب، ثمة ضوء مبهر يخرج من زوايا الباب، توقفت أمامه لبرهة بينما تتعالى أصوات الشبق من خلفه ثم دفعته برفق لتجد.. لتجد... لتجد نفسها أو بمعنى أصح لترى نفسها.. عارية تمامًا تتقلب بين أجساد مجموعة من الرجال أو قل قطيع من الوحوش الضارية، كانت أشكالهم ممسوخة مشوهة، أحدهم كانت تخرج أمعاؤه من فتحة مستديرة من بطنه وآخركان يتدلى لسانه لأكثرمن طوله برأس مبطط بلا قمة، وآخرلا يحمل رأسًا من الأساس ويقبض بساعديه على ردفها وهي بينهم يضاجعونها بافتراس على أرض الغرفة، وعلى فراشها يتربع شخص بالغ البدانة أصلع عظيم الكرش يخرج من أسفله أربعة أرجل كالعنكبوت يشاهدهم عن كثب ويسيل الزبد من شدقيه وكأنما يشجعهم على المزيد، تراجعت للخلف وهي لا تصدق أنها ترى



نفسها كما لو كانت ترى فيلمًا سينمائيًا، اقتربت المضاجعة البشعة من نهايتها وهي ترى نفسها على وشك الموت بعد أن بدأ الرجال في العض والخمش والتقطيع من جسدها بأظافرهم، الدماء تنفجر من أكثر من موضع في جسدها، أما هبة نفسها فقد تصاعدت صرخة ملتاعة تريد الفرار من بين شفتيها حسرة على ما تراه في نفسها، ولكن الصرخة لم تخرج أبدًا، أو خرجت ولكنها أبدًا أبدًا بلا صوت، اندفعت تجاههم لتنقذ ما تحسبه نفسها، ولكن رأسها اصطدمت بسطح مصقول لامع منيع، رفعت كفيها لتدق هذا السطح بجنون وذعر متنامٍ، ولكن لا جدوى وكأنها تنطح في صدر الصخر الصلد، الكائنات الرجولية ما يزالون في جولة تقطيع وافتراس جسدها على مرأى ومسمع منها، بينما هي تراقب نفسها وتشعر بكل آلام هذا الجسد وتصدر صرخات ألم بلا صوت، ترى نفسها وهي تسلم الروح بينما هم مواصلون العض والتقطيع وترى بأم عينيها روحها تخرج ملتاعة من جسدها العاري، لاااااااااا، لا أريد الموت بتلك الطريقة لاااا، كانت تصرخ بلا صوت وهي تشاهد نفسها.. من داخل المرآة.

***

لم تسلم المرآة أبدًا من تلامس الشياطين مع الأنس عبر سطح المصقول، وكانوا قديمًا يقومون بأعمال السحر مستخدمين أنواع خاصة جدًّا من المرايا، كان استحضار الشيطان بالمرآة يسمى سحر الاستنزال، وفيها يظهر الشيطان عبر سطح المرايا لأشخاص بعينهم، ينزل بقلوبهم الرعب والهلع، من ثم يخطفهم إلى عالمه لفترة قد تطول وقد يبقون هناك لآخر العمر، ويظهرون لذويهم بين فترة وأخرى عبر المرايا... معلومات روحانية.

***

ترقبت في ذعر جحافل القرود الهابطة من المنحدر الصخري والدماء تغطي وجهي وصدري، بعضهم وصل إلى بالفعل وهو صغير الحجم خبيثٌ متنمرٌ وبدا على شراسة وعدوانية كبيرة وهو يترصدني بحركات متوترة، التصقت بالجدار الصخري وحاولت أن أقول شيئا من القرآن ولكن لساني وإدراكي عجز تمام عن تذكُر ولو آية بسيطة



منه، ووجدتني أرتعش وأتمتم بكلمات لا أعرفها، الليل الأرجواني يخيم على المكان بينما لاحظت اقتراب ظل كبير مني. رفعت عيني لأصطدم بقرد بحجم الفيل أو أضخم يرقبني هو الآخر بعدائية شديدة . كان مخيفًا مرهوب الجانب لا تستطيع أن تطيل النظر إليه حتى من باقي الجحافل، اقترب أكثر مني، إنه.. إنه.. إنه يحمل وجهًا قرديًا شديد البشاعة، نعم هناك فرق بين القرد والإنسان في الملامح فالقرد وجهه يبدو غبيًا صارخًا أو ضاحكًا ولكن وجه الإنسان يحمل من الجدية ما يجعلك تدرك آدميته فورًا، ولكن هذا الكائن يحمل وجهًا آدميًا دميمًا بعيون مستديرة صغيرة وجبهة عريضة جدًا وفم كبير وبلا أنف تقريبًا فقط فتحتان مسطحتان يخرج منهما ما يشبه الدخان، كان يمشي كما الآدميين معتمدًا على ساقين لحميين مشعرين ولونه الغالب هو الرمادي الضارب إلى الأخضر، اقترب أكثر مني وقرَّب وجهه العجيب ثم.. ثم.. ثم صرخ صرخة اهتزت لها الصخور وتبعثرت معها جموع القرود الأخرى فارين من عمق الصرخة وعنفوانها.. أما أنا فقد شعرت أن أحشائي انتزعت مني عنوة وتطاير شعر جسدي ورأسي تاركًا إياي عاريًا . وبتُّ خاويًا بلا حشو ولا أعصاب، مد الكائن الرمادي يده قابضًا على ساقي فوقعت أرضًا ليجرني جرًا وينطلق مسرعًا عبر مدقات في الجبل تاركًا رأسي يتخبط بما تيسر في الصخور التي تعترض الطريق. إن الكائن يسحلني بكل معنى للكلمة قبل أن يصل لما يشبه حافة بئر أو فوهة بركان مسطح ويقف.. ثم يمد رأسه فيها قبل أن يصرخ صرخة مماثلة للأولى ليرتج المكان مرة أخرى فيرفعني كخرقة بالية، ويلقيني من حالق راميًا إياي إلى أعماق أعماق البئر السحيقة.

***

دثر «معتز» الوليد النبيل ولملم أطراف دثاره بحرص شديد وانطلق خارجًا من البيت بل من منطقة (حدائق الأهرام) كلها ، إنه يشعر بالقلق حيال حمله الثمين ويعرف جيدًا أنه موكل بحمايته وتهيئة كل الظروف لخدمة حضوره إلى ذلك العالم، لقد غادر مروة تاركًا إياها لمصيرها، إنه يعرف جيدًا أن دورها قد انتهى وحان دوره هو، وأخذ يتدبر أمره وهو يسير خارجًا من المنطقة كلها، إلى أين تذهب يا «معتز»؟

إلى أين؟ إلى أين؟ ثم لمعت عيناه فجأة وهو يتذكر عشه القديم، وولى قِبلته إلى حي (المنيل) حيث تقطن عشيقته الأولى (ماهيتاب) وما إن وصل للشقة الكائنة في شارع عبد العزيز آل سعود، أخرج مفتاحًا وعالج الباب ودخل.. المنزل ساكن يبدو أن صاحبته لم تعد بعد، لماذا تشعر يا معتز بكل هذا الضعف ولماذا يعتريك الخوار؟، إنه لا يعرف ولكنه بالفعل يشعر كمن استنفدت قواه في الحدث الجلل، إنه يحتاج إلى تغذية ما، وضع المولود برفق على الفراش العريض وتركه وتوجه للمبرد، إن دبيب خطواته ضعيف جدًّا لا يقدر أن ينقلها إلا بصعوبة، فتح الثلاجة وهجم على كل ما فيها من أطعمة ومشروبات، كان لا يأكل بالمعنى المعروف ولكنه بدا وكأنه يجمع الطعام جمعًا في معدته دون تمييز، الضعف يدب في أوصاله ويهاجم في النقيض وهو يقاوم بالتهام الطعام، ولكن جفناه يتثاقلان وينغلقان رغمًا عنه، إلى أن تهاوى فاقدًا للوعي أمام باب المبرد المفتوح... يسمع في أحلامه تحذيرات شديدة، انتبه للمولود وأحسن حضانته، فأنت لست أباه كما تعتقد أيها الطيني، إنه وليد الضياء ومبعوث الحكمة والقوة، افعل ما سنقوله لك وإلا... مضى وقت ليس بالقليل إلى أن استفاق جزئيًا، مالذي يجري لك يا معتز؟ لمَ تشعر بكل هذا الإجهاد والتعب؟ سمع هسيسًا وقرقرة، بل هي مناجاة ملائكية تصدر من غرفة النوم، لابد أن (النبيل) قد صحا من نومه، أسرع للغرفة ليجد الوليد ينظر له بابتسامة جديرة بفلق قلب الجرانيت، يالك من جميل مضيء أيها الصغير، ثم انقلب يبكي، أأنت جائع يا صغيري؟ ، اقترب منه مطبطبًا في حنان، ولكن الوليد بدا على قدرٍ غير عادي من الجمال الكوني، ثم بدأ صراخٌ رفيعٌ حادٌ يؤلم الأذن، رفعه وضمه إلى صدره يهدهده كما تفعل الأمهات، فصمت ثم أدخل الوليد رأسه لما تحت إبطه، يحرك رأسه الجميل بين طيات ثياب معتز، ماذا تريد أيها الجميل النبيل؟ واصل الوليد تمرغه فيما تحت إبط معتز وهو يقرقر بنغمٍ ويصدر ضحكات تذيب أعتى المشاعر.. إلى أن وصلت الحقيقة البشعة إلى وجدان معتز، إنه يريد الرضاعة أيها المأفون، ولكني رجل ولست امرأة، كيف لي أن أرضعه، كيف لي أن أغذيه، ولاحت منه نظرة عميقة تجاه الوليد، إلى أن تغيرت ملامح

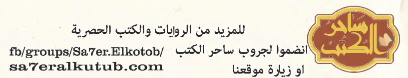


الوليد للنقيض وبانت شراسة لا يمكن أن تصدر من ملاك مثله، ثم مد يده الصغيرة الناعمة ومزق قميص معتز من تحت إبطه، فبانت تلك الحلمة الناتئة التي نبتت لمعتز إثر الطقوس، أمعقول هذا، دار عقل معتز كالرحى يطحن بعضه بعضًا، إلى أن التقم الوليد الجميل طرف الحلمة بثغره الوردي، وبدأ يرضع بشراهة وتركيز عاتٍ، لاااا، لم يدر بخلده أبدًا أنه سيصبح هو نفسه مرضعة لهذا الرضيع.

شيء ما يصرخ في أعماق «معتز» بأن هذا الوليد هو سيده ولابد من العناية به حتى لو على حساب حياته هو، أو أن حياته مرتبطة ضمنيًّا بحياة ذلك الوليد، مالذي أعدته الشياطين لك أيها التعس؟، أن تكون مجرد مرضعة لمبعوثهم؟ أن تكون خادمة؟ ليكن.. ولكن ما هذا الضعف الذي أشعر به؟ ثم ما تفسير حالة الجوع الدائم التي باتت تصاحبه، بالتأكيد أن الموضوع له علاقة بتغذية الوليد النبيل، نعم بالتأكيد كانت الأفكار تدور في مخيلته مصخوبة بأزيز وطنين في أذنه، بينما الوليد يبالغ في الامتصاص المستمر.. بلا هوادة.

***

هويت من حالق مصحوبًا بصراخي ارتطم بكل بروز وكل جدار إلى أن ارتطمت بالقاع. البئر ليست مستقيمة تمامًا بل هي تعرجات صخرية هاوية لأسفل بانزلاق مؤكد، أما القاع فهو طيني لذا استقبلني بليونة لن تحطم عظامي بل إنني ارتطمت بشيء زلق، الضوء خافت يأتي من لا مكان، جلت ببصري في أنحاء هذا البئر والجنون يعض تلافيف عقلي بلا رحمة، أين أنا؟ وما هذا الجب السحيق الذي وصلت له، أسمع أصوات صراخ وتعذيب تأتي من لا مكان أيضًا، ولكنها غالبة على الحيز الذي رُميت فيه، وغبت عن وعيي زمنًا لم أحسبه، ولكنني استيقظت فجأة وفتحت عيني وكلي أمل بأنه حلم أو كابوس مزعج وأنني الآن في غرفتي بالفندق المجاور للحرم، ولكن لا ليس حلمًا أبدًا؛ فأنا بالفعل مسجون في بئر عميق، إنني في قعر عميق لا أستطيع حسابه، ثمة رائحة عفن قوية تملأ خياشيمي، الجوع والعطش يعلنان الحرب على



جسدي، الأرض بها برك صغيرة من ماء آسن، لا.. لالا، لن أشرب طبعًا.. مستحيل أن أفعل.. هل جننتم؟

***

مرت ثلاثة أيام و(مروة) بين الحياة والموت بالعناية المركزة بمستشفى الهرم، الأطباء أعلنوا أنها تعرضت لهتك شديد إثر عملية إجهاض يدوية تعرضت لها، الأم التزمت الصمت الباكي وتابعت بلوعة حالة ابنتها، صحبتها في كل الأوقات ابنة أخيها.

(ماهيتاب) التي لم تتركها، انقطعت أخبار «هبة» ابنتها الصغرى تمامًا حتى ظنت الأم أنها هربت مع عشيقها «معتز» لكنها لن تعير للأمر انتباهًا لأنها كانت في وادي ابنتها المحببة إلى قلبها وأجّلت كل مشكلة أخرى إلى ما بعد استفاقة (مروة).

إلى أن فتحت «مروة» عينها أخيرًا واستفاقت جزئيًا ونقلها الأطباء لغرفة عادية، ولكنها لم تكن تنطق بكلمة ولا حرف ولا إيماءة بل كانت شاخصة البصر تنظر للفراغ بتركيز متواصل، وبين الحين والحين ترفع ذراعيها لأعلى كأنها تنادي على أحدهم وترجاه أن يعود، فسر الأطباء أنها في مرحلة الصدمة العصبية وربما تتعافى منها بالوقت والعلاج، استأذنت (ماهيتاب) في العودة لمنزلها على أن تعود لاحقًا للاطمئنان عليها، كانت ماهيتاب تشعر بالذنب العميق لما حدث لابنة عمتها وما تلاه من اقتران بين هذا الرجل وبينها، كانت تقدر على التصريح بأن هذا الرجل تعرفه وأنه شرٌّ مجسدٌ، ولكنها التزمت الصمت، لماذا التزمتِ الصمت يا (ماهيتاب) . هل هو خوف حقيقي؟ أم أنك كنت تتابعين المباراة بسادية التشفي من بنات عمتك اللاتي تكرهين؟ أنت تحبين «معتز» في أعماقك وتعرفين أنك لن تنجبي أبدًا بشهادة الأطباء الذين أكدوا أنك صرت عاقرًا لن تجددي نفسك أبدًا وترين في معتز خير رفيق لحياتك القادمة. كان يستحوذ على جزء من تفكيرها على الرغم منها، تزاحمت الأفكار في رأسها وهي متوجهة لبيتها في (المنيل) حيث تقطن، دلفت لمنزلها الواقع في شارع هادئ، نظرت في أرجاء المنزل، ثمة فوضى ما تجتاح المنزل وثمة شعور قوي بأنها ليست وحدها فيه، ثم تجد أمامها رجلها السابق «معتز» واقفًا ينظر لها في تحدٍّ... وجبروت.

***



الساعات تتكاثر ضدي، والجوع ينهش أمعائي، أريد أي شيء، أي شيء أخرس به هذا الصراخ المحتدم في معدتي والعطش بلغ مني مبلغ الجفاف، إلى أن وجدت نفسي أرتشف الماء العطن من البقع المنتشرة في أرجاء أرضية البئر، كان طعمه لا يطاق، مزيجٌ مالحٌ وله طعم المرار المشوب بالعفونة، ولكنني مجبر مجبر مجبر سأرتشف القليل مرة أخرى سسفسفسف، تناهى إلى أسماعي صوت تخبُّط وسقوط فرفعت ناظري لأعلى حيث فوهة البئر لأجد أشياء تسقط.. ماهذا.. إنه فخذ آدمي، بل هي ساق أنثوية مكتظة اللحم.. ثم تتابع في السقوط جذعا بلا رأس وذراعين مفرغ من الأمعاء، اتخذتُ من الجدران ساترًا كيلا تسقط هذه الأشياء على رأسي، إنها جثة آدمية مقطعة الأوصال، ثمة كلام مكتوب على لحم الجثة كما تختم الذبائح في المذبح الحكومي، بدت لي شنيعة ولكنها مألوفة، هذا الجسد أعرفه، تناهى لسمعي صوت سقوط آخر، شيء يتخبط متدحرجًا لأسفل، إلى أن سقط على قرب من وقفتي المذعورة، إنه رأس له شعر أسود طويل، الآن الجسد بالكامل ملقى أمامي، ولكن بلا أي وصلٍ بين أجزائه، لقد تخلّى الذعر عني وأصر اليأس والجنون على مجالستي، اقتربت من الرأس وبطرف إصبعي قلبتها لأرى الوجه، انتابني قشعريرة وأنا أتأمل الوجه المطبوع بصرخة صامتة على سحنته، لا.. لا... لا... إنها هي.. ننننعم هي.. إنها زوجتي.. (رانيا)

***

امتقع وجهي وصارت ضربات قلبي تتخبط فما بينها، إنه أنت يا «معتز» يا أُس البلايا التي حاقت بنا، نظرت له كمن ينظر لكأس السم قبل شربه، لا مجال هنا لكي أبدي استياء أوكراهية، انتابتني مشاعر متضاربة، لقد كنت أفكر به قبل دقائق، أما الآن فأنا في حيز واحد معه، أنظر له ومن الممكن أن أتحسسه وأحضنه، ولكن شيئًا ينفرني منه ويجلعني اكرهه بشدة، ولكن مهلًا، أنا أدرى الناس به وأعرف ما الذي قد يفعله بي، أنا الآن أقف أمام قدري الأسود، وسيفي الذي سيجز رقبتي، اقترب مني في غواية فمسّ برائحته العجيبة خياشيمي وأعاد لي ذكرى أيامي المشؤومة معه، دار

حولي وأنا واقفة كالصنم، ثم التصق بي من الخلف وعقد ذراعيه أسفل صدري، قرب فمه من أذني، وقال بهمس وفحيح:

- وحشتيني

-.......

- محتاجلك أوي..

-.....

لمست نبرة جديدة لم آلفها في أسلوبه القديم والمشوب بالكبرياء والأذى، التمست حنانًا وشوقًا لأيامي الخوالي معه، إن المرأة كائن معقد فوق ما يتصوره عقل أي رجل، لقد اشتقت لقسوته وجبروته وقوته، التي كنت أحتمي بها من هواجس نفسي، أما الآن فهو يلاطفني بطريقي بدت منفرة لي، استجمعت مقاومة وغضب مكتوم وحاولت الفكاك من احتضانه الجبري، فزاد من ضغط جسده على جسدي لاغيًا كل أثر لمقاومتي، وعاود الهمس ناشرًا رائحته العجيبة.

- هنعيش احنا التلاتة مع بعض.

ثلاثة؟ ما الذي يقصده هذا الرجل؟ من الثالث؟ ولماذا يتكلم بتلك النعومة المسمومة

- انتي مابتخلفيش وكان نفسك في الولد وانا حققتلك أمنيتك وجبتلك.. أجمل ولد.

قالها بتهيدة حارة أحرقت صبري فنفضت ذراعه من حولي وابتعدت عنه ووقفت قبالته يشوبني الجنون والغضب:

-انت تبعد عني خالص مش عاوزة أشوفك تاني.

لو كنتم تعرفون التحول كما رأيته أنا ستفهمون ما سأقوله حالًا، لقد تحولت ملامحه لعبوس شيطاني وتلاعبت على شفتيه ارتعاشة غضب عارمة واسودت عيناه مشوبة بالأحمر الناري وهو يقترب مني ببطء ورفع يده ليصفعني بضراوة تلقيني في الجهة الأخرى من ردهة المنزل، ثم اقترب ثانية وقد تحول لونه للرمادي ليرفع ساقه



ويضعها على رقبتي، الدموع تندفع من عيني شلالات ودرجة مقاومتي صفر والصفير في أذني مثل الطبل المدوي ونزيف أنفي لا يتوقف، قبل أن يسحبني لأعلى ويجبرني على الوقوف ورفع يده ليصفعني مرة أخرى فأغمضت عيني استعدادًا لتلقي الصفعة التالية ثم..

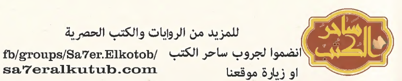
قطع الموقف صوت بكاء لطيف لطفل، كان صوت البكاء أشبه بأجراس الملائكة يمزق حنايا قلبي وله من الرجع والصدى ما يؤثر على الموقف ككل، توقفت يده في الهواء فتحت عيني لأي تبدل واضح وذعر عام يكسو ملامحه قبل أن يتركني مهرولًا لغرفة نومي.. أنا.

* * *

كيف.. ولماذا.. ومن أتى بجثة (رانيا) إلى هنا؟ طار صوابي تمامًا وأنا أرمق الرأس المقطوع لزوجتي، كنت أجلس القرفصاء أنظر لها ثم تطلعت إلى ساقيها اللحيمين فوجدت ما يشبه الكلام المكتوب عليها، كم مرعليّ وأنا في هذا البئر؟ لم يحتمل عقلي إجراء أي حسابات، أنا أشعر بالجوووووع، يوجد شيء يتخلى عني، شيء يخص آدميتي، أنا الآن لا أفكر إلا في إسكات معدتي التي تصرخ مطالبة بالطعام.

أعدت النظر إلى اللحم الملقى أمامي، لابد أن أسياد المكان أشفقوا على حالي، وألقوا لي بالطعام، نعم لابد أنه كذلك، لا لا لا لن آكل لحم زوجتي.. لا لا..

ولكني جائع جدًا ولا سبيل للفرار ولسوف أموت هنا والعالم الخارجي لا يدري عني شيئًا، سيقولون مفقودًا، لابد أن آكل، معتز صديقي هرب بجلده من الأحكام، من قتل ابنته، أنا؟ لا لا لا ليس أنا من قتلها، إنه الحيوان عاشور قتلها بعد اغتبصها مرارًا، لا لا أنا من قتلها، لا لم أقتلها أنا فقط.. فقط فعلت معها فقط.. فقط... أنا جائع جدًا جدًا، أتوق لصحن لحم بالبصل، أو دجاجة محمرة في السمن، لا لا لم أكن وغدًا ولا خائنًا، زوجته من فتحت لي ساقيها بمجرد ما اقتربت منها، لا... لم تكن غلطتي أنا يا معتز، لكني كنت أكرهك يا معتز وأحسدك على الثراء والزوجة، أنا جائع جدًا.. نعم نعم أنا من دبرت لخطف البنت وابتزازك، هل كانت أمها على علم بما



يجري؟، شيء داخلي يقول إنها كانت على علم بل وتشجعني أيضًا، لكن هذا مستحيل أن تقبل أي أم هذا، لابد أنها تغلبت على أحزانها بإلقاء نفسها بأحضاني، أين انا..؟ آه أنا في السعودية أقوم بالعمرة، ولكني لم أرَ الكعبة مطلقًا بل كانت تنتابني أحلام جنسية تطاردني كما يطارد الفهد الفريسة، لم أستطع مقاومة الغواية، لعل الله لا يقبل، إنه بالتأكيد لا يقبل.. أنا جائع جدًا، تُرى ما هو مصيري؟، ثم هذه القرود، إنها ليست قرودًا، إنها بشر مثلي ومثلك، ولكنها تحولت لقرود، أنا جائع جدًّا.. هكذا تضاربت الأفكاروالذكريات في عقل (محسن الغندور) وهو في الهوة السحيقة وهكذا مر الوقت ساعات من الجنون والجوع.. إلى أن.. إلى أن.. إلى أن أمسك بذراع (رانيا) المبتور وعض عليه راغبًا في إخراس جوعه القاتل، ولكن بمجرد أن نهش اللحم سمع صرخة مربعة ارتجت لها جدران البئر، من أين أتت الصرخة يا (محسن)؟ توقف عن المضغ وجال ببصره الكليل إلى أن سمع صرخة أخرى صادرة من.. رأس رانيا المقطوع.

***

ما الذي جعل «معتز» يتخلى عن صفعي وركلي؟، لقد هرع للداخل لا يلوي على شيء وكأن ذلك البكاء أمر لا يرد، لقد توقف البكاء بمجرد دخول معتز للغرفة. لقد شعرت بأن أسناني طارت من تجويف فمي وأبصرت الدم النازف من أنفي بهلع، ولكن الفضول جعلني أتبعه بعد برهة، توقفت أمام باب غرفتي أخشى من الولوج، ولكن كفّي كان له إرادة أخرى جعلته يدفع الباب.. ماهذا ؟ لا.. أحملق في مشهد من أعجب ما رأيت في حياتي، وبداي تمسحان الدم النازف من أنفي بجنون، أبصرت «معتز» منثنيا على نفسه وسط الفراش رافعًا ذراعه الأيسر لما وراء رأسه وثانيًا ركبتيه وسط الفراش ويلتصق بإبطه طفلٌ لا يتعدى العام، كان الطفل يرضع.. نعم كان يرضع، من تحت إبط «معتز» ويهتز بشراهة كبيرة بينما معتز مستكين كأم حنون تنتظر في صبر أن يفرغ طفلها من رضاعته، تجمدت في مكاني كتمثال من خطيئة، لا لا . لابد أنني أحلم، هذه أشياء تحدث في الأحلام فقط، أن أرى رجلًا يرضع طفلًا من تحت إبطه، كان «معتز» متجمدًا كأنه لا يستطيع الحراك إلا بإذن الطفل نفسه، المشهد فوق

احتمالي، ولكن شيئًا ما أجبرني على الاستكانة وبلغت مني الهيبة مبلغها وكأنني أرى معجزة أو ما شابه من تلك المواقف، استمر الوضع لدقائق قبل أن يتخلى الطفل عن «معتز» وينزلق عنه تاركًا الرجل في إعياء شديدة جدًا، بل وباللعجب كان جدير بالشفقة أيضًا، وحانت منه -معتز- التفاتة إلى حيث أقف أنا، ولاح ضعف شديد في عينيه، قبل أن ينفجر باكيًا ومع بكائه اهتزت الموجودات أمام عيني، وبلغ مني الرعب مبلغًا كبيرًا خصوصًا عندما لاحظت ثمة تجسُّد دخاني لوجه أو قناع لوجه لم أستطع التحديد، كان يجوب الغرفة بنعومة ويقترب.. مني أنا..

***

انهارت (عايده الغول) باكية على حال ابنتها عندما أخبرها الأطباء أنها تعاني من شللٍ رباعيٍّ أفقدها القدرة على النطق والحركة، وعزا الأطباء أن حالتها قد تكون ناتجة عن صدمة عصبية لم تحتملها لما حاق بها من عملية الإجهاض الجبري الذي تعرضت له كما قالت الأم لهم، بل وصل الأمر إلى تهتك شديد في رحمها، لدرجة أن الطبيب أصر على تسجيل الموضوع في محضر رسمي لما يشوب الظواهر الناتجة من عنف شديد، لم تبدُ على (عايده) الذاهلة أنها تدرك ما يقوله الأطباء فقط هي تعرف أن ابنتها الحبيبة والقريبة لقلبها باتت عاجزة، وتضخمت الصورة أمامها متورمة قبيحة تنبئ بأن الغالية سوف تموت، أسقط في يدها ولم تحر جوابًا ترد به على تساؤلات نفسها، وأجرت اتصالًا دامعًا يشوبه الصراخ مع الأب طليقها – اللواء السابق (مسعد الصفواني) تخبره فيها بالمصيبة المزدوجة، بنت مشلولة وأخرى هاربة مع زوج الأولى، وشهد المستشفى أمام غرفة العناية المركزة احتدامًا غير متجانس بين سيدة ذات أصول شعبية فحة ساحت زينتها بسبب دموعها الغزيرة، وبين رجل تظهر عليه مخايل السلطة والشموخ..

- آدي آخرة جربك ورا النسوان يا ابن الغسالة.

- اخرسي يابنت الحرام يا تاجرة الحشيش.

- تاجرة الحشيش قعدت على بناتها يا بأف لكن أنت رميتهم.

- رميتهم من قرفي منك ومن أهلك يا أوساخ يا عزر.

كانت المعركة حامية الوطيس بين شراسة (عايده الغول) النابعة من يأسها وشعورها بالضياع الكامل وبين وطليقها اللواء (مسعد الصفواني) المتحفظ المعتز بسلطانه وجبروته، معركة حامية لدرجة تدخل الطبيب المعالج بينهما بعد أن هرعت إليه الممرضة لتخبره بما حدث.

- يافندم ممكن تهدوا كده وتصلوا على النبي.

ثم وجّه كلامه للأب الثائر قائلًا:

- إحنا لازم نعمل محضر بالواقعة يا افندم.

نظر له الأب بصرامة قائلًا:

- مافيش داعي أنا هتصرف.

- لكن...

- مافيش لكن... قلتلك أنا هتصرف.

لم يكن الأب لين العريكة باهت الحضور كما كانت تقول عنه طليقته بل رجلًا لا يسهل التعامل معه من الأساس، بجبهته الضيقة وشعره المنحول للوراء وعينيه الذئبيتين الطافحتين بقوة الشكيمة، وكان سر انفصاله عن زوجته الأولى هو أنهم كانوا أصحاب فضل عليه بل وكانت أمه بالفعل تعمل في خدمة البيوت طلبًا لرزق حلال تربي به أبناءها بعدما تركهم الأب راحلًا، جاهدت إلى أن دخل ابنها الكلية الحربية وصار ضابطًا مرموقًا وعرفانًا منه بالجميل تزوج من كبرى بنات المعلم (زايد الغول) تاجر الحشيش الشهير في الجيارة، أنجب منها بنتين وكانت الحياة تسير بزواجه كما تسير حافلة الأرياف في الطرق الترابية، بين جهل مطبق وطموح جامح إلى أن حدث الطلاق المدوي بينهما، وترك لهم كل شيء بعد زواج دام لأكثر من خمس عشرة سنة..

- عايدة .. أنا عاوزك تقوليلي كل حاجة بالتفصيل أنا لازم أجيبه راكع، أنا لازم أقتله..

نظرت له عايدة في تحدٍّ ثم تذكرت احتياجها الملحّ له فداست على كبريائها وحكت له ما حدث إلى أن وصلت لنقطة استضافتها لخبير الأبراج والروحانيات (تامرع) وأن



الأحداث تصاعدت منذ زيارته بيتهم وخروجه منها مطرودًا بسبب أنها دخلت عليهما ووجدت ابنتها عارية أمامه بل إنه كان يصورها بالهاتف أيضًا.

- انتي تعرفي عنوانه؟

- لا أعرف بس إنه بيشتغل في قناه (مزيكا) سبت واتنين واربع.

-......

يا نهاري الأسود..

***

مع كل قضمة صارت الرأس تصرخ بجنون وترغي وتزبد، لقد راح مني الانذعار وبت أستمتع بقضمات اللحم وطراوته بل إنني عدلت من وضع الرأس لكي تراني وأنا أزدرد لحمها وأبلعه بعد مضغه. إن اللحم الآدمي له مذاق خاص فلا هو صريح كلحم البقر ولا مباشر كالأسماك . بل هو نسيج أكثر رقة يذوب سريعًا بين أسنانك، كما أنه يعطيك شعورًا بأنه ناضج جاهز للقضم لا يحتاج لنار أو طهي، خصوصًا وأنت تأكل من لحم شخص تعرفه، كانت رأس الجثة ترمقني في جنون مطبق وتصرخ بحشرجة عالية، ولكنني جائع أيتها العاهرة ولا سبيل لاستمراري على قيد الحياة سوى أكل لحمك الرخيص يا زانية. هكذا كان يفكر محسن وهو يلتهم طعامه بشراهة وجنون، ما هذا.. هه .. ما هذا؟؟ لقد اختفت جدران البئر الزلقة.. هل ذابت كما يذوب لحم الزانية في معدتي؟ ماذا حل بالبئر؟ لقد صار المكان مألوفًا تمامًا لي.. أليس هذا المكان هو شقتي في مصر.. نعم هو إنه هو.. أنا الآن في ردهة منزل الزوجية القائم بشارع فيصل.. ما الذي آكله.. إنه.. إنه لحم رانيا زوجتي.. لا بأس لا بأس.. مازلت جائعًا لم أشبع بعد.. أما باقي التفاصيل سأعرفها بعد انتهائي من وجبتي.. ولكن ولكن أنا فعلًا في بيتي في مصر.. ألم أكن في السعودية قبل قليل، ثم اختطفتني القرود ورموني في البئر.. هل كنت أحلم أم ماذا..؟ ولكني جائع جائع أريد أن أنتهي من وجبتي الآن.

نعم لقد وجد (محسن الغندور) نفسه في بيته في مصر... كيف هذا.. الحقيقة لا

نعلم.. الذي أعرفه أن الجيران دخلوا عليه عنوة بعد كسر الباب وانبعاث رائحة كريهة من الشقة ليجدوا منظرًا بشعًا للغاية

((((الزوج ياكل لحم زوجته بعد اكتشافه خيانتها))))

(اهتزت (الجيزة) بالزوج (محسن غ) آكل لحوم البشر والذي قطع أوصال زوجته وبدأ في أكلها بعد مرحلة التعفن مما جذب الجيران لتقصي الحقيقة، ثم جاءت الصدمة الكبرى عندما وجدوه يأكل من لحم الجثة الآخذة في التحلل، مما هو جدير بالذكر أن الزوج كان في عمرة للأراضي المقدسة قبلها بأيام قليلة وعاد ليكتشف خيانة زوجته.. تم إيداعه تحت حراسة مشددة في مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية وجاري تحليل كل مكونات القضية التي أثارت الرأي العام وأصبحت حديث الصحف والسوشيال ميديا).

- أنا مش مجنون أنا كنت جعان.
- أنا كنت محبوس في بير في السعودية.
- القرود اللي خطفتني من المدينة المنورة أنا رُحت بس ماشوفتش الكعبة.

هكذا كان يردد(محسن) بلا كلل أنه لم يقتل زوجته بل وجدها ممزقة وهو فقط قام بأكلها لأنه كان جائعًا، لأنه كان أسيرًا محبوسًا في قعر البئر. لأن القرود هم من فعلوا ذلك، كان يردد بلا كلل حكايته وهو مكبل في الفراش بأشرطة الحزام الضاغط على ساقيه وبطنه وصدره ومكبلًا بشكل محكم في السرير هناك في مستشفى الخانكة للأمراض العقلية.

. ترى هل هي الأقدار فعلًا أم أنه عبث الشياطين.. وتخطيطهم؟

* * *

كان التجسد شبه واضح، لرجل أو هلام رجل يطير بنعومة في الهواء، ويقترب من الطفل بكل شوق وحب، لقد كان الطيف رائقًا كالملائكة نفسها، ومذيبًا في نفسي أي حقدٍ أو غضبٍ على «معتز» بل وجدتني شفوقة به رحيمة عليه، وتعلق قلبي بالطفل تعلُّقًا غريبًا لم أختبره من قبل، هل هي الأمومة التي لن أعرفها أبدًا، و.. و.. ولكنه ليس



ابني.. ولكن جماله الطاغي يغري أي أنثى بأن تتخلى عن كل شيء في مقابل حيازته، والأمومة ليست بالبيولوجيا ولكن بالحنان والاحتياج العميق لكفالة شيء ناعم رائق شديد الجاذبية مثل هذا الطفل البريء.. الأفكار تدور في رأسي وأنا أتابع هذا الطيف الدخاني اللطيف يناغي الطفل ويهدهده، وكما ظهر فجأة اختفى فجأة فاقتربت من «معتز» وكان جسده يهتز بفعل النهنهة السابقة وربت على كتفه معلنة عن تضامني النهائي معه، لقد شعرت بأننا ننتمي لذات الكوكب الضائع أنا وهو والطفل، ثم اقتربت من الطفل، كان غافيًا على بطنه يقرقر كما القطيطة الناعمة، ياله من ملاك جميل سقط سهوًا من السماوات العلا، لن ترى (ماهيتاب) أجمل ولا أرق ولا أحلى من ذلك الطفل، انفتحت في ذاتي طاقة انتماء مفاجئ وسمعت أفكاري تخبرني بأنني أمام معجزة وطفل له شأن العمالقة، هو طفل بلا أم، ويبحث عن واحدة.. هي أنا.

***

اليوم ١٨ يناير ٢٠١٣

اليوم هو السبت موعد أولى حلقاتي الأسبوعية، يا إلهي ذهني مشوش وبات التركيز في إعداد الحلقة أمرًا فعلًا عسيرًا، الوقت يداهمني بغدر، وأنا مازلت في شقتي أدور حول نفسي وأستقي الأفكار، ولكنها تطير مبتعدة عني، إن أحداث الأيام الفائتة لم تكن سهلة، وعلى عجالة قمت بتحضير موضوع عن (الحسد والأبراج)، نعم موضوع سهل وكل الناس عمومًا تملك (بارانويا الحسد وفوبيا العين) التي تصيبك في مقتل، أعتقد أن هذا الموضوع سوف يرفع المشاهدات ويرضي أصحاب القناة من حيث إجراء الاتصالات والرسائل ذات الخط الساخن والتي تمثل استدرارًا حقيرًا لجيوب المشاهدين، وخصوصًا أنهم حانقون دومًا على اسلوبي لانني اتعامل بتلقائية واهتمام عميق بمشاكل المتصلين، قمت على عجل وتوضأت لأصلي العشاء، مازال حرماني من سماع القرآن ساريًا حتى الآن وباءت كل محاولاتي بالفشل في استرجاع قدرتي على سماعه، كذلك الأذان وكل ما له صلة بالعبادات، لكم هو مفزع أن تُحرم من عبادتك،

والتي هي متاحة ومشمولة بالتنفيذ من الجميع، نعم أعرف الآن أنني (مرصود) وأن الشياطين تتربص، بل وتطلبني لأمر لا أعرفه، لكن هذا لم يزعزع تمسكي بالعبادة فأنا لست غبيًا أو صيدًا سهلًا حتى ولو للشيطان نفسه لأن هذا باختصار شديد هو الهلاك، كما قال القدماء لن أكسب لا دنيا ولا آخرة، والأمر هنا ليس مرتبطًا بقوة انتمائك، ولكنه مرهون بذكائك في الابتعاد عن المهلكات التي سطرها الله في كتابه، إنني أفكر جديًا في الاستغناء عن أبحاث الروحانيات وكفاني ما جرى، لابد أن من يمارس على هذا الضغط يريد بي الانتحار أو النزوح للكفر والضياع أو لعله هدفٌ لعينٌ آخر لا أعرفه، لأن استجابتي ليست رفاهية سأحصل علها، وأنها ستكون تكليف بشع لا تفاهم فيه ولا راحة ولا رحمة، وهذا ينبع من شيء مهم جدًّا، أن تستحضر الشياطين شيئًا وأن تطلبك الشياطين لهو شيء آخر تمامًا، وأنا لست غرًا ساذجًا أو لين العظام حتى أخدع بسهولة، صحيح أنني متورط، ولكن أعرف جليًّا أن لكل شيء آخِر ومتوقف على مدى صلابتي أمام هذه القوى، قد أسمح لنفسي ببعض الانذعار والقلق والفرع، ولكني أبدًا لن أتخلى عن تمسكي بعبادتي، وإنني متشبث بها في قلبي، بل إن صلواتي انتظمت، وبات التسبيح في لساني دائم، أهمهم دائمًا بجملة (ربي إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)، كان الأمل في رفع هذا البلاء عني كبيرًا، لكن أيضًا تجتاحني موجة فزع رهيبة كلما لمحت حركة غامضة، لقد باتت رنة الجرس تفزعني وتجعلني أقفز في مكاني من شدة الهلع، لقد أسقطت تمامًا من حساباتي تجربة التحضير للشيخ علي خادم سورة الجن الصوفي، وأرجأت تفعيل ما طلبه مني لأجل غير مسمى، تبًا لكسلي وتباطؤي العقيم، لملمت أوراقي على عجل ودسستها في حقيبتي الجلدية والتي أستخدمها كدولاب أضع فيه كل احتياجاتي من أقلام وورق وسجائر وقميص نظيف مكوي لزوم الظهور أمام الكاميرات، خرجت متوجهًا للمدينة على الساعة العاشرة، شوارع القاهرة يهبط عليها ستار الشتاء الوليد والنزاعات السياسية التي تسبب فها الإعلام، هي التي أجبرت معظم الناس على الجلوس في المنزل ومتابعة برامج التوك شو المسمومة من هنا وهناك، نزلت لمحطة مترو محمد



نجيب واستقللت المترو المتجه للجيزة ونزلت لشارع الهرم لأستقل الحافلة المتوجهة إلى طريق مدينة السادس من أكتوبر، وفي الطريق اكتشفت أنني نسيت هاتفي النقال في المنزل، اعتراني التوتر الكبير إثر افتقادي للهاتف وشعرت بوحدة مفاجئة، غريب أمر ذلك الاختراع إذ كيف الناس كانوا يعيشون من غيره ويعتمدون على الهاتف الأرضي في حياتهم، سر توتري من نسيانه هو أنني بصفة دائمة أسمع الموسيقى من خلال سماعاته الموصولة، والتي تُنعم عليّ بهدوء الأعصاب وتطوي زمن الطريق الذي يتعدى الساعة والنصف في انتقالي إلى مدينة الإنتاج الإعلامي من وسط البلد، أغلقت عيني وفتحت نافذة الحافلة قليلًا لأستمتع بدفقة الليل البارد على رأسي، أحب البرد بلا تحفُّظ وأستشعر به دفئًا داخليًّا عجيبًا، ثم رحت في سبات عميق لا أعلم كيف جاء إلى أن استفقت على هزة عنيفة، فوجدت أن الحافلة بلا ركاب تمامًا بل ومظلمة وكأن السائق يهيء لي أمر النوم، تفحصت الطريق لأعرف أين أنا الآن فوجدت صحراء مترامية الأطراف تحف جانبي الطريق، بينما الحافلة تنهب الهواء في سرعة مزعجة ترتج لها جدارن الحافلة، كلما حاولت القيام كان السائق يزيد من سرعته الجنونية فأرتمي على مقعدي مرة أخرى، رفعت عقيرتي بأن يخفف من تلك السرعة الجنونية، ولكن ارتجاج السيارة وزجرجة الأرض حالت دون وصول صوتي، فقمت من فوري أتأرجح بين المقاعد الخاوية، وما إن وصلت لمقعد السائق والذي كان منفصلًا عن باقي جسم الحافلة وهبط قليلًا لأسفل لأجد.. لأجد.. لأجد طفلًا لا يتعدى الثامنة أو التاسعة هو من يقود تلك الحافلة، كان الطفل يجلس مقتربًا من حافة المقعد يكاد يكون واقفًا حتى تطول ذراعاه الصغيرتان طرفي طارة القيادة، بينما يكبس بقدمه اليسرى بإصرارٍ عاتٍ على دواسة الوقود، صوت المحرك يزأر عاليًا باعتراض على هذا الضغط المتزايد، والرمال تتناثر كموجة غاضبة من أثر السرعة القصوى التي يقود بها الصبي، نظرت للزجاج الأمامي والذي يعكس صورة خافتة لوجهه لأجد ما يشبه وجه رجل عجوز له شعر أبيض وحاجبان من نفس اللون، ولكن ملامح وجهه يبتلعها الظلام الداخلي للحافلة اللهم إلا أضواء التابلوه الخافتة.

صرخت فيه وأنا بعد أتخبط من هول السرعة:

- شيل رجلك من على دواسة البنزين يا ولد.. خفف السرعة يا ابني ،، فين السواق؟

ليلوي الطفل عنقه ناظرًا إليّ بتركيز متخليًا عن متابعه الطريق الوعر..

يا إلهي الرحيم.. لا.. السيارة مازالت مندفعة بزخم عاتٍ بينما الصبي ينظرلي لاويًا عنقه قبالتي، بوجه أقل ما يقال عنه أنه عجيب وبعين عوراء تنزمنها لزوجة رقراقة من الجهة اليسرى، أما اليمين فكانت محدقة في وجهي بمقت وكراهية لم أجد لهما مثيلًا.

انتابني ذعر أكبر :فالصبي لا يحمل شكلًا طبيعيًا أصلًا، ناهيك عن قيادته الجنونية للحافلة والآن هو ينظر إليّ أنا دون الطريق.

- وقف الأوتوبيس حالاااااااا..

هكذا صرخت في الصبي العجيب فزاد أكثر من كبسه لدواسة الوقود، نظرت للأمام فوجدت سديمًا أسود ونجومًا وهاوية تقترب، صرخت فيه بأن ينتبه، لكن المصيريات محتومًا، إن الحافلة تقترب من جرف مفضي لهاوية سحيقة، لاااااااا، السيارة تندفع بوزنها وبي وبالصبي إلى القعر الحالك السوداء..

لاااااااااااا

.....

يا أستاذ يا أستاذ .. اصحى يا أستاذ..

انتفضت في مكاني وفتحت عينيّ على وجه شاب يمضغ العلكة ويمسك في يده أوراقًا نقدية مطوية، نظرت حولي بذعر لأكتشف أنني مازلت في الحافلة المتجهة للمدينة، فقمت، ولكن المكان كله مضاء، يا إلهي لقد كنت أحلم، الحمد لله الحمد لله..

نظرت للشاب الذي كان يبادلني بنظرات شك واشترك معه بعض الركاب المندهشين، من الواضح أن صرخاتي في الحلم كان لها صدى في الواقع أزعج الركاب.



- هي المدينة قربت؟

- المحطة الجاية.

- نزلني عند الفندق لو سمحت.

فرفع الشاب عقيرته للسائق:

- معاك الموفينبييييك يا عماد.

فقمت ململمًا حقيبتي واتجهت لباب الحافلة التي توقفت أمام فندق موفنبيك المجاور للمدينة ولم يفُتني أن ألقي نظرة قلقة على السائق الذي نظر لي بفتور، شخص في الأربعين وليس في الثامنة كما كان في... الحلم.

وقفت أسترجع أنفاسي بعد نزولي من الباص، كان لابد من عبور الطريق لكني توقفت لبرهة أستجمع فيها أنفاسي، ما هذا الحلم الرهيب؟ ومن هذا الصبي الأعور قائد السيارة؟، لقد باتت الكوابيس تزورني هكذا بلا مقدمات، وكلما أغمضت عينيّ قليلًا، الهواء بارد يحرك شعر رأسي بعنفٍ في تلك المنطقة الساكنة، وقبل أن أعبر الطريق سمعت صفيرًا أو أزيزًا من ورائي لا لم أسمع بالضبط، ولكني شعرت بهذا الصفير أو هذه المناجاة كان شخصٌ ما ينادي عليك بنغمة ومتأكدًا من استجابتك له، نظرت بتوتر كبير لما وراء ظهري لأجد.. لأجد.. لأجد رجلًا أو كيانًا نحيفًا طويلًا.. طويلًا.. طويلًا يصل طوله لستة أمتار على أقل تقدير يقف في بقعة مظلمة من الصحراء الواقعة يمين الطريق، يتحرك ببطء غير ملحوظ وكأنه يتحرك بطريقة التصوير البطيء ذراعاه مفرودتان كأنه يرقص، بينما يحيط برأسه الضخم مارج من لهب متراقص بين البرتقالي والأحمر والأزرق، لم يتح لي الذهن أن أتبين ملامحه، ولكن شيئًا ما في قلبي يقول لي إنه ينظر لي أنا.. نعم لي أنا.. أنا.. فقط..

***

توقفت سيارة الإسعاف الأنيقة أمام باب الفيلا وخرج منها أربعة رجال يحملون سريرًا طبيًّا مجهزًا ترقد عليه «مروة» وتعاونوا فيما بينهم على نقلها للداخل بنما تبعتها أمها المولولة على شللها، واستقرت في شقتها بعدما أزاح الرجال سريرها الأصلي



ليحل محله سريرها الطبي، لقد تبدل حال «عايدة» من امرأة ذات سطوة لسيدة مذعورة دامعة حزينة على ابنتها الأثيرة إلى قلبها، دخل اللواء (مسعد) للمكان ونظر لها بحزم، قبل أن ينقل نظره لابنته الغارقة في الغيبوبة وتابع عمل الممرضين والطبيب في توصيل الأقطاب والمحاليل لجسدها، لقد قرر أن ينقلها للمنزل ويتابعها الطبيب الذي قال إن آثار الصدمة زالت تقريبًا وأن حالتها مستقرة، وأن هذه الغيبوبة نفسية، ولا تحتاج إلا للعقاقير الطبية ومن بعدها بعض جلسات العلاج الطبيعي، وهو أمر ممكن في المنزل بعيدًا عن أعين المتسائلين والصحافة، تركتهم «عايدة» متوجهة لغرفة ابنتها «هبة» فوجدت أن دولاب الملابس لم يُمس وأن جهاز اللابتوب مُلقى على الفراش بل إن هاتفها نفسه موجود بجوار الفراش، إذًا البنت لم تهرب كما ظنت، ولكن أين هي تلك الملعونة؟ تحركت خارجة من الغرفة لتجد طليقها أمامها بقامته المتصلبة ونظرته الذئبية.

- يوووه خضتني يا (مسعد).

قالتها تلقائيًّا بارتباك مفعم بذكريات قديمة، فابتسم الرجل لأول مرة بشكل خافت وهو يسأل عن «هبة».

- كل حاجتها موجودة، الظاهر لما عرفت إننا جايين استخبت هنا ولا هنا.. الوسخة.

فرفع الرجل هاتفه وأجرى اتصالًا برجاله الواقفين أمام الفيلا بأن ينتهوا جيدًا لئلا تخرج أمامهم البنت هاربة واستدعى اثنين منهم ليقوما بتفتيش شقق الفيلا الأربع، ولكنهم عادوا خاويي الوفاض، لا أثر (لهبة) في الفيلا كلها.. أين ذهبت البنت..؟

خرج لصالة الشقة الفخمة متأملًا المكان وتوقف طويلًا أمام صورته الوقورة وبجانبها صور أخرى لمطلقته وبناته كما الغواني، هو من اقتنى قطعة الأرض تلك وبناها وتركها لطليقته وبناته مكتفيًا برصدهن من بعيد وبشكلٍ متقطع؛ فالرجل بالفعل مشغول في طموحه ومهام منصبه الحساس، ولم يكن يتوقع أن تصل الأمور لتلك الحال، كان يعرف بحقيقة نشاط طليقته في ترويج البودرة، ولكنه التزم الصمت حيال ذلك، حتى لا تتلوث سمعته هو على أساس تلك الصلة القديمة كما أن تجارة



الأم تدر أرباحًا تعفيه من إنهاك الإنفاق عليهن، لم يكن متقاعدًا كما أوعز لهم، بل كان يعمل في منصب حساس جدًّا يقتدي الإخفاء.

***

هل تعرفون أن يقشعر بدنك بالكامل ويعتريه الرفض النهائي لما تراه، هكذا شعرت وأنا أرمق ذلك الكيان وتأكدت أن فيه من الظلام ما يكفي لتغطية نفوس البشر جميعًا، شيء ما في قلبي يحدثني بأن هذا هو الهلاك العظيم، أو المصير الأسود متجسدًا في ذلك العملاق النحيف ذي الرأس الكبير المتورم، بل تداعى إلى ذهني أن هذا ربما يكون الشيطان نفسه بما له من هالة وحضور يمحي به اطمئنانك تمامًا ويسحق البقية الباقية من اتزانك، أنتم لا تعرفون معنى مقابلة مثل تلك الكيانات، إنكم فقط تستمعتون بالقراءة أما التجربة نفسها فشيء آخر، ومع أنه يلوح من بعيد وليس بالقرب منّي، وخصوصًا أنني أيضًا محروم من سماع القرآن تمامًا.. شيءٌ يقول لي إن الذروة قد حانت وأن أوان التدبر والهدوء قد ولّى للأبد، تسمرت في مكاني أنظر للكيان وشراييني تتلف الواحد تلو الآخر في تتابُع احتراق المصابيح الكهربية في الممرات، أدركت في يأس أن نفسي الآن مهيأة تمامًا لاستعمار الظلام وبأن وَجَب عليّ الانتحار وَبخْع النفس بكل رضا، انداحت الدموع تقهر الوعي المتهالك لديّ وانتابني إحساس الغريق الداني من الاختناق النهائي، كنت أنظر للشر بعينه أو للشؤم الخام الذي يمثّل كل عواثر الحظ وقعر اليأس متمثلًا في ذلك الكيان النحيف، جسدي يرفض طاعة أوامري في استئناف الطريق للعمل، بل إنني اعتليت الرصيف متوجهًا لهذا الظلامي القابع على مبعدة منّي، ووسط كل هذه الانفعالات حانت منّي مجرد التفاتة للطريق ورائي أستجدي فيها أي تلامس بشري ينقذني.. وقد كان.

وجدت بعض البشر يقتربون منّي قاطعين الطريق بالعرض، يهرولون إلى موقعي أنا بشيء من الإصرار وكأنهم يسعون لاقتناصي، لاحت مني التفاتة أخيرة للوراء كما الغزال الذي ينتظر وصول الفهد إليه، فوجدت الكائن يقترب هو أيضا وكأنه صورة لهم منعكسة في مرآة جهنم، إنهم أتباع (أبو إسماعيل) يعبرون الطريق قاصدين

شخصي الذاهل، من الواضح أنهم اكتشفوا الثغرة التي كان يعبر منها الإعلاميون الآخرون للمدينة، عبر الفندق المجاور، وأنهم قاموا بسدها وتهديد إدارة الفندق نفسه لو استعملها ضدهم مرة أخرى، لكن وياللعجب لقد ارتاحت نفسي جزئيًا وأنا أراهم يقطعون الطريق حيث أنا متجمدٌ بفعل ذلك الكائن النحيف، مهما كانوا فهم بشر ولسوف أتتنس بوجودهم مهما كانوا عدائيين أو رافضين، كانوا في حدود العشرين أو أكثر، مشعثين مطلقين لحاهم والغضب يتطاير كالجمرات من عيونهم، وبمجرد وصولهم لموقعي الوحيد صرخ قائدهم وهو أكرش عظيم الجسد في وجهي:

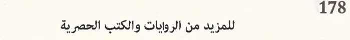
- بتعمل إيه هنا.. ياض؟

* * *

لم يكن مسعد الصفواني بالشخص السهل أبدًا بحكم موقعه الخطير، جلس في صالة منزل طليقته وأشعل لفافة تبغ وأخذ يرتب الأفكار فاقتربت منه «عايدة» بفنجان القهوة السوداء، فأمرها بالاختفاء بشيء من العصبية فاذعنت مستعيدة جبروته السابق معها، وولت للداخل كما لو أنها مازالت زوجته، رفع هاتفه النقال وطلب رقمًا وقال كلمة واحدة:

- تعالى..

وبعد لحظات كان يدخل عليه رجلٌ في منتصف الثلاثينيات طويل القامة يشي وجهه المصدوغ بقوة الشكيمة وتشي نظرته الباردة بصلادة الصخر، بالفعل كانت ملامحه حادة خالية من التعبير، ووقف متصلبًا أمامه ينتظر كلام اللواء، إنه الرائد (حسام البيباني) الشهير في أوساط زملائه باسم (كرعون)، تلك الشخصية الكرتونية الشهيرة في مسلسل سلاحف النينجا، وسر تسميته بهذا اللقب هو قسوته الشديدة في التعامل مع الخصوم، بل إنه كان يتفنن في عَصْرِهم أحياءً ومراقبة تصفية أرواحهم بلذة سادية غير خافية أبدًا، كان لا يعرف الابتسام، دائم التجهم والتشكك في الجميع، كان بلا أسرة بعد أن هجرته زوجته الأولى ثم تبعتها الثانية قائلات نفس الجملة، إنه رجل بلا مشاعر أو قلب، اقترب (حسام) من قائده بثبات وانتظر أن يتكلم الأخير.





- أنا عاوزك تقلب الدنيا وتجيبلي معتز.

-....

- كمان فيه واد بيشتغل مذيع في قناة مزيكا اسمه تامر بتاع أبراج.. تجيبه هو راخر.

-....

تلقى (حسام - كرعون) الأمر بصمت وانصرف بدون أن ينبس ببنت شفة، فهو يعلم كيف سيصطاد فرائسه هذا ال»تامر» بل هو لم يسأل عن أي تفاصيل يكفيه الاسم ومكان العمل وسيقوم هو.. باللازم حتمًا.

* * *

صارت (ماهيتاب) مربية وخادمة للطفل و«معتز» معًا، فهي تواظب على شراء كميات غير عادية من الأغذية وبلا تمييز لتلقها لمعتز الذي اعتلّت حيويته كثيرًا وبات على شفا الهزال مع أنه يأكل بمقدار عشرة أشخاص وأكثر، ولكن عملية الرضاعة الشيطانية كانت تمتص دهونه مع كل تلك الكميات الهائلة من الأغذية، كان يأكل في الوجبة الواحدة خمس دجاجات مصحوبة بالخبز والمقبلات، ومعها كيلوجرام من الجبن والزبد، والفطائر المحلاة وأصابع مفروم اللحم النيء، بينما كان الوليد الجميل يمتص كل هذا من جسد معتز في المرة الواحدة، لقد اختار «معتز» دورًا مستحيلًا، فهو الآن (مرضعة) لطفل الشيطان ولا يعرف لما فيه آخِر، أما عن (ماهيتاب) فهي من تحوّل لشخص آخر تمامًا، باتت صامتة ذاهلة تقوم بالخدمة المتفانية لمعتز وطفله العجيب بلا تعليق وكأنه واجبها المقدس، ودخلت في دورة أخرى من الانعزال المميت، لقد قاطعت أهلها تمامًا وعملاءها وتعمّدت الابتعاد عن عمتها «عايدة» وبناتها وتناست الصلة التي جمعتهن منذ وقت قريب بل تناست ما جرى لمروة كأنها لم تكن هناك، إنها باتت تهرب من مكالمات عمتها لها وتعتبر تواصلها معها مرهقًا لأعصابها، هي الآن في خدمة -ابنها - الذي لم تشعر نحوه إلا بأمومة جارفة وحب



عميق، إنها حتى لم تسأل نفسها لم كل هذا، إنها تخدم بإخلاص وتفانٍ مثير للعجب، ولا تملك إلا اندفاعًا هائلًا لهدف لا تعرف عنه شيئًا، ومع الوقت بات الوليد يأخذ نموًا عجيبًا جدًا وكأن كل دقيقة من حياته يومٌ كاملٌ من النمو والازدهار العجيب، وفي غضون أيام صار الطفل ولدًا يافعًا شديد الجمال والجذب على مشارف السابعة، قوي الجسد يميل للقصر النسبي، فبدا وكأنه مصنوع بدقة، يملك أجمل النظرات وأعمقها على الإطلاق، كان كأخرس لا يتكلم أبدًا، ولكنه يستخدم عينه فقط في الأمر والنهي لها ولمعتز، لقد بدأ في الخروج معها للأسواق والتعرف على البيئة المحيطة كان ينظر لكل شيء بتمعن غريب، ويتأمل الناس كأنهم باكتريا تحت المجهر، لم يرَه أحد إلا واندداح قلبه ووجدانه تجاوبًا معه، حتى الباعة كانوا يهدونها أشياء إضافية لأجل جماله المبهر وفرط جاذبيته التي لا تقاوم، وهو صامتٌ متأملٌ لا يحتاج أصلًا لحروف وكلمات للتواصل، يكفيه نظرة من مقلتيه المتباينتين في الطيف بين الأزرق المضيء والأخضر الدافئ، كان ولدًا طيعًا متناغمًا مع (ماهيتاب) ينام في حضنها ليلًا ويمارس الرضاعة العنيفة من جسد «معتز» الذي تغير حاله كثيرًا وبدا في السبعين من عمره، معدمًا شبه كسيح بوجه متغضن وجلد مفروغ من الدهن السابق، شيء واحدٌ لم يتغير في معتز، هو بريق عينه العاتي لحظات الغضب، وقدرته على فعل أشياء خارقة بفعل انتمائه القديم للشياطين... أما هي فلم تكترث ولم تفكر في نموه الشيطاني العجيب بل كانت تؤمن له من الملابس والأحذية الأشد أناقة والأغلى ثمنًا، واعتبرته عطية إلهية ودعم جبار لحياتها الفارغة أصلًا من المضمون، كما أنها لم تكن لتتصور أن ذلك الطفل هو من خرج من رحم ابنه عمتها مروة.. فهل من نهاية؟

***

تلعثمت أمام الملتحي وأنا غير فاهم لماذا يعتصرون ذراعي وهم يقتادوني إلى تجمعهم الدائم أمام المدينة، لقد بات المكان أشبه بمخيم لاجئين بل وأنني وجدت من تقوم بغسل الملابس ونشرها على حبال منصوبة، وأطفالًا تلعب، ومجالس لرجال



بدت عليهم الشراسة بلحاهم الكثة ونظراتهم الشرسة، أين أنا هل سافر بي الزمن إلى قريش، كانت رؤيتي لهذا الكائن النحيف القابع في الجهة الأخرى من الطريق لها بالغ الأثر على فلم أتكلم كثيرًا معهم بل تعمدت عدم التواصل، لقد ارتاح قلبي في وجودهم واستأنست عدواتهم التي هي أقل وطأة من ذلك الشيطان القاطن فيّ ويكفيني أنهم داخل الدين والصلاة والعبادة بشكل أو بآخر.

- كنت داخل المدينة ليه؟

- أنا..انا بشتغل هناك.

- بتشتغل إيه؟

- مذيع في برنامج.

- برنامج عن إيه؟

- عن الأبراج.

- هه ....؟

الساعه تقترب من الثانية عشرة والقوم يحققون معي كما لو كنت أكبر معارض لهم وعبثًا حاولت شرح وجهة نظري في الموضوع، ولكنهم اعتبروا أن كلامي تحصيل حاصل وأبقوا عليّ كرهينة أو مزحة ثقيلة يتندرون بها فيما بينهم، بل إنهم جمعوا بعض نسوتهم وأطفالهم وهم يباشرون تحقيقًا هزليًا عن الحلال والحرام وأن العرافين كإخوان الشياطين وما إلى ذلك من الآراء المتعصبة، ونظرت لها متعجبًا، أهؤلاء مصريون مثلي ومثلكم؟ لابد أنهم آتون من صحراء جرداء لا من مكان أخضر، لاحظت أن التعامل فيما بينهم يتسم أيضًا بعدائية وهم على قدر واضح من الأداء السادي الغضوب، كما لاحظت أيضًا أنهم بلا تعليم تقريبًا وترديدهم لآيات الله كان عن جهلٍ مطبق، إنهم كما الآلات التي تردد شعارات بلا فهم أو حتى تحليل مسبق، لعلهم مأجورون لتمثيل دور المعترضين على آراء إعلامنا الفاسد أصلًا، ولكنهم بالفعل بدوا لي كعصبة مأجورة لا كأشخاص تدافع عن مبدأ أو دين أو حتى قضية، لقد كانوا

يتبادلون السباب فيما بينهم بطريقة وقحة لا تمت للدين والتدين بصلة، وعند ذلك الأمر بدا الموضوع أكثر خطورة، ولكني آثرت الصمت والانتظار لعل الله يفرج الأمور، من الواضح أن إقامتي ستطول لساعات وربما لأيام، ومع فقداني لهاتفي بدت الأمور أعقد كثيرًا مما تبدو..

***

جلست عايدة في بهو شقتها الفخمة تسحب أنفاسًا من النرجيلة المذهبة، وحيدة كانت بعدما تركها طليقها وبعدما اطمأن نسبيًّا على ابنته الكبرى، كانت ملامح الحزن والأسى تكسو وجهها وبان أن عمرها تضاعف في الأيام السابقة فبدت كعجوز في السبعين من عمرها، لقد اهتز قلبها وجلًا على ابنتها الكبرى وما آل إليه حالها بعدما أُجهضت عنوة، أيكون زوجها اللعين هو من فعل، إن مروة خارج الخدمة ولم تأتِ بأي تصريح ، حاولت أن ترتب أفكارها ولكن عقلها عجز تمامًا عن تنسيق الأحداث الرهيبة التي مرت بها، ندت من بين شفتيها تنهيدة حارقة خرجت مع الدخان الكثيف من فمها ومنخارها فبدت كتنين بائس فقد القدرة على زفر النار، تناولت هاتفها المحمول وطلبت رقم (ماهيتاب) ولكن الأخيرة كعادتها مؤخرًا لم تعد ترد عليها، استنشاط غضبها أكثر وتضاعف شعورها بالوحدة البغيضة التي تكرهها، فهي كائن صاخب يحب الناس والشارع والتفاعل.. وجلوسها وحيدة بدون أنيس يجعلها كمجنون في حبس انفرادي، قامت من جلستها التي دامت أكثر من ساعتين ودلفت لغرفة ابنتها لتطمئن عليها بعدما ذهبت الممرضة التي تقوم على العناية بها، الغرفة غارقة الهدوء وثمة ضوء خافت ينبعث من أباجورة بجوار الفراش كل المؤشرات تشي بالتفاعل الحيوي المضبوط، اقتربت منها ومالت على جبينها لتطبع قُبلة حانية مبتلة بالدموع، وعادت لتتفرس في ملامحها الباهتة الساكنة، لكم تغيرت يا «مروة» وبات الموت مرافقًا لملامحك وجسدك اللذين طالما تغنيت بهما يا حبيبتي الصغيرة، قامت عنها وتجولت في الغرفة بلا هدف ووقفت أمام المرآة تتأمل ملامحها في حسرة، لا أحد يعرف تقدير حزنك أو انهزامك مثل ملامحك التي تبرز لك خيال نظرك في المرآة، لقد



قل ارتفاع الحاجبين اللذين كانا لا يهمدان وبانت العين زجاجية بلا تعبير، وانتشرت الخطوط الدقيقة حولهما بوضوحٍ كبير.. يالها من حسرة تشعرها امرأة مثل عايدة كانت ملء لياليها بذخ واستهتار تشرك فيها بناتها بكل مالذ وطاب من متع الدنيا بلا تحفظ وتتكلم معهم في كل شيء بكل وضوح وصراحة، كانت تستمتع بالانبهار الواضح في وجوه بناتها من جرأتها وتعاطيها لأي شيء مهما كان جارحًا بكل استهتار وأريحية، كان فراش مروة يظهر جانبيًا في المرآة وكانت عينها تتنقل بحسرة بين تفرس ملامحها هي وبين جسد ابنتها المسجي على السرير، وسرحت بخيالها وهي تفكر في ابنتها الهاربة، ثم.. ثم.. ثم اهتز جسدها اللحيم في عنف وهي ترى في انعكاس المرآة أن ثمة شخصًا واقفًا بجانب فراش المريضة، فجأة تكهرب الجو الساكن، ولكنها لم تجرؤ على الالتفات وظلت تحدق في سطح المرآة، إنها هي، إنها ابنتي «هبة»، إنها تقف بجانب فراش أختها تتفرس بدورها فيها تلك الغائبة عن الوعي، تدافعت الدموع إلى مقلتها الذابلتين، ولوت عنقها بفرحة غامرة لعودة ابنتها الهاربة، ولكنها.. ولكنها أبصرت الفراش وحيدًا يحمل جسد الكبرى فقط، فجن جنونها ونظرت للمرآة ثانية، فوجدت «هبة» تضع راحتها على جبين المريضة، فعادت لتلوي عنقها مرة أخرى، لكن الفراش في الواقع بدا وحيدًا بدون «هبة» التي رأتها في انعكاس المرآة، فنظرت بجنون مرة أخرى للمرآة، ولكن لم ترَهبه مرة أخرى كالسابق، أمعنت النظر بجنون في المرآة وطال تحديقها وبحثها عن ابنتها الصغرى، لكنها كانت قد اختفت، مدت ذراعها تستند إلى الحائط وأغمضت عينها التي أرهقت من التحديق في هذا الضوء الهافت، ثم فتحتهم فجأة لترى مشهدًا جفف دهون صدرها العامر بعدما خفق قلبها بقوة، هي الآن ترى نفسها في المرآة ومن ورائها «هبة» تحدق مباشرة فيما خلف رأسها، تسمرت للحظات قبل أن تدير رأسها وهي تتوقع أن تجد ابنتها واقفة خلفها، لكن لا أحد في الغرفة، ابتعدت مستعيذة بالله وتمتمت بقراءة سورة (الناس) بلسان مرتجع بالفزع وقلب خفاق، ولاحت منها التفاتة أخيرة للمرآة، لتجد ابنتها تنظر لها من انعكاس المرآة، تصرخ بلا صوت، وتدق سطحها المصقول وكأنها محبوسة في قفص زجاجي، وتريد أن تهشمه

بقضبتها الرقيقة، توالي احتشاد العرق على جبين الأم الأبيض وتسمرت في مكانها غير مصدقة، فالبنت كانت عارية تمامًا ويهتز ثدياها مع كل حركة عنيفة تدق بها سطح المرآة، أما ما جعل الأم تنهار فاقدة للوعي أن خلف البنت وجدت، أو شاهدت.. أو أبصرت.. ما يشبه رجلًا، ولكن بقرن في مقدمة رأسه، وعيون مشقوقة بطول الجبهة، من الواضح أن «هبة» لا تدرك وجوده خلفها وهي مستمرة في الدق والصراخ الصامت على سطح المرآة، ولكنه اقترب أكثر منها ومال برأسه المقرون لما خلف عنقها ثم طوق بذراعيه صدرها العاري وبدت أصابعه وأظافره آية في الفزع، حاولت الأم أن تنبه صورة ابنتها في المرآة ولوحت لها بإشارات خرساء من شدة الرعب، ولكن الكائن كان قد طوقها بالفعل وبدا أنه يطارحها الغرام أو بمعنى أصح الاغتصاب وقد بدا أن «هبة» تصرخ من الألم أو الرعب أو الاثنين معًا، وهنا فقط استجمعت الأم صرخة طال انتظارها، بل تأخرت كثيرًا من شدة الذهول، خرجت الصرخة مشروخة عالية مبحوحة، لينفجر الزجاج العاكس في وجهها القريب، وتنطلق شهقة احتضار عميقة لكن ليس من جسد الأم هذه المرة.. بل من جسد مروة نفسها.

***

حان فطام الولد الشيطاني من مرضعته الذكر «معتز»، بدأ الأمر حين لاحظت (ماهيتاب)، أن الصبي بدأ في الإعراض عن الرضاعة التي استمرت لأيام، وأنه بدا على وشك الانفصال عن والده أو مرضعته وأنه بدأ يتشمم اللحم وخصوصًا اللحم النيء المفروم كان يجتره دون مضغ ويفضله عن أي طعام آخر تقدمه له، كما أنه بات ينام كثيرًا في غرفة مغلقة آخر الشقة متكورًا حول نفسه كالثعبان، أما «معتز» نفسه فقد تكور هو الآخر على ضعفه الواضح في ركن من غرفة نومها بل صار كما لو كان جثة منسية أسفل قنطرة مهجورة، ولولا أن جسده يصدر تنفسًا منتظمًا لظنت أنه فارق الحياة، كانت تعتني به أيضًا ولكن ليس كاعتنائها بالولد نفسه الذي صار أكثر التصاقًا بها هي، يرافقها في كل مكان كظلها في فترات صحوه، ولكن هذا الانفصال عن «معتز» جعل حالة الأخير تتحسن نوعًا، بل بدأ معتز في الانتفاخ التدريجي البطيء



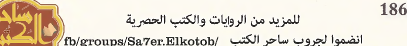
وصار أقدر على الوقوف على ساقيه والمشي خطوات بعدما تخلى الصبي عن الرضاعة الشيطانية وأصبح هو الآخر في معزل عنها في غرفته، تسمعه بين الحين والحين يهذي بكلمات التمجيد والاستجداء، وترى ورقًا وأقلامًا وحبرًا أحمر يكتبهم معتزًا وهو في خلوته مع نفسه، ولقد راق هذا ل(ماهيتاب) جدًّا وبدت أنها تخطط لتكوين أسرة صغيرة قوامها رجلها وابنها بالتبني، ترى ماذا تخبئ الأيام لكِ يا..(ماهيتاب) ..؟

***

الوقت يمر بطيئًا وانا مازلت أسيرًا في اعتصام (حازمون) أمام بوابات مدينة الإنتاج الإعلامي، وقد بدا أن الأمر سيستمر دهرًا، والساعة الآن تنبئ بقدوم الفجر بل إنني بالفعل (رأيت) الأذان عبر شاشات العرض التي يتابعها الرجال عن كثب بالقرب من منصة الاعتصام، وقام معظمهم للصلاة، غريب أمر هؤلاء الناس، لقد بدوا في أول الأمر أنهم على قدر من القبلية والبربرية، وأنهم على استعداد لأكل لحمي نيئ، ولكن مع طول ساعات وجودي بينهم وجدتهم أناسًا بسطاء لا يريدون سوى إخراس الجهاز الإعلامي الفاسد والذي حتمًا يدور فقط ضد مصلحتهم، اللافتات منتشرة هنا وهناك تصرخ بحروف الثورة الإسلامية وتأكيد شرعية الرئاسة التي أتت عبر صناديق الانتخابات، ولكن الصناديق أتت بمن لا نرغب بهم وخصوصًا أنهم كانوا على قدرٍ كبيرٍ من العداوة الظاهرية، وانتاب الرعب الشارع المصري وقتها بأن الذقن الشعثاء هي من سيحدد مصير الناس، بل وإجبارهم على العبادة والصلاة والصوم تحت تهديد السلاح وكلمات الرب المنتقاة وخلط مريع بين الوهابية المتسلطة والسلفية الصارمة وبين الإخوان النفعيين الاقتصاديين وهكذا بدا كل من يتكلم في الدين كأنه شيطان يريد لنفسه العزة والسلطان، واعتقد الناس أنه عصر جديد من الدموية الدينية على الأبواب، عصر جديد من الفاشية الروحانية والانتقاء والتمركز حول ذات العمامة والمسبحة، لشد ما تشابهت عنده الأيام مع العصر الدموي للكنسية في القرون الوسطى، والتي كان فيها الصليب مسنون أطرافه لينغرس في لحم من يعارض رجال الكنيسة المتعطشين للدماء أية دماء حتى لو كانت بريئة.

اقترب مني رجلان وسألاني لو أحب الصلاة في جماعة فرحبت بالتأكيد، وقمت للوضوء والصلاة مسترشدًا بهم لأنني -كما تعرفون- لا أسمع أذان أو قرآن منذ الهجوم الشيطاني الأول في بيتي، هؤلاء الناس استطاعوا أن يقيموا دورات مياه وصنابير في الحديقة المطلة على الطريق، صليت الفجر حاضرًا معهم، وبعد الصلاة انزويت في ركن ظليل لأن الصباح على وشك الانبلاج والحقيقة أنني مرهق تمامًا من كثرة تداعيات الأحداث، لم أنزعج البتة وأنا بينهم وخصوصًا أنني معتاد على جو الاعتصامات في ميدان التحرير، توسدت حقيبتي وأغلقت سترتي للآخر اتقاء لبرد الفجر اللاسع وذهبت إلى سبات عميق بين مجموعة من الشباب والرجال، الذين بدورهم تعالى غطيطهم من حولي.. ولكن..

استيقظت في بيتي. نعم في بيتي أنا، لكن شيئًا ثقيلًا من الدوار يعتري جسدي المكدود، تلّفت حولي بحثًا عن المخيم والاعتصام فوجدت بدلًا منه غرفة نومي أنا، مثانتي تحرقني، أريد الدخول للحمّام فورًا، فقمت مسرعًا ولكن الزمن يدور ببطء مستفز وحركتي تكاد تكون محدودة بشريط سرعة منخفض الكادر، مثانتي تصرخ طالبة الإفراج وحركتي بطيئة رغما عني وفي طريقي للحمام وجدته يتحرك في صالة الشقة بل ويتأمل محتوياتها بتمعن.. كان رجلًا أصلع طويلًا لدرجة ملحوظة يميل للنحافة، أبيض شاهق البياض ذكرني بالنباتات التي تنمو في الظل بعيد عن ضوء الشمس، انتباتني الرعدة كافتتاحية مبدئية وتسمرت عيناي عليه، كان يحمل رأسًا أصلع أجرد تمامًا من منابت الشعر، كان الرأس لماعًا كمعدن مصقول، لم أتبين تقاطيع وجهه وإن أدركت أنه تقريبًا بلا.. بلا.. بلا أنف أو وبلا فم. فقط عيون لوزية بأهداب إبرية طويلة، كانت عيونه سامة تمرح فيها ابتسامة هازئة مسيطرة، تصنعت غضبًا كبيرًا وحاولت أن أصرخ فيه إذ كيف دخل إلى هنا؟، تناسيت طوله الشاذ وضخامة رأسه اللامع وجسده النحيف الأجرد تمامًا، كنت عصبيا محمومًا أريد القتال والدفاع عن حرمة شقتي، ولكن حركتي كانت تقاومني كأنني مغمور في زيت السيارات، نظرت لباب شقتي فوجدته مخلوعًا من إطاره الخشبي، لقد تم انتزاعه



من مكانه نزعًا، كيف لم أسمع صوت الاقتحام؟، لابد أن هذا الزائر الأصلع هو من فعلها، استدرت غاضبًا إليه واقتربت منه أدفعه ليخرج ولكني كمن يدفع مرتبة سرير مغمورة في الطين لقد كان رخوًا ثقيلًا لا يتزعزع مهما استنفرت قوتي أمامه، وهو ينظر لي بعين خرساء مقيتة، قرأت في عينه أنه دخل ولا مجال للخروج، اعترتني الكراهية العاتية وأمسكت ذراعه ألويها بقسوة وغلٍّ كبيرين. فالتوى زراعه فعلًا وأُعتُصِر في يدي كما لو كنت أعصر طيات من الإسفنج المبتل، ولكني جززت على أسناني وأنا أحاول الاعتصار أكثر وأكثر، أنا من أصابه الإرهاق من كثرة الغل والجز على أسناني من الغضب واليأس من وجود ذلك الكيان الرخو الأصلع، ثم نظر إلى نظرة كلها حقد هازئ، ثم تخلَّص من قبضتي بسهولة، ورفع يده البيضاء تمامًا والخالية من العروق، وبرزت أظافر شفافة من نهايات أصابعه الطويلة كانت كمخالب لم تتغلظ بعد، ولكنها حادة ...حادة.. حادة كالموسي، انذعرت وأنا احاول أن أتذكر شيئًا من القرآن، بسم الله الرحمن الرحيم ...آآ الله لا آآ..الله ... كانت معاني القرآن تفلت من لساني وتتساقط هاربة من وعيي وذاكرتي لم أستطع التذكر أبدًا وكأن ملفات القرآن قد تم مسحها من مكعب ذاكرتي، شيء ما في عينه يمنعني من التذكر، أووووف أريد أن أتبول الآن، لقد بلغت بي الذروة في الاحتباس، لن أستطيع إكمال طريقي في الحمام سأتبول الآن، آآآآآآآه، لقد ابتلت ملابسي تمامًا وشعرت بدفء البول يتسرب في نسيج ملابسي الداخلية وبانت كبقعة فضائحية على سروالي، آآآآه إنني غير قادر تمامًا على التحكم في إسكاته، كل هذا والكائن الأصلع ينظر لي بسخرية هازئًا من ضعفي البشري تجاه التبوّل . آآآآه مازل الماء الساخن يتدفق مني بلا حساب وكأنني موصول بصنبور خفي.. رفع الكائن أظافره إلى حيث مكان فمه ومارس الخمش والتمزيق وشق لحم وجهه بالعرض ليخلق لنفسه شفتين ممزقة الحواف، وبانت أسنانه المربعة، سوداء ملوثة بالصديد مدببه الأطراف كنصل الخناجر، مازال آثار الدماء من شق شفتيه تقطر دمًا، ولكنه حركهما قائلًا ببطء:

- مممم مم مفيش مهرب.. مممم.. مفيش مكان

صوتها أيضًا كان أبيض خاليًا من ضوء الشمس، صوت محايد يسري في مسامعك كسريان الفورمالين الحافظ في عروق الموتى، حاولت الابتعاد فكبّلني بمرونة أطرافه.

ثم انحنى لأسفل وفتح فمه على اتساعه.. لا، لا إنني أسمع صوت شق لحمه الإضافي إثر هذا الاتساع لفمه الناطق، ثم.. ثم.. لالالالا. إن الحركة البطيئة تقتلني غيظًا وكمدًا وتأخذ جُل مجهودي في المقاومة والابتعاد، ولكن الكائن ينحني أكثر ليقترب من.. من.. ليقترب من مكان تبولي، الفم الآن مفتح على اتساعه.. آآآه، لا.. ارجولك لا تعقرني.. لا تعضني في هذا المكان.. آآآآه ...لاااااااا، لقد شعرت بأسنانه المدببة تخترق لحمي في ببطء وتركيز.. ثم... ثم... ثم شعرت بتمزيق إثر انطباقها على.. على... لالالالالا . لا تنتزعنه أرجوووووووووك، ولكن الكائن كان قد قرر نزع ال... خاصتي في رحلة العودة بكل هدوووووء ... لالالالالالا ...آآآآآآآآآآآه

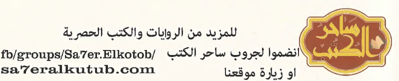
جفلت من نومي غارقًا في الذهول، ومددت يدي بذعر أتحسس موضع أسنان ذلك الكائن الأصلع أصابعي تعود مبتلة بلزوجة ما، حسبت أنه بولي المتدفق، لكن لالالالالا إنه دم نعم دم إنه دمي الخاص نظرت لأسفل يا إلهي كرشي الصغير يمنع رؤيتي لما حدث أسفله، تحسست نفسي فمست أصابعي حواف جرحٍ طازجٍ مازال ينبض، ولكني بالفعل لا أجد ال... لا أجد أعضائي.. لالالالالا، هل انتزعه بالفعل..؟، اندفعت الدموع تسابق شلال الدم المنساب من مكان الانتزاع، لقد قطف الكائن رجولتي بأسنانه المدببة، قمت من فوري أبحث وانا أجرّ أطنانًا من الرمال في سيقاني المرتعشة، دمائي تصنع طريقًا مرسومًا على أرضية منزلي، أنا أبحث عن الذي نهشني وقضم تصنيفي كرجل، لقد هرب الوغد بعدما ثقبني ووضع تجويفًا داميًا مكان ذكورتي، آآآآآه إن الألم لا يطاق والذعر والموت بات قاب قوسين أو أدنى، توجهت لباب شقتي فوجدته كما رأيته سابقًا، منزوعًا تمامًا من مكانه، اجتزته ببطء والدماء تنز من مقدمتي التي باتت مجوفة، لابد أن أحشائي ستنزلق الآن من هذا التجويف، آآآآآه إنني لا أتذكر شيئًا عن التشريح، لابد أن أعضائي الداخلية على وشك الانزلاق الحتمي من ذلك الثقب الكبير، لكن ما هذا؟، لماذا المكان بات مظلمًا هكذا؟؟،



أين درجات السلم في عمارتي المألوفة، ما هذا، ماهذا؟؟... وجدت قطيعًا كبيرًا من الكلاب السوداء تجلس في نصف دائرة، جميعها تهزرأسها كما دمية الكلب في سيارت الأجرة، لكنها كلاب ضخمة سوداء ثمة علامة بيضاء أعلى رؤوسهم كما لوكانت شكل العنزة . يهزون رؤوسهم باستمرار، باستمرار، اللعاب يتساقط من أشداقهم وينذر بهجوم مسعور، ولكنني أنزف أنزف وأخاف أن تندلق أحشائي منزلقة عبر تجويف القضم ضممت كفي لأمنع هذا الاندلاق، سأموت حتمًا قبل أن يبدأ الهجوم، لابد أنهم سينهشون لحمي ويتنازعونه فيما بينهم كما تفعل الضباع، أريد أن أموت قبل أن أرى لحمي أشلاء تلوكه أنيابهم الملوثة باللعاب، كلاب سوداء ضخمة .. كلاب سوداء ضخمة.. توقف أقربهم لي عن هزرأسه ونظر إليّ مباشرة، ثم بدأ يزوم وتتراجع ملامح وجهه للوراء، لابد أنه.. أنه.. أنه مسعور، لابد أن رائحة الدماء تهيج خياشيمه الوحشية، قام وتحفزواستعد للانقضاض راجعًا للوراء خطوة، حاولت الهرب ولكن قدماي ثقيلتان ثقيلتان، أجولة الرمل المخزنة بها لا تريد أن تتزعزع، ثم قفزالكلب الأسود.. إلى حيث تجويفي المنتزعة أعضاؤه.. لاااااااااا

سأموت حالًا من الجزع والنهش، يااااارب أنقذني، ولكن الرب غاضب، واعتقدت أنه وقت الحساب وسوء الخاتمة قد حان الآن، لاااااااااا، عاااااااا

جفلت للمرة الثالثة ونظرت حولي فوجدتني في مرحاض عمومي، تفحصت نفسي فوجدت أنني بلا أحشاء، بطني مبقور فارغ من أمعائي ومعدتي، لابد أن الكلاب تسابقت على أكلهم طازجين من جسدي، ولكني الآن مجففًا، آه لابد أنني جثة نعم جثة تم غسلها وتجفيفها توطئة لدفن لائق، سأدفن جثة بلا أحشاء، لابد أنني مت وشبعت من الموت، هل دفنوني في دورة المياه المهجورة تلك؟، ولكني غير مدفون، أنا.. أنا.. أنا أقف على قدميّ، ولكن بطني مفتوح كمقهى ساهرفي ظلام الليل، أسمع صوتًا يأتي من بعيد مترنمًا نائحًا، إنه خلف الجدران المتآكلة، لا يستطيع الوصول إليّ، المرحاض كان عموميًا أسمع به خرير المياه المتسربة عبرأنابيبه الصدئة المثقوبة، ولكن.. ولكن، أسمع البشر والناس تمارس حياتها في الشارع، أنا فقط المدفون في



هذا المرحاض العمومي، هل سيصنعون منه ضريحًا لجثتي؟، لماذا الباب مغلق على من الخارج؟، أريد الخروج فورًا، أريد أن أرى الناس والحياة، لا أريد ذلك المستقبل المبتل المهترئ بالقاذورات، أشعر بأنني سأذوب فيه حتمًا، أسمع صوت الشيخ (علي)، الجن الزاهد، يترنم بالجلجليوتية الحزينة، لابد أنه يترحم على روحي قدر استطاعته، لكني لا أتبين المعاني كما السابق، هل متّ فعلًا؟، هكذا بلا توبة ولا تجهيز؟، الجدران تهاوى على نفسها وأرى أحواض الحمّام ومراحيضه يتكسرون تحت ضغط الجدران المتهاوية، انبثق ثقبٌ واسعةُ فوهته في منتصف المكان وبدأ في ابتلاع المنهار من الجدران والأدوات، سأهوي حتمًا من حالق، سأرتمي إلى مثواي الأخير بلا رحمة ولا ستر، يالها من فضيحة، الأرض بدورها تتخلخل من تحتي ليشملها الثقب، سأهوي حالًا، سأهوي الآن، صوت الشيخ (علي) يأتي إلى مسامعي ولكن يبتعد قبل أن تلتقطه مسامعي يقول شيئًا عن العذاب وعن اللانهائية وعن السديم.. لا، لاااا، لا تتركني يا شيخ (علي) لااااااا

لاااااااااااااااا

صرخت صرختي النهائية قبل أن أسلم الروح

لااا

آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه

سأحاول أن أنطق بالشهادتين

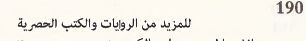
أشهد أن.. لا أتذكر كيف؟ كيف لا أتذكر الشهادة؟ لعلها لعنتي التي سأقابل بها ربي..

سأموت دون نطقها، ستسحق مطارق الملائكة ضلوعي في القبر، سيمثلون بروحي فيلمًا ساديًا بسبب ذنوبي، ذنوبي؟؟ ما هو ذنبي الذي اقترفته لكل هذا؟

أشهد أن لا.. لا أتذكر يا ويلي

سأموت حالًا دون توبة، أريد أن أفتح عينيّ لأرى آخر مشهد تقع عليها عيناي..

جاهدت لأفتح عينيّ، ثمة أيادٍ تتلمس جسدي، بل إنها تصفعني بقسوة وتهزني بلا كلل، هل بدأ العقاب؟ هل كانوا ينتظروني على أحر من جمر؟ وأُجبرت جبرًا على



فتح عينيّ، يا إلهي الرحيم، ما كل هذه العيون التي تحدق في وجهي وما هذا الضوء الباهر؟، ما هذا الشرر الذي تضج به أحداقهم؟ إنهم يريدون إغراقي في الماء، هه لماذا يسكبون على الماء؟ هه

استفقت وعيناي مغرورقتان بالدموع ووجهي يكاد أن يتورم من توالي الصفعات على صدغي وخدودي، حتى شهيقي وزفيري يؤلمانني جدًا.

هل كنت أحلم؟ نعم نعم لابد أنني كنت أحلم، بل وعلا صوتي بالصراخ أثناء حلمي مما أزعج المعتصمين، وجعلهم يتكاكون عليّ كالدجاج، لابد أنهم مرحوا كثيرًا وهم يتابعون هذا السيرك المتمثل في شخصي، ياالله لكم كان الحلم متراكبًا قاتمًا شديد القبح وفي أعلى درجات الهلع، رباه إن قلبي يدق بعنف شديد وإحراجي بلغ منتهاه وأنا أرمق الناس من حولي ما بين ممتعض ومتأمل ومندهش، امتدت يدي شخص أحسبه لطيفًا، بشعره الطويل نسبيا ولحيته المهذبة وعمامته المبرومة حول جمجمته . واسنانه البيضاء النضده، ناولني زجاجة ماء وربت على صدري النافر بأخوة وصداقة نابعة من شفقة عاتية، لقد استيقظت لتوي في حال لا يمكن وصفها بالمرزية فقط، بل هي أسوأ بكثير، ولمحت في عيون المحيطين بي تفهمًا غير خافٍ بل سمعتهم يقولون برقة لبعضهم أن شفاه الله وعافاه فهو ممسوس أو مسكون، لا حول ولا قوة إلا بالله، ولكنهم تركوني وحدي مع هذا الرجل، ساعدني في الاعتدال..

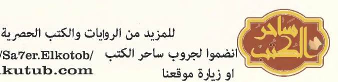
واستندت إلى جذع شجرة وعببت من زجاجة الماء بشراهة ويداي ترتعشان في وجل، بينما انصرف الناس عني إلا هذا اللطيف ذا العمامة والجلباب القصير ووجهه العريض الموسوم بذبيبة الصلاة الثلاثية، الوقت يقترب من السادسة صباحًا وثمة شبورة مائية تجعل الرؤية متعذرة نوعًا في محيط الاعتصام.

- اهدي كده وصلي على النبي.

- .....

- أنت تامر بتاع الأبراج؟

- ... أيوة أنا..



أطرق ببصره للأرض قليلًا ثم مدَّ يده يصافحني بدفء

- معاك أخوك في الله الشيخ (أسامة الشامي)

نظرت له بعيون عائمة في الدموع الخالية من البكاء، ومسحت بيدي على وجهي لأبدد ظلمات الرؤيا التي هاجمتني، وأتى بحقيبتي وناولني منديلًا ورقيًّا، كان يحسب أنني أبكي ولكن الحقيقة أن الضغط العصبي يجعل عينيّ تدمعان بغزارة فوق المعتاد، فربت على كتفي برفق فنظرت له مستعيدًا أنفاسي المهورة من أثر الحلم الطاغي.

- أنت شكلك تعبان أوي يا أخ تامر، وطبعًا أنت هنا أسير.

- ....

- ماتزعلش.. أصل الجماعة هنا متوترين جدًّا وبيشكّوا في أي حد داخل للمدينة المشؤومة دي.

جاهدت لأجمع البقية الباقية من نفسي وقلت له:

-.....دي أقل حاجة بتحصلّي..

لمعت عينه ببريق عجيب وهو يركز ناظره إليّ:

- أخ تامر أنت (مرصود) وفي مراحل صعبة أوي.

نظرت له مجددًا فأنا أشم رائحة الروحانيين وأعرفهم جيدًا، وربما حالة الرصد التي أعاني منها أوقفت عمل قرون استشعاري تلك، لكنه بالفعل يملك لطفًا ونظرة عميقة نافذة استشعرتها من أول رؤية له، فتعمدت أن أتعامل معه معاملة (الزميل) حتى لا أقع تحت نير تسلطه الديني الممزوج بتسلطه الروحاني. بل وتذكرت أنني ولكني لا أتذكر تماما أين ومتي، وكأنه قرأ افكاري..

- بتشبه عليَّ؟

جاوبته بشيء من الثبات محاولًا إخفاء كل مشاعري، لأن الروحاني الحقيقي يشم رائحة أفكارك ويجاهر بكشفها أمامك حتى تلين صلابتك ويقل تحفظك في التعامل معه.

- تقريبًا شُفتك بس مش عارف فين وإمتى.



- أنا بقى أعرفك كويس، وكنت بتابع البرنامج بتاعك، شغلك كان حلو جدًا، لكن إيه اللي دخلك في الموضوع ده..؟

للمرة الثانية يتعذرعليّ الإجابة، ما الذي أقحمني في ذلك المجال، ربما القدر، أو أنه اختبارشديد المراس أمربه.

نظرت له مجددًا فهويتكلم بثقة ومودّة ولكن مهلًا مهلًا، إن (أولاد أبو إسماعيل) ضد التصوف والصوفية وهو بلا شك صوفي من هيئته وكلامه فكيف اندمج معهم بهذه السهولة؟، فقرأ افكاري أو استشعرها واستعرض ذلك لإبهاري مجددًا قائلًا:

- طبعًا بتسأل نفسك إيه اللي جابني هنا مع إن (حازمون) ضد الصوفية.

فاشرت له برأسي أن نعم..

- تقدرتقول إن المصالح بتتصالح..

اندهشت من تلقائيته فتابع وهويطرق للأرض بخجل:

- أنا هنا عشان بعالج كام واحد وجايبلهم شوية عطارة ومقويات لزوم الكفاح.

فابتسمت رغمًا عني برغم حالتي المزرية قائلًا:

- تقصد لزوم النكاح؟

فتلفت حوله منزعجًا من مباشرتي قائلًا:

- ششش.. لا بقولك كفاح، للأسف إعلام الشياطين خلّى الناس تاخد فكرة قبيحة عن الناس دي.

فأومأت برأسي له متفهمًا فاستدرك الحديث الهامس قائلًا:

- أنا هحاول آخدك معايا من هنا، ماتقلقش.

ابتسمت في وجهه لأول مرة منذ أيام، فبادلني الابتسام وشعرت بالألفة والزمالة بينه وبينه فسألني فجأة.

- وأخبار الفلك إيه؟

راودني إحساس بأنه يختبرني فقلت له وأنا أتصنع التلقائية بابتسامة مغتصبة:

- زحل في القوس والمشترى في السرطان والدنيا خربانة على الكل وأنت برج الدلو

يعني بتعاني من الانطفاء وبتقع تحت خط الاستغلال الناعم.

فابتسم مؤمنًا على كلامي قائلًا بثقة:

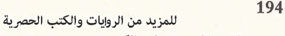
- أحسنت.. بس أنا متفائل.

وبمجرد أن انتهى من نطق حرف (اللام) في كلمة (متفائل)، حتى استحالت الدنيا لجحيم وصراخ وصوت تبادل إطلاق نار عالي الكثافة، وتصاعدت لخياشيمي رائحة القنابل المسيلة للدموع والتي أعرفها جيدًا من إقامتي في ميدان التحرير قبل عامين، بل إنني جزعت وأنا أرى الشيخ (أسامة) نفسه ينزف جانبي بغزارة من وقع رصاصات خرطوش أصابته في كتفه وعنقه وصدره وهتكت لحمه وجلبابه الأبيض الذي تلون بالأحمر القاني المزعج، كان ينظر لنفسه بذهول وهو يقبض براحتيه على يدي بارتعاش، لقد آن أوان (الفض) العنيف للاعتصام والذي تجيده السُلطات المصرية وجاهزة لأن تصدّره للعالم بأسره، ومن خلف الدخان والرصاص شاهدت الكائن الذي كان يقبع في الصحراء يمشي خلف القوات بل ويجتازهم ليخطو إلى داخل المدينة متجاوزًا السور الذي لم يبلغ ارتفاع ركبتيه أن كان له ركب.

.لقد قررت السلطات فض الاعتصام في أسوأ توقيت بالنسبة لي، وكان علي الاختباء والهرب من الرصاص وقنابل الغاز، ولكن... هل أترك الشيخ (أسامة) لمصيره؟

***

تناثر الزجاج المنفجر في وجه عايدة الغول فرفعت بانعكاس شرطي ذراعها لتحمي وجهها الذي اخترقته الشظايا إثر انفجار المرآة، شظايا الزجاج أمطرت الأرضية، وندت شهقة طويلة عنيفة من حلق «مروة» الملقاة على سرير الشلل، ولكن «عايدة» كأم لم تهتم كثيرًا بالدماء التي تسيل من وجهها وعنقها بل هرعت فورًا إلى حيث الفراش لتدرك ابنتها، كان جسد «مروة» يهتز بعنف التردد الكهربي عالي الجهد، بل ويخرج اللعاب الممزوج بقطرات من الدماء من بين شفتيها المزمومتين، صوت الغرغرة يتعالى والأم في حال من الذعر والحيرة، إذ لا تعرف ما الذي ينبغي عمله لابنتها، الموجودات





نفسها يعتريها الذهول وتحاول أن تتلاشى من عنف المنظر. اقتربت منها تربت على وجهها، فانتفضت من عنف ضربة لا تعرف من أين جاءتها، بل ألقتها في الركن كمشاهد للعرض القادم، ثم...ثم.. ثم ارتفع الجسد كله لنصف متر فوق السرير، كأن الجسد محمولًا على لوح زجاجي مضاد للجاذبية. انخلع قلب الأم ارتياعًا للمشهد، ورجعت بظهرها للحائط وهي تبصر هذه الظاهرة المروعة. توقف جسد مروة عن الارتعاش والتشنج وهي سابحة في الهواء. ثمة أصوات تعلو تدريجيًا في خلفية المشهد، أصوات أحادية التردد مصحوبة بشهيق وزفير عالي الصوت، ثم رأت «عايدة» ظلالًا عديدة تتموج في فراغ الحوائط. وبدا أن هذه الظلال ترقص والصوت يعلو ويعلو ويعلو بأزيز مؤلم. «عايدة» على وشك الجنون المطبق وبدا رأسها يهتز يسارًا ويمينًا فأغلقت عينها وسدت أذنها من ألم الأزيز. توقف الصوت فجأة ففتحت عينها لترمق جسد ابنتها مازال عائمًا على الهواء فوق السرير الطبي، ثم.. ثم.. ثم أبصرت تجسدًا لطفل جميل المحيّا في التاسعة يقترب منها ويقفز بلا وزن ليعتلي جسد مروة العائم، ثم سقط جسد مروة فجأة بعنف على السرير بصوت ارتطام الوزن والارتفاع. وأبصرت عايدة هذا التجسد مازال جاثمًا على صدر ابنتها ينظر في عيونها المغلقة، ويمد يده الصغيرة ليتحسس وجهها في حنان. شهقت «عايدة» شهقة فزع. ليستدير الكائن المتجسد لها وينظر بعيون زجاجية ملونة. كيف يجتمع الجمال الطاغي مع الشر في عيون ذلك الولد. ورفع اصبعه الصغير امام شفتيه المضمومتين ونفخ مصدرًا صوت «ششششششش» كأنه يطلب منها الصمت ... أو الموت أيهما اقرب

***

- بقول لحضرتك ماجاش التصويرودي أول مرة تحصل إنه يغيب عن الهوا.

كات هذه العبارة تخرج من بين شفتي مساعد الأستوديو وهو يرتعش إثر نظرات (حسام) المفترسة بصدغه المربع القاسي والذي يصدّر لك مشاعر الهلع من رؤيا وجهه، وهو يرمقه في تركيز. كان (حسام) أشبه ما يكون بديناصور مفترس يرمق دجاجة صغير ويقيس أبعادها وطراوتها مقارنة بصدغه المسنونة أنيابه. وهو ينظر

لمساعد الأستوديو الذي بدا في نوبة رعب من قسوة الحضور المسموم ل(كرعون) وتابع بصمت ما يقوله مساعد الأستوديو.

- ده حتى اتصلنا بيه كتير جدًا ومارداش على الموبايل ودي أول مرة تحصل واضطرينا نذيع حلقة قديمة.

أنصت له (كرعون- حسام) بثبات وعرف من خلال خبرته في التحقيق المفترس أن هذا المساعد لا يكذب أولا يجسر على الكذب أمامه، ثم قال له من بين أسنانه:

- من حوالي أسبوعين فيه تلات ستات جم هنا وآخدوه معاهم..

-آه.... أيوة يا افندم فعلًا يوم السبت اللي فات لأ اللي قبله.

- وبعدين...؟

-هما انتظروه لحد ما خلص الهوا وخدوه معاهم.

سرح الرائد (حسام) ببصره متفكرًا إلى أن قاطعت افكاره جملة إضافية قالها المساعد اللعين:

- لكن يا افندم دول ماكانوش تلاتة.. دول كانوا أربع ستات.

***

من أنت يا (حشمت) .....؟

تعالوا معي في رحلة ليلية لمنطقة من أكبر مناطق العالم روحانية، بل وأشهرها على الإطلاق، إنها المقابر العظمى التي تجرأ وبناها غرور الإنسان بإعجاز هندسي فلكي بلا مثيل، مدعوم بالحجم الهائل والتراكب المدهش لصخور الحجر الجيري والجرانيت، إعجاز أبهر العالم وجعله لم يصدق أبدًا أنها مجرد مقابر للملوك، إنها الأهرامات العظمى والتي لا يعرف الكثيرون أنها مكان لحج بعض المعتقدين بإعجاز البناء وروحانيته العالية، كتابهم المقدس هو (أسماء الموتى)، وصلواتهم هو ترديد عدد فلكي محسوب بدقة الذرة وتوقيت المدارات السديمية، وقمة تقربهم هو الدخول لغرفة الدفن الكبرى للملك خوفو لإعلان ولائهم النهائي والتبرك به أي صاحب الصرح المهول، الناس المتشغلون بالسياحة يعرفون جيدًا أهمية المكان الروحانية للآلاف



من المتعبدين من جميع أنحاء العالم، ويسهلون لهم إجراء طقوسهم الوثنية بما لا يقاس، وفي الصحراء المتخمة للهرم كان يقف (حشمت) بجسده البدين ووجه الأبيض المرسوم بلحية شارب سوداوان وبشوبهما الشيب الأبيض في أناقة، ينظر للنجوم ويناجي أربابه الذي يهيم بهم شوقًا، لقد كان حشمت من عباد الفراعنة الأوائل ويراهم أنهم هم سادة العالم قديمًا وحديثًا، كانت له اتصالات واسعة بهؤلاء السائحين الذين يعبدون مثله الهرم ويؤمن لهم جلسات روحانية عامرة بالسحر الأسود وطقوس الموتى، بل ذهب بالأمر أنه بدا كأنه كاهنٌ أكبر لهم جميعًا، لم يكن أحدًا مهما بلغ قدره في أن يصل لتلك المكانة الرفيعة التي وصل لها (حشمت) ولكن جرأته في التناول وسيطرته على تجارة بعض آثار السحر جعلت منه زعيمًا روحيًّا لا يستهان به، لم يعرف أحد من بني جلدته أن واصل لهذه الدرجة، كما ما عرف أنه كان مجرد مساعد للمعلم – زايد الغول – في تجارة الحشيش لم يعرف له عائلة أو حتى أسرة، كان (مقطوع من شجرة) كما وصفه المعلم لدرجة أن الناس أسموه (حشمت الغول) لأنهم لم يعرفوا له أصلًا أو شجرة انطرح منها، كان قليل الكلام يخدم المعلم بتفانٍ وإخلاص وتفرغ إلى أن وصل لأن يكون الرجل الثاني، صرف من عمره ما يزيد عن العشرين عامل في خدمة معلمه إلى أن صار هو المعلم بعدما رحل الأخير، وكان من المفترض أن تستمر تجارة المعلم على يده وأن تسري المخدرات في روافدها مع وجود حشمت، ولكن هذا الأخير جفف المنابع وتعمد أن تذهب تجارة الحشيش بلا رجعة، هل لأنه تاب وقرر أن يتخلص من ذلك المجال الموبوء، لا ولكن (حشمت) كان له هدف آخر وطريق جديد يريد بشدة أن يسلكه.

***

جلس معتز يراقب ما يحدث في الملهى بتراخٍ واطمئنان كبير وهو يرى مجموعة من الشباب والفتيات يرقصون بجنون على أغنية من الأغاني الشعبية التي نتجت أخيرًا لتزيح مفهومنا عن الأغاني الشعبية والتي تسمى بأغاني المهرجانات.

السماعات تصرخ بأغاني (المهرجانات)، إيقاع متتابع يهز الجسد بشكل معين

ويجعل الشاب أو الفتاة يحرك أطرافه كما لو كان يتحضر لخوض معركة قريبة (مافيش صاحب يتصاحب مافيش راجل بقى راجل.. هنتعامل ويتعامل طلع سلاحك متكامل.. هتعورني هعورك، وأبوظلك منظرك..) ثم يتصاعد الهزيم الإيقاعي ليحرك أجساد مجموعة من الفتيان والفتيات لا تتجاوز أعمارهم منتصف العشرينات يتحركون بشكل مختلف ولكنه موحد في نفس الوقت.. كيف هذا؟.. دعني أشرح لك أكثر.

الإيقاع هو ما يربط جهاز الإنسان العصبي ببؤرة سكونه وحركته فلو أنك تحرك كتفيك تبعًا للإيقاع وتوقفه تبعًا للإيقاع أيضًا، وغيرك يحرك ذراعيه أو ساقيه بنفس الترتيب سيظهر لك الانسجام التام بين أجساد الراقصين حتى لو كانوا لا يحسنون الرقص أو لا يعرفون الخطوات، سيظهرون لك كما لو كانوا يتراقصون حول طوطم أو مذبح، ولا تنقصهم إلا الحراب والسلاسل، وعندما كنت أرى ليلة الحنة لأي عروسٍ في المناطق الشعبية كنت أرى الشباب يتراقصون تدريجيًّا إلى أن يهزم الإيقاع فيخلعون ملابسهم ويبدأون في.. في.. في التعبد والتقرب لطوطم غير مرئي في حركات وثنية لا تخفى عن العين المتفحصة، وهذا ما تفعله أغاني المهرجانات في الشباب تتخذ من ارتعاشهم المربوط بالإيقاع ولتربطهم براقصين آخرين لا تراهم العين المجردة، ولو أنك راقبت احتدام الرقص بينهم بعدسة تعمل بالأشعة تحت الحمراء أو فوق البنفسجية سترى العجب، شرط أن يكون المكان نفسه مشاركًا بطاقته فما بالك بالهرم وما حوله من حقول طاقة لا متناهية. إنها توحد إيقاع الأجساد بين حركة وسكون وطلاسم روحانية عامة تؤثر على الجميع من الإنس والشياطين.

كان معتز يراقب كل هذا عن كثب وقد اكتسب تسلية روحانية تنبع من مشاهدته لصغار الشيطين وهم يرقصون مختلطون بالشباب، لدرجة أن الموضوع في نظره تحول لزار أو لجلسة طرد الأرواح أو اكتسابها إلى أن ظهر في الكادر صاحب هذا السيرك كله (حشمت)

دعونا نتغاضى عن الصوت العالي قليلًا ونجعله خلفية للمكان، ونقترب أكثر



من الركن الجنوبي منه حيث ظهر صاحب المكان السيد (حشمت)، أوكما يحب أن يسمع (الشيخ حشمت) الذي بذل أموالًا وجهودًا خرافية ليأخذ ذلك المكان بالذات، ويقدم التسهيلات والرشوة لكي يقدرعلى ممارسة نشاطه (السياحي) ،ولكن من أنت. يا حشمت؟؟

جسد لحيم أبيض البشرة بشارب مرسوم مع اللحية بشكل سلطاني متميز وطول يناهز المترين وبشعر أسود قصير منحول في مقدمة رأسه، يشي مظهره العام بالأربعينيات لكنه في الحقيقة تعدى الستين بعام أو اثنين وعين سوداء سُمية مؤثرة صارمة وجلباب صعيدي أسود يزيد الرهبة المبعثة من هيئته الموسومة بالخطورة من أصل جنوبي من صعيد مصر بالتحديد من سوهاج وسر بشرته البيضاء أن أمه كانت قبطية، تزوجت والده بعد موت زوجها، يلبس تحت جلبابه الفخيم ملابس داخلية ناصعة البياض تظهر في كل حركاته كضوء خاطف وسط كل هذا السواد، يضع على كتفيه عباءة سوداء أيضا منسدلة على ما تيسر من جسده الفارع وقت اللزوم وغضبة عاتية تنتظر تحت مظهره الهادئ المطمئن، يجلس صامتًا متأملًا هذا السيرك الشيطاني المرتبط بصوت السماعات العالي ورقص الشباب على تلك الأغاني، أمامه مائدة عامرة بالمشروبات الكحولية وفاكهة مقطعة في أطباق كبيرة أنيقة ملفوفة بالورق المعدني ويصاحبها كل أنواع المقرمشات، وصاحبنا يجلس متربعًا على عرشه يتابع بتراخٍ كيف أن المكان مضبوط كالساعة ورواد المكان كلهم كلهم بلا استثناء يدينون له بالولاء، بل وتشعر وأنت جالس معه أن الرقص له والغناء له والسمر كله في هذا المكان من أجله هو، لكن يوجد شيء يتعلق ب(حشمت) شيء غير مريح يجعلك ترتاب في نفسك أو تشعر بعدم الارتياح وفقدان الأمان، لماذا...؟اقترب منه مدير المكان في تبجيل ورهبة، تمتم في أذنه بكلمات ثم أشار حيث يجلس «معتز»، فنظر (حشمت لمكان «معتز» ولوى الأخير عنقة لتتلاقى نظراتهما، وكان هزيم الإيقاع وصراخ السماعات لا يؤثر إطلاقًا على تواصلهم، أشار(حشمت) لمدير المكان بأن يذهب ليتابع أعماله بينما أشار لمعتز بأن يترك مكانه ويذهب إليه، فقام معتز متبخترًا تطوح الخمر



باتزانه ليذهب إلى الرجل الوحيد الذي يعرف ما يفعله معتز بالضبط في هذا العالم وتلوح على شفيته ابتسامة ود ومحبة.

* * *

- بتقول أربعة...؟

كان هذا صوت حسام القوي الصارم وهو ينظر لمساعد الأستوديو المرتبك أمامه.

- أيوة يا افندم كانوا أربع ستات تلاتة صغيرين وواحدة كبيرة عنهم.

- أنت تعرف تامر ده ساكن فين؟

- في وسط البلد قريب من شارع محمد محمود لكن ما أعرفش فين بالظبط.

نظر له (حسام) بتفرس فاستدرك المساعد قائلًا بذعر:

- ممكن أجيبلك العنوان بالظبط من الإدارة.

فأشار له (حسام) بأن يفعل حالًا فهرب المساعد من أمامه تاركًا إياه في خواطره وتحليلاته.

المعلومات التي يعرفها أن السيدة (عايدة وابنتها هبة ومروة فقط من أتين للأستوديو) إذًا من هي الرابعة؟ من؟

خرج من أفكاره وهو يرى المساعد يتقدم منه وتعلو وجهه العجوز علامات الانتصار، ويبرز لها ورقة عليها صورة البطاقة الشخصية لتامر.

- اتفضل يا افندم العنوان أهو.

* * *

لو كان الحظ حليفكم في يوم من الأيام أدعوكم لأن تكونوا وسط عمليات الفض لأي تظاهر، أيًا ما كان اتجاهك أو انتماؤك فأنت في المفرمة بلا محالة. فلو كنت مع المعتصمين فأنت هدف للقوات، ولو كنت مع القوات فأنت هدف للمعتصمين. الشيخ (أسامة) يتلوى من فرط الألم بسبب اختراق عدد من البلي للحمه، يعاني الاختناق بل ويسعل بشدة وقد احمر منه الوجه. جذبت زجاجة خميرة وصببت منها على وجهه كي يهدأ الالتهاب وجررته جبرًا إلى حيث سور المدينة والذي تحفه الأشجار متوسطة




الارتفاع.. كم أنت خفيف الوزن يا شيخي، كومته هناك ورجعت بسرعة متفاديًا قذائف الخرطوش ودخان القنابل. ألمح بعض المصورين من القنوات المختلفة يصورون الوضع وكأنهم في بث مباشر لكرة القدم. لمحت منهم صديقي المذيع والذي عمل معي لفترة في إحدى القنوات الحقيرة، إنه المذيع الجريء الذي قدَّم استقالته على الهواء اعتراضًا على توجهات القناة. لمحني بدوره فأشار لي، فتقدمت منه بحذر:

- إيه اللي جابك هنا يا تامر؟

- كنت مخطوف هنا، قفشوني وانا داخل من بوابة الفندق.

- طيب امشي مع السور لحد بوابة اتنين وهناك هتلاقي الأمن واقف هيخرجوك.

- معايا الضيف اللي كنت جايبه في البرنامج.

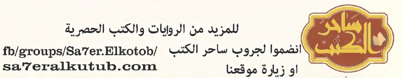
أبرز زميلي العزيز بطاقتين تعريف لإحدى القنوات وقال- علق ده على رقبتك أنت وزميلك وهيخرجوك.

شكرته من قلبي ورجعت حيث الشيخ (أسامة) القابع تحت السور

شققت جلبابه الأبيض وأزحت عمته عن رأسه فظهر شعر رأسه الأسود الطويل وهو ينظر لي غير فاهم، ثم فتحت حقيبتي وأخرجت قميصي النظيف، وألبسته إياه بعدما كتمت الجروح النازفة كيفما اتفق، من حسن الحظ أنه يلبس «شورتا» تحت الجلباب، ومسكت شعره وضممته في ذيل حصان بواسطة قطعة قماش فبدا ثوريًّا لا يمتّ أبدًا للتيار الإسلامي حتى مع الثلاث زبيبات.

وجررته جنوبًا بمحاذاة السور مميما شطري تجاه البوابة الثانية للمدينة وهي مسافة طويلة توازي طول كبري قصر النيل وأكثر، ابتسمت وأنا أراه في هيئته الجديدة كأنه ليس هو.

إلى أن وصلنا فوجدنا ازدحامًا من رجال أمن المدينة أنفسهم، فألبسته بطاقة التعريف، وأشرت للأمن بأن يسمح لنا بعبور المتاريس، في الأول لم يستجيبا ولأنهم مشغولون هم الأُخَر بتأمينات أخرى، اقتربت أكثر منهم فاستوقفوني، فأبرزت لهم تصريحي الخاص وأشرت للشيخ أسامة.



- ده كان ضيفي في برنامج الأبراج.

فلم يظهر عليهم أنهم يرونه أصلًا.

-.............

- قفشونا واحنا داخلين من بوابة موفيمبيك.

فأشار الحارس لقائده فذهبنا له وظهر عليه عدم الاقتناع

- أنا ما أقدرش أدخلك المدينة لكن أقدر أخليك تاخد الطريق المعاكس وانت تتصرف فوافقت وأنا أجرّ الشيخ (أسامة) جرًّا .

أخيرًا نحن بعيدون عن جحيم الفض، لقد نجونا بأعجوبة، ووقفنا في الطريق المتعامد على طريق المدينة ننتظر أي مركبة تقلنا بعيدًا، فقال لي أسامة والألم يرتسم بعينيه، - وقف أي عربية وقولّهم حي (بيفرلي هيلز)

نظرت له متعجبًا، فحي (بيفرلي هيلز) مشهور بثرائه الفاحش وسكانه القشدين، وهو ما لا يتناسب معه مظهر الشيخ أسامة ولا مظهري أنا أيضًا.

- متفائل ..ها؟

- اسمع كلامي يا صديقي.

- بيفرلي هيلز يا أسطى.

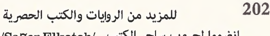
هكذا وجهت كلامي لسائق العربة السوزوكي المار بجانبنا، الأهالي يسمونها (التومناية) نسبة لأنها تعادل واحدًا على ثمانية من الأوتوبيس فتوقف بعد مسافة فجررت الشيخ أسامة الذي بلغ منه الإرهاق والألم مبلغه ولمحت التشكك في عيني السائق ولكن بادرته.

- هَرَوقَك يا أسطى ماتقلقش بس ودينا بسرعة.

وصلنا لبوابة المنتجع الفخيم فاقترب منا حراس الأمن في تشكك ورفض مبدئي للعبور، هذا ما كنت أتوقعه، ولكن ما إن وقعت عيونهم على الشيخ (أسامة) حتى أفسحوا الطريق باحترام وألفة

- هنا أنا أسكن يا صديقي..

***



أشارلها الصبي في صرامة بالصمت فوضعت «عايدة» كفها على شفتيها كاتمة النحيب والنشيج الذي يظلله الموقف المرعب، بل وأغمضت عينها حتى لا ترى ذلك الكائن، شهيقها يسابق زفيرها وانخرطت في نوبة بكاء مكتومة والجسد البدين يهتز رافضًا كل ذلك الكبت، وحانت منها نظرة خاطفة تجاه جسد ابنتها فلم تجد الولد، فحركت كفها بعيدًا وهي مستمرة في البكاء القاهر لجهازها العصبي، ولكنها لن تجرؤ على الاقتراب، الصمت يلف المكان بعدما كان، اقتربت من ابنتها ولكنها أبدًا لم تجرؤ على لمسها، داخلها شعور بأن ابنتها الآن ليست للاقتراب، ياربي ثمة دخان يصعد من حولها متلويًا بخلاعة، ثمة شبكة تتكون حولها من الدخان، تتقاطع خيوطه في انضمام مؤكد، هرعت للخارج لا تلوي على شيء ووقفت بردهة منزلها تنظر بذعر في جميع الاتجاهات، ما الذي يحدث، وأين ابنتي هبة، لقد افترسها شيطان في المرآة، لن يصدق أحد تلك القصة حتى ولو أقسمت أعوامًا، بحثت عن هاتفها المحمول، أين ذلك اللعين؟ نسيت تمامًا أين تضعه ولكنها قلبت البيت رأسًا على عقب تبحث عنه كمجنون في بؤرة الأزمة، أعصابها تتخلى عنها ولم يعد البيت حيزًا كاملًا للأمان، وراء كل شيء شيء، حتى باقي مرايا البيت باتت تتجنبهم، البيت مملوء بالجن أو الشياطين لا تعرف تحديدًا، ولكن الموضوع لن تسكت عليه، وقفت تلتقط أنفاسها من الدوار الذي اعتراها بسبب الجهد المبذول في البحث عن الهاتف، عندما كنا صغارًا كانوا يقولون لنا عن الأشياء المختفية أن الشياطين تأخذها متعمدة ولا ترجعها إلا قلنا البسملة، فعلت عايده وقالت أن بسم الله الرحمن الرحيم، انذعرت أكثر عندما وجدت الهاتف موجود على أول مقعد كانت تجلس عليه وهو تدخن النرجيلة، كان في مكان ظاهر جدًا، ومتوقع جدًا، ولا يحتاج أبدًا لكل هذا التنقيب، أمسكته كأنها تمسك يد ميت وطلبت رقمًا تحفظه ولا تسجله باسم فأسرع الموبايل بإظهاره كمقترح فطلبته وانتظرت، قبل أن يرد الطرف الآخر وفي خلفية صوته أصوات موسيقية عالية جدًا كأنه في فرح شعبي فصرخت بدويّ عالٍ لتسمعه صوتها:

- إلحقني يا (حشمت) ... أنت السبب يا (حشمت).. أنت الس....

ثم صرخت ملتاعة ورمت الموبايل أرضًا عندما شعرت بيد صغير تمسكها من كفها، وجرت للركن المقابل فأسقطت شاشة عملاقة كانت تحتل الحائط بأكمله.

لقد كانت اليد الصغيرة للولد الجميل، لكنه بادي الصحة والأناقة والحضور الطاغي.. كان الولد ينظر لها بتركيز.. ويبتسم

***

منذ عدة شهور مضت

عادم البخور الفوّاح يُغلف المكان، بينما جلست عايدة متكعبة على وسادة جلدية وقد انبعجت وتفلطح ردفاها في وضع مؤلم، حافظت أن يكون ملائمًا بظهرٍ مفرود فزادها الوضع إيلامًا، كانت تنظر بقلق غامر نحو ستار قماشي منسدل في ركن الغرفة، ووراء ذلك الستار كانت مروة تخلع ملابسها كاملة، وترتدي ثوبًا قصيرًا من الخيش الأبيض مرسوم عليه طلاسم سريانية ورموز فرعونية، ثوب لا يستر من جسدها إلا الجِذع فقط، أمّا الذراعان وجزء من النهد والساقان فكلهم مكشوفين، وقفت تتأمل نفسها كحورية انبثقت حالًا من شرنقتها الجامدة أو كروحٍ هائمة بعدما فارقت جسدًا متحللًا، ووقفت تنتظر بتوتر الأوامر بالعودة إلى حيث تجلس أمها، كانت مشكلة عنوسة «مروة» تؤرّق الأم كثيرًا، كانت فكرة عدم وجود رجل أقبل على الزواج من البنت تتضخم أمام عينيها، آمنت بشكل كبير بأن الموضوع لابد وأنه يمُت بصلة لسحرٍ ما، أو عمل شيطاني جعل من البنت بضاعة بائرة لا يطلبها المشترون، ومع جمال «مروة» المبهر كانت الأسئلة تتصادم في عقل أمها أن لماذا ... بعد قليل يدخل رجل فخم يلبس السواد ويجلس على وسادة بجانب الأم، أمامهما مائدة مستطيلة فارغة منخفضة الارتفاع، على رأس المائدة وعاء من بخور ينفث الدخان بكثافة.

- تعالي يا قمر..

هكذا نادى الرجل لتخرج «مروة» بلباسها المسطور بالطلاسم وعريها الناضح بالغواية، توترت الأم حين وجدت ابنتها شبة عارية تقف أمامهما هكذا، اختلجت



شفتا الرجل ارتعاشًا رغمًا عنه وهو ينظر بانبهار إلى هذا الجسد الوضّاء، فبياض بشرتها مع توترها حول جسدها لشعلة من غواية، اصطلت في جوف الساحر، كان هذا الساحر هو (حشمت)، شريك «عايدة» وبديل زوجها الغائب وقت اللزوم، كانت عايدة تمده بمسحوق الهروين وبأي كمية هو يحتاجها، أما هو فيقوم باستخدامها مع الزبائن وليس تعاطيها فقط، فما أن تدخل إليه (الزبونة) ويشرع في علاجها والتفاعل مع حالتها حتى يمرر لها جرعة دقيقة من البودرة متمثلة في شربة ماء مقروء عليها ما يبدو وكأنها آيات، أو أكل تمرة مطعمة بالهروين لزوم حرق الشياطين، أو فنجان القهوة المدسوس بعقار الهلوسة والهروين أو استنشاقه كبخور، فتتحول الزائرة لأيقونة من الانتشاء والظن بأنها في حضرة هذا الساحر تتخلص فعلًا من سمومها الروحانية ، أما هو فيستنفذ منها ما يشاء من موارد، والزبونة لا تعلم أنها واقعة تحت تأثير الهروين أو عقاقير الهلوسة، ثم تبدأ رحلة الإدمان المقرونة بالعلاج الروحاني، والتي فيه لا تستطيع الزبونة الاستغناء أبدًا عن (حشمت)، لا روحانيًا ولا كيميائيًا، خصوصًا أن الرجل حساس جدًا في الجرعة التي لا تطيح بعقل الزبونة وتجعلها لا تصل لدرجات الإدمان الواضحة، والتي فيها قد يفتضح أمره حقًا إنه حريص كذبابة، كانت لقاءات (حشمت) ب(عايدة) قديمة قدم زواجها نفسه، كان بمثابة الذراع الأيمن لأبيها وكانت تعشقه، ولما مات الأب احتفظت «عايدة» بمصادره في تجارة البودرة وتركت مصادر تجارة الحشيش للمتبقي من رجال أبيها، لم تكوني بذلك الغباء يا «عايدة» حتى تفشي كل أسرار أبيك، حتى لعشيقك كي تجعليه دومًا في احتياج لكِ أنتِ، لكن حشمت كان له رأي آخر وفي مقابلة سريرية بينهما صارحها بها:

-أنا طالب القرب منك يا «عايدة».

تورّد وجه «عايدة» بخجل كبير وأطرقت أرضًا، فهي تنتظر تلك اللحظة منذ أمد بعيد، يرجع لتاريخ انفصالها، لقد توقعت أن يقبل عليها (حشمت) بعدما زال جلمود الصخر من تيار علاقتهما، لقد كان الطريق مفتوحًا أمامه طول الوقت ولكنه أبدًا لم يصرّح لها بالرغبة في الارتباط، واكتفى منها بالعلاقة التجارية والجنسية، حتى

مع تلميحها له في عدة مناسبات حميمة كان يتهرب بشكل مقصود أورثها ضغينة في صدرها تجاهه.

- أنا طالب القرب منك في بنتك (مروة).

في بادئ الأمر لم تستوعب «عايدة» الجملة جيدًا ولكن ما إن ذابت العبارة في سوائل إدراكها حتى عرفت أنها على وشك ارتكاب جريمة.

- بتقول إيه يا (حشمت) الكلب؟

تهاوى على صدغها بصفعة قاسية.

-أنا كلب يا بنت الكلاب؟

ولمعت عيناه بلهيب يوشي بعلاقته مع الجن والشياطين فهو معالج روحاني عتيد، استقى عمله بعدما هجر كار المخدرات بموت معلمه (زايد الغول) وأبقى على علاقته بابنته الكبرى ببساطة لأنها كانت عشيقته التي تمنحه لحمها يغرز فيه ما شاء من رماح ولا جدوى من الاستغناء عن خدماتها المخملية. وفلح (حشمت) أيما فلاح في مهنته كساحر له وزنه، وله زبائنه من علية القوم سواء رجال أعمال أو سياسيين أو سيدات مجتمع راقي يطلبن رضاه وحضوره في أي وقت.

- بتطلب تتجوز بنتي وأنا لسه جنبك على السرير يا حشمت؟

قالتها بعويل يُنذِر بغضبة آتية في الأفق فنظر لها حشمت قائلًا:

- مش أحسن من قعدتها بايرة جنبك؟

- يعني بدل ما تساعدني نعملّها حاجة تطلب تتجوزها أنت؟

فبادلها نظرة قارحة لا تتأتى إلا من فاجر حقيقي.

- وماله.. أنا زي الفل وانتي عارفة، وبعدين هنجيبلك حفيد تفرحي بيه.

فلمعت في عينها نظرة شريك الجريمة وهو يواجه صاحبه.

- يبقى انت بقى سبب بوارها يا حشمت، أكيد انت عاملّها حاجة توقف حالها عشان تلهفها انت.

نظر لها (حشمت) بجبروته وصراحته المتناهية:



- تفتكري فيه حد هياخد بنت تاجرة البودرة يا «عايدة»؟ انتي فاكرة الناس غبية ومش فاهمين، لولا بس إنك طليقة واحد (لوا) كان زمانك مدلدلة في الحبل يا قلب حشمت من جوا.

- مشنقة ..؟ انت بتهددني يا دجال؟

لانت ملامح (حشمت) ولعب بحاجبيه واقترب من عايدة يطوّقها بذراعيه ومد يديه يُزغزغ بطنها العجيني:

- يا قلبي مش عاوزك تزعلي وفكري في الموضوع كويس، أنا ماحبش أبدًا أزعّل حماتي مني.

لكمته عايدة بغل وقامت من السرير تحاول أن تلملم لحمها المبعثر المرتعش من الغضب، وترتدي ملابسها بعصبية.

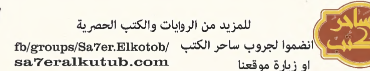
- ورحمة أبويا لأربيك يا (حمشت).

فرفع عينيه لها قائلًا بكل برود:

- اِتلمي يا فوحشية واعرفي إني ممكن أذيكي بجد.

جفلت عايدة من كلمة (الأذى) فهي تعرف مدى قوة (حشمت) الروحانية ولكنها اندفعت خارجة لا تنوي على شيء وانقطعت الصلة بينها وبينه لأكثر من شهرين، مشددة على ابنتها بعدم التعامل تمامًا مع حشمت. لم تتصور أبدًا أن ينغرس نصل حشمت في لحم ابنتها كما انغرس مرارًا في لحمها هي، إنها لن توافق على هذا العرض، إنها تحب ابنتها وترى لها مستقبلًا أكبر من مجرد زوجة لعشيق أمها، وقابلت «مروة» «معتز» ووجدت الآن ضالتها في ثرائه ونفوذه ضد ضغط (حشمت) وباركت زواجهما خصوصًا أن «مروة» كانت تميل لـ (حشمت) باعتباره بديلًا للأب الغائب وتحكي معه كثيرًا على غير رضا من الأم، ولما استفحلت مشاكلها مع معتز اقترح (حشمت) بأن يقوم بعمل جلسة روحانية يوقف «معتز» عند حدوده أو تجعلهم يتخلصون منه.

***



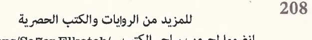
تمددت «مروة» بجسدها الذي طالما حلم به أمامه على الطاولة المنخفضة، وشرع يتحسس بأطراف أنامله كتفها وصدرها وساقها الناعمة وهو يغمض عينيه يتلو من آيات الشياطين، كان يقاوم بقوة ذلك الإغواء الذي دب في مفاصله تجاه جسدها النافر، عايدة تتأمل الموقف وتراقب -في تحفز- أي تجاوز قد يبدُر منه تجاه ابنتها، ولكنه كان جادًا صارمًا في طقوسه، خصوصًا عندما بدأ في الكتابة مستخدمًا ريشة وحبرًا أحمر، لكن، لكن، ثمة شيء يحدث للبنت بعدما انتهى من كتاباته التي ملأت جلدها العاري، لقد ذهبت في ثبات عميق كما لو كانت ستجري عملية جراحية الآن وهي تحت المخدر الروحاني بلا شك، بدأ حشمت في تلاوة تعاويذه على الجسد المسجى أمامه، في الأول لم يحرك الجسد ساكنًا ثم بدأ في الإتيان بحركات ماجنة نابعة من ذوبانه في عملية حميمية حقيقية، لقد كانت الشياطين تضاجع البنت على مرأى ومسمع من أمها التي لم تفقه شيئًا سوى أن الموضوع له طابع جنسي.

- البت مالها يا حشمت، بتعمل في البت إيه يا حشمت؟

فنظر لها حشمت نظرة صفراء ليخرسها ويتابع التلاوة، حركة الجسد تزداد عنفًا بل وأن الثوب البسيط الذي ترتديه مروة أخذ في التفتك من مواضع عدة، ثم سَرَت شرارة ما قذفت بالأم وحشمت نفسه بعيدًا، الشياطين تأبى أن يلمس أحد الجسد المملوك لهم، كانت حقول من الطاقة الحمراء والبرتقالية تتقاذف شرارات كهربية تحول دون الوصول أبدًا للجسد، (حشمت) يراقب الموقف بتأني وتعتريه رجفة الحضور القاسي لأسياد الجن المصاحبين له، لقد بان أن الأمر بالفعل خارج عن سيطرته هو، أما عايدة فقد أيقنت أن ساعة الانتقام من أفعالها يتجسد الآن أمام عينيها.. ما زال الشرر يتقافز ويشهر عداوة واحتقار، الأم في حال يرثى لها بينما ظهر على وجه حشمت شبح ابتسامة واختلجت أعضاؤه براحة الانتصار.

***

الفخامة والثراء الفاحش يطلان بكل جبروت من هيئة الفيلا الخاصة التي توقفنا أمامها، لابد أن هذا (الأسامة) ثريًا حقًا ويملك الكثير ليقتني مثل هذه الفيلا الرائعة بحديقتها الواسعة وحمام سباحتها الأزرق وكل تلك الأرائك والوسائد والأرجوحة



وكلاب الحراسة، لقد انفتح الباب الخارجي عن عالم لا أجده سوى في المسلسلات، الديكور الخارجي متكلف لدرجة الرفض، والمكان كله كأنه صورة إعلانية ضخمة على الطريق الصحراوي للواقع المرير الذي يعيشه الملايين، أما مبنى الفيلا فكان كلؤلؤة طازجة في ثنايا محارة خضراء، لاحت مني التفاتة ل (أسامة)، فوجدته متألمًا ينضح الملل من عينيه، سارت عربة الأجرة حتى توقفت أمام باب الفيلا السلطاني، وانتظرت لبرهة حتى هرع رتل من الرجال مسرعين للعربة، وفتحوا الباب متفحصين، وبان عليهم القلق العميق لمظهر صاحبي، كانوا خمسة رجال مختلفين الهيئة ولكن تنبعث منهم رائحة الأناقة، ويشي شكلهم بالابتعاد عن عادم الحياة اليومية المغبر، كانوا أكثر نظافة وأناقة من صديقي نفسه، ساعدتهم في حمله لخارج العربة ونقد أحدهم وكان يطوّق إحدى أذنيه بقرط ماسي، نقد السائق ورقات من فئة المئتان جنيه، تقبلهم السائق مبهورًا، فأشار له الشاب بكل غرور أن انصرف، فأدار محركه منصرفًا على عجل تاركًا إياي وحدي في الحديقة بعدما أدخلوا (أسامة) لقلب الفيلا، الآن أقف وحدي حاملًا حقيبتي في مدخل الفيلا، ولا أجد أي شخص حولي، لقد انصرف الجميع لإسعاف الشيخ ولم يلتفت أحد حتى لوجودي.. شعرت بالمهانة العميقة وقررت الانصراف فورًا، وقبل أن أتحرك مغادرًا المكان خرجت من الباب فاتنة بلاستيكية سيليكونية كيرياتينية جيلاتينية بروتينية، لقد بدت مألوفة بشدة لدرجة أنني لم استوعب أبدًا أنها تلك المطربة الاستعراضية اللبنانية المليونيرة ذات المقاطع الجريئة والأغاني نصف الفنية والتي تهاجمك في كل لحظة لو فكرت وفتحت أي قناة، يا إلهي إنها هي. هي فعلًا (هـ. و) ذات المقاييس الصاروخية.. هل أذهب الآن؟ أم أظل واقفًا محدقًا شخصها الغير معقول؟ شيء ما في المشاهير يجعلك تحدق في ملامحهم وتقارنها بما تراه على الشاشة، لقد بدت بدون مكياج ولا رتوش يشي وجهها بعمر لا تفضحه ظلال المكياج، ويشي أسلوبها مللًا واكتئاب غير خافٍ على شخص مثلي يبحر في الشخصيات، كأن وجهها الفقير من الزينة يتكلم عن إنسان تكاد أن تفيض روحه من القنوط، تذكرت أنني أشرت إليها في حلقاتي التلفزيونية قبل

سابق واعتبرتها نموذجًا صارخًا للمرأة برج (الحوت) بكل تسلطها وكبريائها وإقدامها الجريء على الحياة، لكني الآن وأنا أراها نصب عيناي أدرك أنها واحدة أخرى بينها وبين الانتحار.. خطوة، قطعت حبل أفكاري الواهي بابتسامة ترحيب.. باهتة وأشارت لي أن أتبعها إلى الداخل.

* * *

بدا أن الجلسة فشلت فشلًا ذريعًا وأفاقت مروة، لا تعرف ما حدث فقط تشعر بأن عظامها تؤلمها كأنها خرجت لتوها من تدريب عنيف، تركت الشيخ (حشمت) في حيرة أكبر من المعتاد، بعد أن زهد تمامًا فيها، واكتفى بالمعاملة التجارية فقط، يوجد شيء غامقة ألوانه مستعارة تفاصيله لا قبل له به، ثمة جبال تتسلقها وجبال تسقط في فوقها، وهذا الجبل ينذر بالسقوط ودق الأعناق لو حاولت الاقتراب من حافته، تركته مروة وأمها وهو في حالة ارتياح غير ظاهر، فلا بخور ولا طلاسم ولا علم تعلمه على مدى عشرين عامًا قادرًا على شق جدار النار الذي شاهده، لكن الجلسة أسفرت عن حقيقة مؤكده بأن القدر يستقبل شيئًا ضخمًا، أكبر منه ومن عايدة وابنتها، أكبر من تجارتهم ومن علاقته السرية طويلة الأمد بالأم، أكبر من الزمرة مجتمعة، بل قد يكون أكبر كثيرًا من البشر، تراخى في مجلسه بعد مغادرة السيدتين له، أمسك بنارجيلته المطعمة بالحشيش، شد أنفاسًا معبقة بالدواركي يرتب أفكاره، لم تكن حالة «مروة» كحال النسوة اللاتي يأتين له شاكيات من حرمان أو خيانة أو هجر، لم تكن حالة لبس من شيطان أو مس من جني عاشقا كان أو مجبورا بفعل عمل سحري، بل ما شاهده يسمو فوق ذلك الخبث كله، شيئا له طابعا كونيا لا يقبل الهزيمة، أمسك بالهاتف ودخل على صفحته ب(الفيس بوك) ليُلقي بعضًا من الأدعية الجوفاء والتي لا طائل منها مادامت خرجت لتوها منه هو، صفحته كبيرة وبها الكثير من المتابعين لمعجزاته، كان يريد أن يستنيم نفسه بتأثير المتابعين والمادحين والمتقربين له الآن، لعل ذلك حيلة دفاعية هيأها له عقله حتى يتخلص من عجزه في علاج (مروة)، ثم من ذلك الذي كان ينظر له بكل هذه الكراهية؟، لقد بانت نظرته



مسعورة ككلب يوشك على عض ساقيك، إن وجهه ليس غريبًا عنه أبدًا، ولكنه لا يذكره، تفحّص صندوق الرسائل خاصته، مئات منها تطلب المشورة والمقابلة، هو لا ينتقي إلا السمين الطافح بالثراء منهم، ثمة رسالة كانت بمثابة رد قديم على رسالته هو، إنه المغرور التافه (تامر عطوة)، والذي يحسب نفسه قادرًا على فعل المعجزات بكلمات وحلول يسميها اقتراحات إيجابية، دعنا نرى يا عزيزي ما الذي قد تفعله حيال تلك المعضلة، أمسك بهاتفه وطلب رقم «عايدة»..

- فيه واحد اسمه تامر عطوة ابحثي عنه في (اليوتيوب). أنا متأكد إن الواد ده معاه حاجة تخلص «مروة» من اللي هي فيه.

- حاضر هشوفه.. سلام.

قالتها عايدة باستهانة وإن كان الاسم له رنينٌ مألوفٌ وأرجأت التنفيذ لاحقًا.

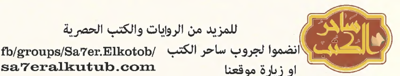
إلى أن ألقت بها الظروف في لطمة قاسية تجسدت في اكتشاف العلاقة الإباحية بين زوج ابنتها وابنتها الصغرى «هبة».

***

دخلت وراء الفنانة المشهورة إلى بهو الفيلا، أين (أسامة)؟ لا أجد له أثرًا.

كأنما تم إخفاؤه، أما هذه الغادة فكانت تنظر بخواء غريب، بدت لي كروبوت يمشي بالتوجيه عن بُعد، كانت تلبس قميصًا رجاليًا غير مهندم مع شورت من الجينز القصير المهترئة أطرافه وتنتعل خُفًا من القطيفة، وتتجول هائمة في المكان كما لو كانت شبح حديث العهد، راقبتها وهي تجلس على السلم الداخلي للفيلا، وتنظر لي بملل، ولكن لا حديث أو تواصل لفظي، هل أنتِ خرساء يا عزيزتي، أين لسانك الذي يقطر إغواء في كليباتك، أين جمال عينيك أمام تلك المحرفة من كثرة البكاء، قبلَ أن تجلس أخرجت من جيبها الخلفي زجاجة مسطحة صغيرة وجرعت منها رشفة عميقة، أها إنكِ تعاقرين الخمر أيضًا في عز الصباح، لابد أن الأمريشي بأزمة طاحنة تمر بها تلك الفنانة.

رأيت شخصًا ينزل مهرولًا وهو يتخطى الفنانة بلا اهتمام في جلستها على السلم،



تظهر عليه مظاهر الشعبية المصرية بذقنه نصف المحلوقة وزبيبة صلاته وجلبابه القصير وسرواله الداخلي الرمادي:

- حضرتك الأستاذ تامر؟

وقبل أن أجيبه بادرني بسرعة:

- اتفضل معايا الشيخ عاوزك فوق.. وأشار للأعلى.

تبعته وأنا أتجاوز الفنانة الغارقة في ممرات السكر.

كان الدور العلوي لا يقل في الفخامة ولا في التنسيق بحجرات على جانبي بهو أقل اتساعًا من أسفل، مررنا بغرفة يحتشد فيها بعض الشباب وثمة خياط يجلس على ماكينة خياطة وأحذية نسائية لامعة بلا عدد وملابس مكدَّسة على الشماعات، ثم وصلت لأخر غرفة في البهو ودلفت لها وراء ذلك الرجل الجلبابي.

ثمة تناقض واضح بين الجلباب الأبيض القصير وكنوز الموضة التي رأيتها في الغرفة السابقة لابد أن الموضوع يخص الصاروخ الحزين الجالس على درجات السلم.

وجدته مطروح على الفراش والتعب بادٍ على كل تفاصيل وجهه، كان عاري الجزع تتدلى ذقنه الناعمة على صدره، ثمة عشرة أو أكثر من موضع اختراق للخرطوش تعمر مساحة متناثرة من صدره وكتفه وأعلى ظهره، فبادرته:

- لازم دكتور يا أسامة. الخرطوش مالي صدرك.

ظهر الرفض القاطع على وجهه قائلًا:

- لا لالالا.. مش هجيب دكتور . تعالى انت يا تامر شيلهم.

نظرت له بذعر رافضًا:

- أنا ..؟ وأشيلهوملك ازاي إن شاء الله.. بالماشة..(ماسك الفحم)؟

- لأ.. بالحجامة؟

-مش هقدر يا أسامة.. ماعرفش صدقني.

- هتعرف.. أنا ماقدرش أقول لأي واحد من رجالتي يعمل كدة.

- ليه ..؟



- إيديهم غشيمة وماينفعش يخرج واحد منهم يقول أنا عالجت الشيخ (أسامة)، لكن انت ابن كاروزميل. يلا يا «تامر» بالله عليك . جسمي مولع نار من الخرطوش.

وكعادتي في التورط وجدت نفسي أمسح بالزيت ظهر الشيخ وأشعل النار في قطع القطن بعد أن بللتها بالكحول وهو داخل الكأس الزجاجي الصغير، ثم أبعدتها وأنا أطبق حافة الكأس الدائرية حول مكان البلية. فعلتها مرارًا لأغطي أكبر مساحة من ثقوب البلي الثاقب لجلد ظهره، وبالفعل بدأ البلي يخرج لفراغ الكأس بعد أن ساق القليل من الدماء الداكنة قبله، يظهر على أسامة التعب والألم، ولكنه صامت يكتفي بتوجيهي إلى حيث أماكن الاختراق الحارق، وتذكرت الفنانة التائهة أسفل..

- إيه اللي جاب (هـ..و) هنا؟ انت بتشتغل طبال بالليل يا شيخنا ولا إيه؟

لوى عنقه ناظرًا إلي في تركيز قبل أن يقول في عتاب خفيف:

- طبّال ..؟ سامحك الله يا صديقي...هي تبقى مراتي يا تامر.

***

لساعات طويلة كان الرائد (حسام) يجلس بسيارته قبالة عمارتي واعتراه القنوط والعصبية، فلا أخبار أكثر من أنني غير متواجد في المنزل، حتى هاتفي كف عن الرنين، من الواضح أنه فرغ من الطاقة وأنه يرقد الآن في بيتي بلا شحن، كان يحاول أن يرتب الأفكار في ذهنه، لقد استعصى عليه طريق «معتز» تمامًا أما أنا فغائب حتمًا رفع هاتفه النقال وطلب رقمًا:

-اللي اسمه تامر ده مالوش أثر.

- ..

- معتز ده كأنه مات ماعرفش عنه أي معلومات

- ..

- يا فندم صدقني أنا روحت الأستوديو وعملت المستحيل وجبت عنوان تامر وقاعد بقالي ساعات تحت العمارة لكن ما فيش أي أخبار عنه.

- ...



يا فندم أنا بشوف شغلي والله لكن ..

-..

- حجح.. حج حاضريا فندم هعمل كل اللي في وسعي.

انتهت المكالمة تاركة وجه (كرعون) في حالة شياط متلوّن بكل ألوان الطيف الغاضبة بين البرتقالي والأحمر، وشعر بالعجز تجاه الاستدلال حول فرائسه، وأخذ عقله يعمل بسرعة الصاروخ، كيف سيصطاد فرائسه مهما كان الثمن، إنها المرة الأولى التي يتحدث فيها رئيسه له بمثل تلك العصبية. إن الاعتداد بالنفس كفيل بتخريب أي بروتوكول، ومن ثم قرر أن يقتحم شقة تامر لعله يجد ما يوصله لمكانه، الأمر العسكري لا يعرف المزاح.

***

لم يكن الطفل(نبيل) كما تظنون أبدًا بل بدا أقرب لطفل حسن التربية وافر الصحة، إن قلب (ماهيتاب) يتعلق به يومًا عن يوم ونموه أيضًا يتعاظم يومًا عن يوم، هو الآن يبدو في الثانية عشر أو أكثر قليلًا، صافي البشرة يمضي أوقاته باللعب ومطالعة التلفاز بنهم غير عادي واهتمام فائق، وكانت ماهيتاب ترقبه عن اهتمام حقيقي وحنانٍ جارف، وتشعر أن القدر أهداها عطية لا ترد ومنحة ذهبية كي تكون أم ، كانت تشعر أنها مكلفة بالعناية به وبأنها تتشرف بهذه الخدمة، إنه ابنها ابنها ابنها، تسلطت عليها الفكرة أيما تسلط، سقطت من ذاكرتها عنوة كل المشاهد التي كانت ترى فيها عملية الرضاعة الشاذة والظروف العجيبة التي أتت بالولد لحياتها الخاصة، كانت شقتها غارقة في الصمت دومًا لا يقطعها إلا صوت التلفاز يبث سمومه الإعلامية في أرجاء المكان، أما التواصل بينها وبين «معتز» فكان بالعين وكأنهم ثلاث نملات ضلت طريق السرب وسقطت في أمواج الزمن، وتتفاعل فيما بينها بالإشارات البيولوجية فقط، أولنقُل تتفاعلا فيما بينهما بالتخاطر، كانت تسمع رغباتهم داخلها دون أن يغلفها صوت، ولكنها كانت سعيدة بلا سبب،

...

- بتقول مراتك يا شيخ (أسامة)؟

اتكأ أسامة على وسادته بعدما تمت عملية نزع كل البلي المخترق لحمه بفعل الخرطوش. وظهرت عليه مخايل الاسترخاء وهو ينظر إلي، ومدَّ يده واضعًا إياها على كتفي وظهر الامتنان العميق وهو يقول:

- انت إنسان متميز يا تامر وليك عندي فضل كبير. انت تقريبًا كده أنقذت حياتي وأنا عمري ما هنسالك الفضل أبدًا.

ارتبكت تمامًا إذ أنني لا أعرف البروتوكول المصاحب للاعتراف بالفضل، بل يعتريني لعثمة وارتباك كبير من هذا العرفان العميق بفعل فعلته تلقائيًا ولم أدبر له من الأساس، فتابع الشيخ (أسامة) قائلًا:

- انت خرجتني من وسط معركة وغامرت بنفسك وكان ممكن تتركني، ووصلتني لحد بيتي، بقالي كتير أوي ما قابلتش بشر بيعملوا كده خصوصًا في أيامكم السودة دي.

ابتسمت بإرهاق كبير وقاومت النعاس بتثاؤب عميق وأنا أقول له:

- المهم إنك بقيت كويس والحمد لله، أنا لازم أمشي يا شيخنا لحسن بقالي يومين ماحدش يعرف عني حاجة.

بدت نظرة اعتراض مهولة على وجهه وهو يقوم نصف قومة مجاهدًا الألم والربطات الطبية..

- تمشي؟ أقسم بالله أبدًا انت هتدخل تنام وترتاح وأنا هوصلك لحد وسط البلد بنفسي.

ثم غمز بعينيه قائلًا في مرح:

-أنا لسه ماعملتش الواجب، وانت لسه محروم من سماع القرآن يا صاحبي، وده نقص ماينفعش تعيش بيه، انت إنسان نقي.

وافقته بإحراج فأنا فعلًا أشعر بتعب غير عادي والخدر يدب في أنحاء جسدي لقد استغرقت عملية إخراج البلي أكثر من ساعة وكانت تتطلب تركيز كبير ضاعف من إجهادي أكثر وأحلم بحمام دافئ ونوم متواصل، قالها وقام بتعثر فأسندته، مشى معي

لغرفة رائعة ملحق بها حمام، بينما تراصت أنواع من الأطعمة الرائعة على صفحة موجودة إلى يمين الفراش..

-اعتبرها إجازة إجبارية، أسيبك دلوقتي وأروح أنا كمان ارتاح ولما تصحى نبقى نتكلم، هتلاقي في الحمام جلابية وغيار البسهم.

غادرني إلى الخارج متراجعًا لغرفته وقبل أن يغلق الباب تذكرت..

-إيه حكاية مراتك دي أنا مش مستوعب؟

نظر لي بتهالك وابتسم..

- تقدر تقول نصيب ومكتوب.

نصيب؟ زواجك منها مجرد نصيب، ما الذي يميزك يا شيخ أسامة حتى تجبر فنانة لامعة على الزواج بك؟ لعلها مصلحة ضخمة جدًا تلك التي تؤسس هذا الزواج الغير متكافئ تماماً في نظري، لم يجبني على سؤالي فقررت أن أنعم بالامتيازات، الطعام لذيذ والشراب ممتع، صنعت لنفسي شطيرة غليظة، وخلعت ملابسي التي باتت ممسحة للبلاط، وتوجهت للحمام وأنا أقطم من الشطيرة المطعمة باللحم البارد والجبن والمقبلات، وأخذت حمامًا عاتيًا وتوضأت وصليت ركعتي شكر لله، ثم أزحت الأغطية وذهبت مع الوسادة لرحلة بعيييييييدة.. جدًا قطعتها في سبعة عشرة ساعة تقريبًا.

***

لم يكن اقتحام شقتي بالشيء الصعب على (كرعون) أو الرائد حسام، فهؤلاء لا يعرفون أن للأبواب المؤصدة مفاتيح، لقد أدخل شيئًا لينا إلى ثقب الباب ومن ثم انفتح بلا مقدمات ولا أدنى مقاومة تذكر، شقة شخص وحيد يعيش كيفما اتفق بلا أي تحفظ، كانت معه كاميرا خاصة ترصد بانتظام كادر الاقتحام، لعله يلتقط شيئًا ذا بال، كل ما يعرفه عني أنني رجل عاطل يعمل في برامج الهراء والتي لا تغني ولا تثمن مع أمثاله من ذوي السلطة. من الذين يلوون عنق الظروف لو لم تسر على هواهم، بل أنهم قادرون على كسرها إن ألحّت الظروف، وهو أمر معتاد عند رجال الأمن، إذ أنهم يرون باقي الشعب منحرف إلى أن يثبت العكس، تعامل مع شقتي بمثل



تلك الطريقة، أضاء المصابيح بلا خوف، وتشمم هواء الشقة التي لم أدخلها منذ ليلتين، وفتش بهدوء في حاجياتي وتمعّن في البحث عن ما يدينني كأنني مجرم هارب، وبالطبع وجد هاتفي المحمول ملقى على الأريكة جثة هامدة، بالطبع لقد فرغ شحنه منذ يوم أو أكثر، أعاد وصله وقام فتح جهاز الكمبيوتر ليبحث عن أشياء لابد من وجودها، هي أشياء كانت في مخيلته فقط، يتجول في شقتي أنا بحق السلطة الذي لا يلين أمام الخصوصية، أها إنها تهمة أخرى، لقد وجد كتاب شمس المعارف بجانب الفراش، ثمة أثار على الأرض توحي بأنني أقوم بتحضير الجن والأرواح الشريرة، لا بأس لا بأس، لسوف تلبس قميصًا مقلوبًا لقضية دجل وشعوذة أيها التامر ولا فرار، رجع إلى هاتفي ورفعه وفتحه وتفحص ملف الصور، ليست صور كثيرة ولكن توجد ثلاث صور تحمل الدليل، إنها صور مروة أو بمعنى أصح صدر مروة وبطنها، عليها بعض الكتابات الغامضة، اتسعت ابتسامته وهو يتخيل مدى انبهار رئيسه بالعمل الذي انجزه، من الواضح أن هذا الرجل يقوم بالدجل والشعوذة بل ويقوم بالتغرير للنساء ورسم طلاسم على أجسادهن، إنها القضية الكاملة، ترى هل له علاقة بمعتز؟ أم أنه المتسبب الأساسي فيما حدث لمروة، فجأة انقطع التيار الكهربائي كعادة تلك الأيام والتي كان يسخر منها المصريون، انفرط حماسه وهو يحدق في الظلام وتوقف للحظة يقيس فيها أبعاد المكان حتى لا يتعثر بشيء، وضع هاتفي في جيبه وأمسك بكتاب شمس المعارف ولملم بعض أوراق الأعداد التي أقوم بتحضيرها للبرنامج ويمم شطره ناحية الباب وعزم على المغادرة، تذكر أن هاتفه يحمل كشافًا فكبس زر الضوء ليخرج خيطًا مركزًا من النور في حلكة ظلام المكان والعمارة ومعظم المنطقة، وقبل أن يصل لباب الشقة مُنهيًا ذلك الاقتحام الناعم تناهى لسمعه صوت حركة أو جلبة آتية من غرفة نومي، ألقى الكتاب جانبًا وأخرج مسدسه وشد أجزاءه وصوّب بيد متحفزة تجاه ذلك الصوت، توجه بتوتر بسبب الظلام ماسكًا الكشاف بيد والمسدس باليد الأخرى، ووقف بجانب الحائط لصيق الباب في وضع الاستعداد للهجوم، يأتيه صوت الحركة للمرة الثانية وتظهر وكأن شخصًا يعبث في غرفة نومي، انفجر الموقف عندما

استدار حسام فجأة مصوبًا الضوء والمسدس تجاه الصوت، ليجد.. ليجد.. ليجد شيخًا يجلس بجانب الفراش، هائل الجثة مشمرطة ثيابه بالية اثماله، أشعث يعتمر عمامة خضراء زاهية، ما الذي تشمه يا (كرعون)؟ هه، إنها رائحة البخور التي طالما كرهتها، ولكن لماذا تثير التعطن والتميع داخل نفسك، أنت يا أحمق يا غليظ العقل، هل تدرك ما أنت بصدده أم ستتعامل كضابط يعرف أنه لا مجال للمزاح، إذًا استعد للمرح يا مصدوغ الوجه، إنك في حضرة الشيخ على أبو ال.. ماذا يجري لك يا حضرة الضابط؟ لماذا قررت أن ترمي ما في يدك، لما تهز برأسك يمينًا ويسارًا كما لو كنت في حلقة ذِكر.. يا لها من نهاية.

***

تمطعت في كسل واسترخاء كبير، نظرت لوهلة لموجودات الغرفة الفخمة، لابد أنني نمت لدهر كامل، كم أوحشني النوم العميق دون الاستيقاظ على شيطان ماكر أو روح غاضبة، يا إلهي إن ذهني صافٍ تمامًا كما لو كنت مولودًا حالًا، قمت متوجهًا للحمام الخاص بعدما مررت على طاولة الطعام بجانبي، أشعر أنني بفندق خمس نجوم، تناولت شيئًا من العصير وتوجهت لتوي إلى الحمام لأخذ دشًا سريعًا، الوقت ينذر بقرب الفجر، لابد أن أصحاب البيت كلهم نيام تمامًا، خرجت من حمامي أشعر بانتعاش عجيب، نظرت من شرفة الغرفة المطلة على الحديقة فوجدت الشيخ أسامة يجلس مسترخيًا أمام حمام السباحة، كان وحده فأزحت النافذة وأطلقت له صفيرًا فرفع رأسه بتحية وابتسامة وأشار لي بأن أنزل له، فنزلت في طريقي وجدت الفنانة ترقبني بصمت وهي جالسة أمام التلفاز تتابع فيلمًا كارتونيًا، فازددت تعجبًا وأشرت لها بالتحية، فابتسمت بطفولة وتركتني لتتابع باهتمام طفولي ما تشاهده على الشاشة، توجهت حيث يجلس أسامة الذي قام باحترام وحب كبير وقبّلني على كتفيّ.

- ناموسيتك كحلي يا معلم..

- أنا نمت كتير فعلًا.

- من اللي شفته يا بطلي.



ابتسمت من الواضح أن الرجل يقدر ما فعلته معه، فأشار للخدم فأتوا بطعام وفيروعصائر فطلبت منه قهوة فقال لي:

- بلاش عشان تعرف تنام تاني.

- أنام؟؟ ده أنا حاسس إني مصحصح أوي ومش هنام تاني قبل أسبوع كامل.

- متهيألك انت لازم تنام تاني.

نظرت له بحيرة ثم سألته سؤالي الذي يلح علي باستمرار:

- قولي يا شيخ ازاي انت متجوز الفنانة (هـ..و)، أنا مش مصدق.

- قبل كده قلتلك المصالح بتتصالح.

- يعني إيه، ومصلحتك إيه معاها؟

- هقولك..

ثم انطلق الشيخ في إخباري بأشياء لم أكن أتصور أنها موجودة أصلًا، الفنانة تعاني من لبس شيطاني مزعج يجعلها تبدو في أحيان كثيرة كالبلهاء، وبالبحث في حالتها وجد الشيخ أن الفنانة تم تعميدها في إحدى الجمعيات السرية في (لندن) ولكنها تعاني دومًا من الأرق الطويل الأمد بل أن الموضوع يشمل أيامًا كاملة لا تنام فيها ولا يغمض لها جفن، كما أنها تبدو كما لو كانت عشيقة لجن شيطان ملازم لها يهمس لها ويثير جنونها. إنه متمركز في مرآتها التي لا تكل ولا تمل من النظر إليها، والشيخ أسامة تزوجها كي يجاهد هذا الشيطان الذي يعربد في أعماقها ويجعلها مهتزة طول الوقت.

- ويعني لازم تتجوزها عشان تعالجها؟

- هتصدقني لو قلتلك إنها مش مثيرة خالص كأنثى بالنسبة لي، بس في علاج حاجة زي كده لازم أكون معاها في الفراش عشان أعمل إزاحة للجن بوجودي كزوج حقيقي لها وأنا أتعامل مع حالة العشق أو الاقتران بشكل عملي.

- عشان كده شكلها غريب ودايمًا شاردة وتايهة؟

- دي كده اتحسنت، دي كانت رايحة في داهية، خصوصًا مع طلاقها اللي حصل من كام شهر كده وخسرت فيه صفقة بالملايين وكان بسبب السحر ومن فنانة مصرية

تقيلة وبرضه كانت زبونة عندي، انت عارف إن جوزها زبون عندي وهو اللي بعتها ليا بعد طلاقها.

نظرت له مندهشًا أكثر وأكثر، فقال إنها على علاقة صداقة الآن معه وهو يقوم بخدمة لطليقته ليس إلا.

- يعني من الآخرانت معالج عُرفي؟

- تقدر تقول كده وعلى فكرة هي ضيفتي مش أنا اللي ضيفها، وتعتبر الزوجة رقم عشرين على الأقل، أنا تزوجت كتير فوق ما تتصور وكلهم كانوا زباين وكنت باشترط الزواج حتى أدخل عليها بلا حرج. وماتنساش إني بعالج أكبر نجوم المجتمع وبساعدهم على تجاوز محنتهم، والرجوع لمجدهم، لأن الناس دي أدمنت الشهرة والأضواء والموضوع خرج برة حسابات المكسب أو الثروة والموضوع كله ورقة وشهود.

ثم استرد قائلًا لي:

- الشهر اللي فات كان عندي مطرب الجيل بحاله، كان بيعاني من عكوسات كبيرة ونقص في المعجبين وكان خلاص رايح على الظل برجليه، والحمد لله قدرت أساعده يرجع لبعض نجوميته.

إذًا انت مافيا روحانية يا شيخ أسامة ومن الواضح إنك تحصد ثروة من وراء نشاطك الروحاني، يا له من تخصص نادر أحسن إدارته الرجل، تملكني شيء من الحسد تجاهه وكأنه قرأ ما يدور في ذهني فبادرني قائلًا:

- على فكرة انت مؤهل كويس جدًا لأنك تعمل أكتر من اللي أنا بعمله، عندك قدرة غير عادية على الإقناع، ولك لمسة روحانية كبيرة يا تامر..

اندهشت من كلامه فاستأنف كلامه..

- كل شهر تقريبًا بيكون عندي حالة بكون مركز جدًا معاها وفي قايمة الانتظار ناس كتير مايخطروش على بالك من نجوم المجتمع وشيوخ الخليج ورجال السياسة وغيرهم.

ثم نظر إلي بتمعن قائلًا:



وانت بقى إيه حكايتك؟

تنهدت باسترخاء وشرعت أروي حكايتي بالتفصيل مع الأربعة نسوة والأحلام والجن الواقف على بابي وحرماني من سماع القرآن والأذان والشيخ على و..و

كان الشيخ أسامة يستمع إلي في تركيزكبيرولا ينبت ببنت شفة ولا يقاطعني أبدًا، ولكن شيء في وجهه جعلني أقلق، كان الاندهاش وعدم الفهم يتكاثفان على محياه كلما توغلت في الحكاية أكثر، بل ظهرأنه لا يصدقني بشكل كامل، أما أنا فكنت أتقيأ الأحداث أمامه بلا تحفظ وكأنني أعالج نفسي بلفظ ما يدور بأفكاري، أما هوفكانت ملامحه تتغير امتقاعا من شدة التركيز في حكايتي فما أن انتهيت حتى ساد صمتٌ استمرلدقائق قبل أن يبادرني قائلًا:

- كنت بتابعك في التلفزيون وكان عندي إحساس إنك مختلف عن الأخرين، كان عندك تأثير نادر أول مرة أشوفه على حد في البرامج دي، كشفت عليك يا تامرلقيتك مقرون بشيخ اسمه (الكاشف بن خليل) وهومن عتاة العلم والسحرفي عالم الجن، اقترن بيك من عشر سنوات تقريبًا.

نظرت له وقد اتسعت عيناي من الذهول، نعم كنت أسمع كلمة الكاشف والخليل في أحلامي وأراها مكتوبة في منامي، بل كنت أرى مكتبة قديمة مظلمة وثمة شيخ في عباءة رمادية يجلس ليدوّن شيئًا في كتاب ضخم غليظ صفحاته، كان أشيب الشعرطويل الذقن وقور ويملك عينين حساستين لهما بريقٌ يخطف قلبك، رجعت بالزمن للوراء، كنت في رحلة لجبال سانت كاترين حيث الطبيعة الرائعة والجو الروحاني الذي ليس له مثيل، صعدت للجبل مستعين بجمل يوجهه إحدى رجال قبائل البدو هناك. كان عام ٢٠٠٢ أو ٢٠٠١ لا أذكرعلى وجه التحديد، ولكنني أذكر جيدًا أنني قابلت شيخًا يلبس الأسود كان يجلس على صخرة عالية، مررت به فنظر لي وأشار بأنه يحتاج لتوصيلة، زعقت بالرجل أن يقف بمحاذاة الصخرة، لأنني لا أعرف كيف يوقفون الجمال، فذعن الرجل البدوي لطلبي وإن كان مندهشًا وتوقف بمحاذاة الصخرة لهذا الرجل، فقام الأخيروقفز برشاقة واستقرورائي واستأنفنا

السير والاستكشاف، تكلمنا في أمور كثيرة ووجدته لطيفا خفيف الروح كنت لا أشعر بوزنه تمامًا مع أنه جالس ورائي، كان يهمس لي بأشياء يعرفها عني ويخلطها بشيء من الدعابة فأضحك بعمق وأتخطى الدهشة إلى الألفة بيني وبينه، إلا أنني فجأة لم أجده خلفي، فناديت البدوي أن أين الرجل الذي كان ورائي؟ فقال أن لا أحد كان يجلس ورائي أصلًا انتابتني القشعريرة، والتزمت الصمت وقتها، ولكن كان هذا الرجل يزورني دومًا في أحلامي ويستحثني على دراسة كتب بعينها كنت لا أعرف أنها موجودة أصلًا، الآن فقط عرفت اسمه من الشيخ أسامة.

(الكاشف بن الخليل). يا له من اسم يعني الكثير الكاشف هو ما يرى ما لا يراه الآخرون والخليل تعني أنه صديق ومرافق طويل الأمد.

- فعلًا والله يا أسامة أنا كنت بشوف حاجة زي كده من وقت للتاني، وأول مرة كانت في جبل موسى بدير سانت كاترين. لاقيته قاعد على صخ....

قاطعني أسامة مادًا يده إلى فمي ليخرسني.

- الكاشف دلوقتي مش معاك، فيه حاجة طردته من عندك، حاجة أكبر منه، شرها كبير أوي، يعني حاجة شيطانية بس أنا مش عارف إيه هي لازم نعمل كشف مركز عن كدة.

شعرت بغصة شائكة في حلقي، فعلًا أنا أعرف أنني تحت سيطرة شيطانية بدليل أحلامي البشعة التي مررت بها.

- دي مش أحلام يا تامر، دي زيارات حقيقية انت فيها ذهبت بنفسك لا بجسدك.

- تقصد روحي اللي ذهبت؟

- لا يا صديقي الروح لا تغادر الجسد إلا بالموت، لكن النفس هي التي تذهب وتعود محملة بذكريات وخبرات شنيعة للجسد وتدخل عليه في صورة كوابيس أو أحلام.

نظرت له متمعنًا في كلامه فناولني برتقالة مقشورة وقال:

-انت تعرف ليه الناس بتقول على المعاتيه والمجاذيب إنهم من أهل الله، لأن نفسهم غادرتهم وتركتهم فقط يعيشون بالروح، عشان كده بيقولوا عليهم مبروكين وروحانيين مش أكتر.



معلومة جديدة لم أكن أعرفها فطلبت المزيد فاستأنف قائلًا:

- جسد الإنسان بيكون زي المصباح الكهربي والنفس بتكون زي التيار الكهربي أما الروح فبتكون هي الضوء والحرارة اللي بتخرج من المصباح وكمان ربنا في القرآن كان بيخاطب النفس مش الروح وقال عن الروح كلمة صارمة وأنها من أمر الله وتبعها بقوله وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا، لكن النفس هي صاحبة الإدراك والذاكرة والشخصية وكل حاجة تخص الإنسان.

- تقصد تقول إن الروح عبارة عن طاقة موحدة من عند الخالق أما النفس فهي بطاقة المخلوق الشخصية.

- بالظبط كدة، ربنا لما ذكر النفس كان يخاطبها باعتبار أن لها إرادة وذاكرة وهي من تصطلي العذاب أو تأخذ الثواب.

- التفكير ده بيفكرني بموضوع تناسخ الأرواح في الهند.

نظر لي متمعنًا ومدح ذكائي قائلًا:

- أحسنت ..لكن تقدر هنا تسميه تناسخ النفوس مش الأرواح والتفسير دينيًا هنا ممكن يكون معقول جدًا.

- طب وبالنسبة لحالتي أنا؟

- أعتقد إنه فيه رابط حصل كسر أو رفع الرابط القديم وحل محله، الرابط الجديد شيطاني لأنه لو كان رابط علوي زي الكاشف كده كان دعمه مش يكسره ويحرمك حتى من سماع آية في القرآن. انت تقوم دلوقتي معايا أنا هعملك حاجة مبدئية ونشوف..

* * *

قمت معه وأنا أسنده فتأثير الجروح ما زال طازجًا، مررنا بالفنانة التي نظرت لنا وقامت من فورها لتطبع قبلة دافئة على خد أسامة فاستقبلها ببرود وأشار لها بان ترجع حيث كانت. فذعنت لأمره، والآن زال العجب وعرفت أنها الآن تحت سيطرة



العلاج الروحاني، صعدت معه لغرفتي وجاء لنا رجل من رجاله فجلب كيسًا كبيرًا معه ومقطعًا مطويًا من قماش أبيض حسبته كفن في أول الأمر وشرع الشيخ أسامة في إلقاء خطبة مفادها أن لابد أن أثق فيه جيدًا لأن كسر الرابط الشيطاني احتماله ضعيف ولا يقوى إلا بالثقة بين المعالج والمريض، كان الكيس يحتوي ملحًا صخريًا خشنًا فقام بتفريغه في وعاء بلاستيكي كبير الحجم ثم أضاف له ماءً من زجاجة كبيرة، وشرع بالتقليب المستمر، بينما الشيخ أسامة يقرأ ما تيسر من آيات طرد الشياطين، قمت أنا بخلع جلبابي وسروالي وبت عاريًا كما ولدتني أمي، شعرت بعض الحرج إزاء وجودهم معي ولكني لم أعر الموضوع اهتمام حتى لا أفقد تركيزي، لاحظت أن نسبة الملح مساوية تقريبًا لنسبة الماء، مما يعني أن المحلول شديد التركيز والملوحة ثم أبرز أسامة شفرة بها موس حاد كالتي يستخدمها المزينون، واقترب مني ونظر في عينيّ فوجدتني أرتعد من مجرد الفكرة، لابد أنه سيقوم بتشريح جلدي بهذا الموس، ولقد كان، قام بعمل شقوق دقيقة في قدماي وتحت إبطيّ وأسفل ظهري، بينما قام مساعده بنقع قطعة من القماش الأبيض، نقعها بالكامل في المحلول الملحي عالي التركيز إلى أن تشبعت، ثم فردها على الفراش وأمرني بأن أستلقي فوقها، ثم بدأ بلف قطعة القماش بإحكام حول جسدي، يا إلهي الملح يكوي خدوش الموس السابقة على جلدي ويرفع أنيني عاليًا ولكني الآن محكوم بلفافات النسيج المشبع بالمحلول الملحي ثم تعاون مع المساعد في سحب جسدي للأرض العارية ووضعني في وضع القبلة إلى الشرق، ثم رأيت المساعد يغمس قطعة صغيرة من القماش في باقي المحلول، ويقترب مني وطلب مني إغلاق عينيّ بقوة وشعرت بأن نشر القطعة القماشية على كامل وجهي، ثم سمعت الشيخ أسامة يطلب منه جلب وعاء الجمر وشممت بعد برهة رائحة نفاذة من البخور، ثم لا أتذكر شيئًا بعدها لأني سبحت فجأة في بحر عاتي متلاطم الأمواج من الألم والشعور بالاختناق، لقد نفذ الهواء فجأة، أريد أن أتنفس ولكن صدري يضيق يضيق، إنني أجاهد من التقاط شهيق واحد ولكن صدري مغلق



عما دونه، يا إلهي الرحيم إنني أموت اختناقًا، ثم شعرت أن يدي الشيخ أسامة تطوق عنقي وتضغط أكثر، إنني مكبل بالقماش المبتل وأختنق تحت ضغط الخنق نفسه، لااااااااا.. إنني أموت أيها الأحمق، أم أنك بالفعل تريد هذا.. لااااااا

***

الملح يكويني والاختناق كافٍ بقتلي، ارفع يديك عني أيها الأحمق، وفي سريرتي توعدت (الشيخ أسامة) بالويل والثبور، ولسوف أفضحنك أيها الدجال، ولوسف أقلب الدنيا فوق رأسك، ولسوف ..

الله أكبرالله أكبر.. الله اكبرالله أكبر

ما هذا الذي أسمع، لا لا إنني أسمعه بوضوح كبير..

أشهد أن لا إله إلا الله.

غمرتني فرحة عارمة وشعرت بجسدي يرتج بنشوة السعادة لقد استعدت قدرتي أخيرًا على سماع الأذان، الحمد لله والشكر لله، شكرًا لك يا صديقي، ياه لقد كنت على وشك الوقوع في الخواء المطلق، ليس من السهل أبدًا أبدًا أن تحرم من الدين بهذه القسوة. شكرًا لك يا صديقي.

أزاح أسامة غطاء الملح عن وجهي، عيناني تحرقني ولكن فرحتي بعودة سماعي للأذان فاقت كل ألم، وأقبل الرجل يفك طرف هذا الكفن ويقلبني إلى أن أزاحه بالكامل عن جسدي، فرفعت الجلباب الأبيض ونشرته فوق جسدي وأنا في قمة السعادة، كأن اليأس إثرتورطي بهذه الأشياء قد استبد بي، ولكني الآن حر، هرعت فورًا للحمام وغسلت وجهي وعينيّ مرارًا حتى ذهب الحرقان المؤلم وما زال صوت الأذان يتردد من الجامع القريب الآن أنا حر اسمع القرآن والأذان وكانت حريتي مكبلة بالابتعاد عن تلك المخلوقات الرائعة وأسميها مخلوقات لأن طاقتها وتواجدها حية في داخلنا، وخرجت مبتسمًا في وجه صديقي وممتنًا لأبعد الحدود.

- ياااااه الحمد لله حمدًا كثيرًا، شكرًا لك يا صديقي.

نظرت له فوجدته على حال من الإعياء الكثير، من الواضح أنه بذل جهدًا خرافيًا لتنظيفي من جبلة الشياطين التي علقت بي.

- يلا قوم اتوضى وصلي الفجر حاضر.

- أوك يا أحلى أسامة في الدنيا.

وجريت لأتوضأ وأحسِن الوضوء.

صليت الفجر حاضرًا في الجامع القريب والذي كان يخلو تقريبًا من المصلين، ففي طرف الجامع جلست أقرأ أسمع ما أقرأه بسعادة غامرة، ذهبت وحدي لأن الشيخ أسامة كان متألمًا جدا من آثار الخرطوش، كانت المسافة بين الجامع والمنتجع تقدر بعشر دقائق سيرًا على الأقدام، كنت أتمشى وحيدًا في المنطقة النائية وتراودني أفكار شتى، إلى أن وصلت لبوابات المنتجع، فاستوقفني الحارس الساهر.

- داخل فين حضرتك؟

أجبته بتعجب إذ أنه رآني وأنا أخرج قبل قليل للصلاة بل وحييته بالسلام.

- لفيلا ٦٦ أنا كنت لسه خارج من شوية لصلاة الفجر وسلمت عليك.

نظر الحارس باستغراب كبير وردد:

- أنا أول مرة أشوفك يا أستاذ انت داخل لمين؟

- بقولك أنا لسه خارج من أدامك دلوقتي، أنا ضيف في الفيلا رقم ٦٦.

- الفيلا ٦٦؟؟

- أيوة، وأنا كنت ضيف الشيخ أسامة.

- الشيخ أسامة؟؟؟

فجاوبته باندفاع غاضب:

اتفضل اتصل بيهم لو مش مصدقني.-

نظر لي الحارس باندهاش ونادى على زميليه الآخرين الذين خرجا في مواجهتي فشرح لهم الحارس الأول كلامي فنظرا باستغراب وراقبا هيئتي فوجدوني أنتعل خفًا وطاقية وأمسك بيدي مسبحة علاوة على جلبابي الأبيض الذي استعرته من الشيخ.



- ممكن تسمحلي أعدي بقى ولا إيه؟

- تعدي فين يا أستاذ؟

وتصدر الطريق أمامي بتوترينذربتلاحم قريب، فتصاعد غضبي وحاولت الدخول فمنعني اثنان منهم في حين وقف الحارس الأول في مواجهتي.

- يا أستاذ مافيش حد في الفيلا، الفيلا ماسكنتش أصلًا، ومهجورة من زمان جدًا.

نظرت لهم بغباء غير فاهم لأي شيء وأثناء ذلك مرت سيارة فارهة وتوقفت أمام الحاجز النازل أصلًا بسببي، فتقدّم الحارس من السيارة لتفتح نافذة السائق عن سيدة في الخمسينيات ومعها شاب في مقتبل العشرينيات.

- فيه إيه يا ماجد؟

انحنى الرجل ليخبرها همسًا بحكايتي فنظرت بقلق لشخصي وخرجت من سيارتها.

- بتقول إنك كنت في فيلا ٦٦ يا أستاذ؟

-أيوة يا فندم كنت ضيف عند الشيخ أسامة الشامي.

نظرت لي المرأة في رعب كبيرونادت على الشاب بقوة فخرج منها..

- مش قولتلك يا رامي وانت ماصدقتنيش!

ثم أشارت لي بخوف قائلة:

-الأستاذ بيقول إنه كان بايت في فيلا ٦٦.

نظر لي الشاب بتركيز كبيروانزعاج وساد صمت عجيب، فقطعته السيدة قائلة له بهيستيرية:

- قلتلك الفيلا مسكونة وقبل كده قلت لأبوك الله يرحمه ومافيش فايدة الفيلا مسكونة.

اسقط تماما في يدي وشعرت بأن الدنيا تدور حولي، أشعربدوارقاسٍ فاستندت لأي حاجز غيرفاهم أي شيء.

فتوجهت السيدة لي بالحديث:

- فيلا ٦٦ مهجورة وماحدش يعرف مالكها وكل الناس هنا بيقولوا إنها فيلا المطربة

(هـ..و)، أنا في الفيلا اللي قصادها رقم ٦٤ وكنت دايمًا أشوف أضواء واسمع مزيكا وصوت قرآن خارج منها، لما سألت عن صاحبها قالو إنها ملك لواحد كويتي لكن عمري ما شفت حد دخلها. بس أنا لمحتك إمبارح وانت قاعد في الجنينة تكلم نفسك وشوفتك وانت داخل هناك من يومين.

تكثفت حبيبات العرق على كامل وجهي وشعرت ببرودة رهيبة، كيف ذلك ومن هو الشيخ أسامة ذلك الرجل اللطيف الذي جلبته إلى هنا بعد إصابته في الاعتصام، كيف ذلك كيف؟ إنني على وشك الجنون، الآن عرفت كيف يبدأ الجنون، إنه يبدأ في مثل تلك المواقف التي لن تستطيع تفسيرها أبدًا، بالتأكيد إن عقلي الآن تحت المطرقة والسندال من تحته، أسمع صوت السيدة تواصل فزعها الموصول بفزعي أنا.

-أنا لازم أغير المكان ده ولا يشوفوا حل في الفيلا المهجورة دي، بقولكم من زمان وماحدش صدقني.

تراجعت لسيارتها ومعها الشاب وأشارت لي بأن أركب معهما، من الواضح أنها تريد تأكيد وجهة نظرها، فذهبت وأنا أسمع دبيب قلبي إذ يرفض كل هذا الضغط عليه.

وتجاوزت البوابة وسارت في منحنيات الطريق إلى أن وصلت لل.. لل.. للفيلا التي كنت نائمًا فيها.

-هي دي؟

هززت رأسي بأن آه، ولكن صوتي لا يستطيع الخروج من حلقي.

نزلت من السيارة ونزل ابنها ونزلت محتميًا بهما أرقب الظلام الكثيف الذي يغلف المكان، من الواضح أصلًا أنها ما زالت تحت الإنشاء، فشكلها خام بالمقارنة بالفيلات الأخرى المجاورة، رقم الفيلا مطبوع على بابها الخارجي في يافطة نحاسية أنيقة، في لحظة حنق اندفعت لأفتح ذلك الباب فلم يفتح، ولكني وجدت حقيبتي الجلدية وفيها ملابسي محشورة حشرًا وبجوارها حذائي، نظرت لأشيائي بقلق بالغ وكأنهم مملوئين بالثعابين، أعدت النظر من خلال السور المنخفض للفيلا، ولكنها كانت



كجثة شاخصة البصر بعدما انتهى خانقها من خنقها، كئيبة باردة قاسية طاردة، تعاظمت الحيرة المدمرة، أنا كنت في رفقة شيخ من ال... شيخ لم يتعامل مع أحد إلا أنا، شيخ مبتسم يعرف عني كل شيء ،شيخ عالجني وأرجع لي قدرتي على سماع الأذان، شيخ نصحني بأن أصلي الفجر حاضرًا، شيخ متزوج من فنانة شهيرة ويعالج المشاهير، يا ربي العظيم ساعدني على النسيان. رفضت عرض السيدة في استقبالي في فيلتهم لحين انبلاج الصبح وفضلت أن أغادر تمامًا ذلك المكان، وبالفعل تراجعت للبوابة وأنا أحمل حقيبتي على كتفي وحذائي الأسود في يدي.

***

لا يوجد في العالم ما هو أقسى من الحقيقة ولا أشد عريًا من الواقع، الواقع يفرض نفسه عليك شئت أم أبيت والحقيقة تلعب لك بحاجبيها في شماتة، لقد كنت في ضيافة جن أو شبح أو شيء لا أعلمه، وتوارد لخاطري كل حديثنا معًا، بالفعل كنت جنيًا يا شيخ أسامة؟، هل هربت مؤقتًا من خدمة أو أن شخصًا ما يستخدمك في خدماته الروحانية أم ماذا، من أرسلك، النتيجة النهائية أنك كنت بمثابة ملاكًا حارسًا لي، كل هذه الأفكار كانت تراودني وأنا أمشي وحيدًا في الطريق المفضي للطريق العام في جنوب مدينة الشيخ زايد، في آخر الطريق توجد محطة للوقود، سأدخلها وأغير ملابسي، لابد من العودة سريعًا لبيتي، أشتاق له، أريد تدوين ما حصل بسرعة حتى لا أنسى التفاصيل، فعلًا لن يرتاح الشخص إلا في بيته، وبعد أن غيرت ملابسي وخرجت للطريق العام أشرت لسيارة أجرة لتقلنني إلى.. وسط البلد.

***

عندما تجد نفسك موهوبًا أو مميزًا بشيء يختلف عنه العوام من البشر، لن تجادل كثيرًا وسترى أنك مختار أو منتخب من القوى الغير منظورة في مهمات لن تكون بأقل من الغامضة، والغموض هنا ليس في المهمة نفسها بل سيكون في الشخص الموكل بالمهمة، وهذا ما حدث مع ماهيتاب، لقد وجدت نفسها بين قوسين محكمين، قوسها الأول كان خليلها معتز الذي تنوعت معه المشاعر من مقت شديد إلى رغبة

حقيقية إلى حب وألفة ،وأما القوس الثاني فكان الجمال مجسدًا في طفل سريع النمو رائع التفاصيل تتمناه أي أم. أما في اعتبار ماهيتاب فكان الوضع مختلف أو لنقول أنه اختلف بمضي الزمن معهم، كانت تدرك بشكل أو بأخر أنها في مهمة مبعثها الجن أو الشياطين أو حتى الملائكة لم تستطع تحديدًا أن تصنفهم، ولكنها عرفت أنها موكلة بشيء ولابد أن تنفذه بكل إخلاص، قد تكون تلك رغبات (الأسياد) وكلمة الأسياد هذه نسمعها باستمرار في الأفلام القديمة، أي سيد الشخص الموكل له المهمة والذي يكون مشمول بالعناية والرقابة منهم، لم تكن عقيدة ماهيتاب لتمنعها من تلك التبعية الجديدة، لأن العقيدة عندها مجرد تصنيف أو توزيع ديموغرافي لها، تعلمت أن تصمت وأن تخدم بلا تعليق، انتابها الروحانية كليًا وتولّدت لديها طاقات لم تكن تعرف أنها موجودة أصلًا. فهي الآن قادرة على الرؤية في الظلام، والتواصل الغير مشروط مع العالم الظلامي، شيئًا فشيئًا أصبحت (ماهيتاب) نفسها كاهنة معزولة في معبد ناءٍ في الأحراش، تراقب العالم وتلعنه وتتشفى في فواجعه بلا رحمة أو تردد، كان للوليد (نبيل) أكبر الأثر فيها، إنها تعبده بينها وبين نفسها وتراه نموذجًا للعالم الذي تريد أن تعيش فيه، تولّد لديها استهتار عميق بالحياة وتمنت لو تتخلص من جسدها سابحة في الأثير الذي رأته في عينيه الملونتين العميقتين الأثر والتي حولتها لدرويش حقيقي تنقصها الأسمال والتشرد، كانت على وشك أن تهيم على وجهها في الليالي القمرية كما يفعل الممسوسون، أما معتز فكان في وادٍ أخر، كانت تنتابه الحيرة العظمى في اختياره، وبان له أن (الله) أرحم كثيرًا مما تفعله به الشياطين، وتولدت في أرضه الجرداء نبتة صغيرة ضعيفة اسمها الندم، نعم هي صغيرة ورقيقة وسط كل ذلك الجفاف وإنها من احتكاك بسيط بينها وبين تلك الأرض ستموت ممزقة بفعل تصحّره، ولكن العكس هو الصحيح، بدأ معتز يغذي تلك النبتة بمياهه الجوفية وظلت تتعاظم داخله حتى أصبحت شجرة وارفة من الندم العميق وكأنها استفاقة لطفل تائه بين غيوم المخدر وسكرات الخمر، لماذا تشعر بالندم يا معتز؟ بعدما نفذت لك الشياطين كامل انتقامك؟، هل لأنها أوكلت لك مهمة إضافية معقدة ومهينة،

هل سيقتصر الموضوع على أنك قدمت خدمة مقابل خدمة؟، أم أن الاستعباد سيصل بك للهاوية، كانت نفس معتز الريفية الأصل تُتوق لدِثارديني ما، لن نقول أنها توبة لأن الندم ما زال في مرحلة النمو، ولكنك فعلًا يا معتزبتُّ تريد الرجوع لحياتك السابقة، ولكنك لن تستطيع فالسجن والهوان في انتظارك من ناحية والموت بلا توبة ولا غفران من الناحية الأخرى، إنك حتى لن تستطيع التوبة في غياهب السجون وفيه ما فيه من سحق لكل حرية أو أي مساحة خصوصية كما أن الشيطان لن يرحمك هناك ستتمنى الموت ولن تناله، إن التوبة لابد وأن تشمل الاعتراف بكل غوائلك التي تعمدت فعلها من تقطيع لزوجتك واستخدام الشياطين في شفاء الخائن محسن حتى يتثنى لك الانفراد به في بئر الجنون والضياع النهائي، هل ستتحدث عن مضاجعة القبر وإرضاعك لطفل الشياطين؟

كانت أشباح زوجته السابقة وضحايا انهيار الدرج وقهره لمروة تطارده في عقله ، ولكم أن تتصوروا كيف لعقل أن يحتمل كل تلك الصراعات، لقد أنجبت ابنًا للشياطين ولا تعرف الهدف أوحتى الخطة من جراء ذلك، كنت مجرد أداة، كنت تنظر للوليد نظرتك للخنجر في يد عدو لا يرحم، أنت توقن بأنه لا محالة سوف ينغرس في قلبك، كنت تعرف أن الخنجر هو ابنك وأن اليد كانت للشيطان نفسه، هل عليك الآن أن تنتظر اكتمال نضوج الموقف لترى نفسك مذبوحًا على عتبات الشياطين، ألا في الأمر من مرجوع؟، كان معتزيتفكر طويلًا طويلًا، وهو يرى ماهيتاب على وشك السجود للوليد والتسبيح بحمده.

***

أخيرًا وصلت لمنطقتي بوسط البلد، يا له من شعور رائع أن تعود إلى حيث تجد راحتك وخصوصيتك، عدت إلى حمامي وسريري ومكتبي وكتبي وهاتفي الذي نسيته، نزلت من سيارة الأجرة وهرعت للسوق القريب أجلب بعض طلباتي التموينية، وعدت محملًا ببعض أنواع الجبن والمخلل والخبزوالبن الغامق والسكروالسجائر السوبر، وصلت لعمارتي وصعدت في المصعد وأنا أترنح من ثقل الأشياء، لقد اشتريت تموين

يكفيني لأسبوع كامل من الانعزال. لقد قررت أن أهرب قليلًا وأن آخذ لأول مرة إجازة من القناة ومن البرنامج ومن المشاهدين، فأعصابي لم تكن لتتحمل كل هذا الزخم وحتمًا سيظهر علي القلق والتوتر أمام الجمهور الذي أحترمه وأعمل له ألف ألف حساب، شيء ما يقول لي أنني بحاجة لراحة عميقة ونوم طويل واستغفار وصلوات. أولجت المفتاح في الباب ونقلت مشترياتي تباعًا لمطبخي، هل تلاحظون أن ثمة فوضى عامة في المكان، ثمة آثار تفتيش واضحة للعيان، ولكن من قال أنني في حالة من الممكن أن تلاحظ شيئًا كهذا، كانت تنتابني نوبة عميقة من الشرود وتجعلني منفصل جزئيًا عن المحيط الذي أعيش فيه، لقد كنت ألاحظ في شقة الهرم وجود طيفي لشبح متجسد في الشقة، كنت أدرك بل أكاد أجزم بوجوده، ولكن شرودي الدائم منعني فعلًا من التفاعل مع ذلك الأمر الشاذ، إلى أن حدثت المواجهة التي بات يعرفها آلاف من القرّاء ، أتممت توضيب مشترياتي وخزنت كل في مكانه وأنا بعد بملابسي، أريد الآن أن آخذ حمامًا قويًا يكحت عني طبقات الذهول والرعب والقلق الذي طالما هاجمني في الأيام الماضية، كان يغمرني شعورًا عامًا بالارتياح وبأن الأمور عادت لنصابها وأن تلك الخدوش النفسية في طريقها للزوال، سأعيد حساباتي بشأن أبحاثي الروحانية بالذات، قد اعتزل الموضوع نهائيًا وكفاني ما رأيت وأنه قرار لو تعلمون عسير على من هم مثلي، دخلت لغرفة نومي ونزعت ملابسي نزعًا وكوّمتها في سلة الغسيل الوسخ، وأخرجت بشكيرًا نظيفًا وغيارًا داخليًا أسود، لماذا أحب الغيارات الداخلية أن تكون سوداء، الحقيقة لا أعرف ولكني أفضل الأسود دومًا حتى في ملابسي الداخلية، علقتهم خلف باب الحمام بينما يتابع الصنبور ملء البانيو بالماء الساخن، أحب تكاثف البخار في حمامي وأعتبره رفاهية عظمى في الشتاء، ثم تذكرت الهاتف فمضيت أبحث عنه لأجده مطروحًا أسفل فراشي، ما الذي أتى بك يا عزيزي إلى هنا؟، تناولته ووضعته على الشاحن الكهربائي وأرجأت تصفح المكالمات والرسائل إلى ما بعد حمامي، نزلت للبانيو وأنا أستشعر لسعة الحرارة على ظهري، سأبرد الماء قليلًا، إن كثافة البخار أعلى من المعتاد ولكن لا بأس، أطفأت السخان الغازي وتركت



نفسي لأسبح بين طيات الدفء المخملية. الماء الدافئ قادر على الدخول حيث روحك نفسها ليدلكها ويعطيها من كفه طعم الاسترخاء. أفكاري تتزاحم ولكنها تخرج الواحدة تلو الأخرة من ثقب إدراكي كما الماء المتسرب من الأنبوب. مروة ومعتز وماهيتاب وهبة وعايدة وحشمت والرجل اللواء الصفواني والأحلام والشياطين والشيخ أسامة. لن أنساك أيها الأسامة. يكفيني أنك أعدت لي ملفاتي الدينية. يكفيني أنك كنت صد.... لقد انقطع حبل أفكاري بل لقد تمزق فجأة إذ أسمع نقرًا على باب الحمام. كان نقرًا متتبعًا لشخص يستحثني على الخروج بسرعة. هل تعرف ما أقصد. تخيل أنك في حمام منزلك وسمعت نقرًا سريعًا على الباب وبأن والدك أو أختك أو أي فرد من الأسرة يريد بسرعة الدخول للحمام. كل هذا جميل ولكني وحدي تمامًا في البيت. وهو بيتي الانفرادي من الأصل. هل تتوقعون مني أن أقول (مين؟) أو (عاوز إيه يا اللي بتخبط)؟. طبعًا لا.. فأنا إنسان يحترم نفسه ويراعي مشاعر الرعب عندما تزوره مثلي مثل المليارات على هذا الكوكب. تقريبًا لقد توقفت نبضات قلبي وغلفني إحساس ساحق بعدم الأمان بل إن الحيرة الممزوجة بالرعب تتجلى أمامي في أوضح صورها. في تلك اللحظات يا أعزائي لا مجال للتفكير أو التدبر فقط الرعدة التي تضرب على صدرك في موضع القلب والتنفس المكتوم اللاهث. حاولت الاندماج مع الماء والبانيو واشتعلت رغبتي في الاختفاء ولكن أين سأختفي أصلًا؟ في البالوعة مثلًا؟

ثم سمعت مَن يحاول تحريك مقبض الباب ليفتحه. لم أستخدم مفتاحًا قط في حياتي مع أبواب الحمام لأنني أعيش وحيدًا معظم الوقت. ومن ثم انفتح شق من الباب ورأيت من ورائه رجلًا ينظر لي بتوتر. انتفضت وتكورت حول نفسي خجلًا وارتباكًا من هذا الاقتحام الذي لا أعرف له تصنيفًا فوسع شق الباب وهو يجري تجاه المرحاض ورفع غطاءه وهو يرتعد من الانحسار والانضغاط. ثم حل بنطاله وسرواله وجلس يتغوط كما لو كنت لست موجودًا من الأساس. كان ينظر لي نظرة جوفاء لا تحمل أي تعبير. يلبس قميصًا أبيض بربطة عنق مفكوكة وبنطالًا أسود ويتقاطع على كتفيه حامل السلاح ولكنه فارغ بلا سلاح وينتهي لما تحت إبطه. اعتدلت جالسًا وأنا

لا أنبت ببنت شفة وأنا أنظر بذهول للرجل الجالس فوق مرحاضي أنا ، من الواضح أنه انتظر كثيرًا لأنني أسمع انزلاق مخلفاتي مصحوبة بصوت ال.. والممزوج برائحة ال.. الكبريت أو كبريتيد الهيدروجين القبيحة رائحته، لم أجرؤ طبعًا على القيام من مرقدي المائي، ولم أجرؤ على إظهار أي مشاعر للاشمئزاز من فعلته، الموقف كان أكبر من تلك الانعكاسات الشرطية البسيطة، كان له وجه مربع مكعب محدد بقسوة كما تحدد كسرة الكم بالمكواة، كان يضم وجهه بتركيز وألم، من الواضح أنه يعاني، ثم نظر إلي بخواء، هذا الرجل ليس على ما يرام أبدًا، إنه يتعامل كما الممسوس أو الملبوس، فجأة سمعته يقول:

-أأأنا.. أأنا.. أنا.. حسسسسام.

***

الساعات تتناكح فيما بينها وبين (نبيل) وتتوالد بسرعة لتصنع أيامًا وشهورًا وأعوامًا في حياته التي لم تكن موجودة منذ أيام مضت، لقد تجاوز أعتاب المراهقة وبات شابًا في مقتبل العمر، لقد نضجت خلاياه وتكوّرت على طاقتها لتخرج لنا هذا المخلوق المتقن التفاصيل، مثالًا حيًا للوسامة والجاذبية الجديرة بأغلفة المجلات العالمية ،أنت تصمت يا نبيل لا تتكلم من الأساس، ولكنك تملك صوتًا زاعقًا زاجرًا في عقل ووجدان كل من تصطدم عيناه بعينيك، كانت علاقته مع معتز علاقة عجيبة، إذ أن معتز يُعتَبَر هو الأم التي أرضعت ووهبت وقتها لوليدها ولكن معتز كان يتحاشاه كما تتحاشى نظرات زميلك أو التعامل معه بعدما ارتكبتما الجريمة معًا، بل إن ثمة كراهية ما كانت تتعاظم بينهم بسبب شعور معتز بالندم العميق، أما (ماهيتاب) فكانت تراقب النمو بانبهارعاتٍ وتبجيل لا نهائي له، وتحضر له من الأشياء ما يحبها ويرغبها، كانوا لا يجتمعون ثلاثتهم أبدًا، فتارة معتز معها أو النبيل معها أو هو ومعتز معًا وهو لقاء نادر الحدوث منذ أن تمت عملية الفِطام، كان الجيران يلاحظون أشياء ويلتزمون الصمت حيال تلك الجارة الغامضة، إذ كيف تستضيف رجلين في شقتها، ما كل تلك الرهبة التي باتت تحيط بالدور الذي تشغله شقتها الكبيرة، كانوا يتحاشون



التعامل المباشر معها ولكنها أبدًا لن تعتد بمثل تلك الترهات الاجتماعية فعندها ما يشغلها عن غباء الناس وجهلهم المطبق، إنها الآن تؤمن بحرية لم تملكها أصلًا على مدار حياتها التعسة، وقد وجدت نفسها في أمومة ذلك الكائن الجميل، ومعية ذلك الرجل القوي صاحب النفوذ الروحاني المهول، إلى أن باتت الأحداث تأخذ زاويتها الحادة والتي تنبئ بالنهايات، دخلت غرفة الشاب فوجدته.. وجدته.. وجدته راكعًا خاشعًا على سجادة الصلاة، لم تتوقع مثل هذا المنظر أبدًا أبدًا، الشاب الذي ولد وكبر في أيام ها هو ذا يسجد ويركع خاشعًا كما يفعل المتقين من العباد، تيقنت من أنها تحوز ملاكًا في بيتها، كانت هالات النور تشع من حوله كما الصور التي نراها للملائكة، ينقصه جناحان وهالة مستديرة تشع الضوء، جرت لمعتز تخبره بما رأت والدموع تغمر وجهها من الفرح والاستبشار، فتبعها غير مصدق، لكنه وجد الشاب يسلم يمينًا ثم يسارًا ويقوم طاويًا بساط الصلاة بعناية، وحانت منه التفاته لهما، كانا ينظران بذهول عارم، لقد نبتت للشاب لحية كثيفة زادت من وجهه بهاءً وقوة ونفوذًا صارخًا، بل إنه صار رجلًا تصدر منه روائح الهيبة، وباتت عيناه مشعتان بالتقوي والقوة في نفس الوقت، هل من إجابات لهذه الطلاسم الحية والتي ترتع في عقولنا، كيف لابن شيطان أن يركع لوجه الله ويتمتم بالصلاة والدعاء، أما معتز فقد شعر بأنه يفقد عقله الذي بدأ بالفعل في الذوبان تحت وطأة ما لا يصدقه ولا يستوعبه أنت ابن الأبالسة ذوات الحوافر، أنت ابن عدو الإنسان وطريد الرب يا ابن الكفر من أين لك بالصلاة والخشوع، وفي لحظة اشتعل الموقف وتأججت النار، جرى معتز مسرعًا للمطبخ وأخرج سكينًا من الدرج تبعته ماهيتاب والقلق يأكل قلبها، وعاد متجاوزًا إياها فتوقفت أمامه بذهول ورفض، فنظر لها نظرة نارية وركلها بقدمه لتتكور ملقاة بجوار الحائط فدخل إليه وأغلق الباب وأدار مفتاحه من الداخل لينفرد بالشاب، أشهر السكين في وجهه طلبًا لدمائه، نظر له الشاب بكل براءة ولاحت نظرة استهزاء ممزوجة باشمئزاز، واقترب منه وكأنه يستحثه على إكمال ما قد يتردد فيه، هيا أيها التعِس، أغمد نصلك في لحمي عساك ترتاح، هيا يا معتز إنها فرصتك

التي قد لا تجدها مرة أخرى إفعل شيئًا صالحًا حتى ولو مت بعدها، ماهيتاب تصرخ وتضرب الباب لتدخل وتمنع معتز بأن لا يطيع عقله الذاهل، إنه ابننا يا معتز، لا تقتله، لا تحرمني منه، إنه ملاكنا يا حبيبي وليس مثلك أو مثلي، لا ترتكب جرمًا تندم عليه حتى بعد مماتك، إنه سيدنا وتاج رأسنا يا أحمق، ولكن معتزكان قد اتخذ قراره بالطعن، اقترب الشاب منه أكثربينما معتزيستجمع قواه للحظة الحاسمة، وحانت من النبيل التفاتة صغيرة بعينيه فقط للباب الذي انفجروفُتح على مصراعيه من تلقاء نفسه، وهرعت بينهما ماهيتاب لتمنع الطعنة، دخل جسدها في الحيزالضيق بينهم ، في اللحظة التي قرر فيها معتزأخيرًا أن يهوي بسكينه، انغرس في صدرماهيتاب نفسها دون الشاب، الذهول يقطردمًا، إن النهايات التي تأتي بغتة لها وقع يصم الآذان لفترة طويلة، لابد من تكرارها آلاف المرات، سترهق نفسك كثيرًا يا معتزوأنت تسترجع وتتأمل كيف أنك قتلت من أحبتك بصدق وقبلت أن تستخلص عمرها القادم من أجلك من هجرت العالم لتخدم أغراضك بل وكانت تشاركك فيها بكل حماس، الشاب ينظرلهما بهدوء القدرويمصمص شفتيه معترضًا بشيء من السخرية، بينما تنهارالبقية الباقية من قوى ليهوي هو أيضًا مع جسدها الذي بدأ يترنح هاويًا لأسفل، الاثنان القاتل والمقتول يتمرغان بحسرة أسفل قدمي الشاب الذي كان يرمقهما بلا أي تعبيرعلى وجهه، بل إنه ابتعد حتى لا تلوث الدماء ثيابه الرياضية التي جلبتها له آخرمرة، ماهيتاب حبيبتي لا تحزني سأوافيك عن قريب، لا تكرهيني فأنا لم أعنيك أنتِ، لقد باتت الحياة منغصة بكل شيء وملوثة بلعنة لن أعرف لها أخِر، لاحت منها نظرة إلى حيث الشاب الواقف بشموخ كقدرنهائي فأشارت له بأن اقترب مني يا ملاكي، تريد أن تلثمه على جبينه كوداع أخيرولكن الشاب أبى الركوع واكتفى بأن مد لها يده الوضاءة فقبلتها بحنان، ثم ارتخت الجفون على انغلاق أبدي قبل أن تنداح العيون بقطرات من دمع بلا أي بكاء.

***



اقتلني من فضلك

لم يكن الاستحياء هو ما يقلقني أبدًا وهذا الغريب يتغوط في حمامي بينما أنا متكورًا حول نفسي في البانيو، ولكنه الرفض العارم، كيف دخلت لشقتي أيها اللص أو أيها الوغد أو أيها ال أي شيء أخر، إنه بشري تمامًا ولا يشبه ما رأيت في أيامي السابقة من هوان الشياطين، لابد أنه كذلك مع أن الرجفة ترفض مغادرة جسدي بسبب المفاجأة العجيبة، ثم قام وأغلق سحاب بنطاله وخرج من الحمام وأعاد غلق بابه مرة أخرى، قمت من فوري ولففت نفسي ببشكيري وخرجت لغرفة نومي استجدي شيئًا من الملابس، خرجت للصالة لأجده جالسًا ساهما يدخن في هدوء، هل تتوقعون أن أقوم بواجب الضيافة مثلًا، مَن أنت أيها الأحمق؟!

كان الخرس سيد الموقف وأنا أشاهده يجلس باسترخاء على أريكتي، أشعل سيجارة ونفّث دخانها بهدوء ثم نظر إلي وأخرج واحدة أخرى ناولها لي فأخذتها لأبدد الصمت وأبدأ الحديث الذي حاولت أن تخرج فيه الكلمات متزنة وقبل أن تخرج مني كلمة كان الرجل يجهش بالبكاء بكاءً عجيب يشمل اهتزاز ومخاط يتدلى من فتحتي أنفه ودموع تختلط بكل هذا، إن الصلابة والصلادة التي تشع منه مع الدموع تصنع منه أيقونة لليأس العميق، وقفت لا أدري هل أطرده أم أن الأمر أكبر من مجرد اقتحام لداري، اقتربت منه وربت على كتفه في توتر، ولكنه ما زال منخرط في البكاء كأنه يفرغ شيئًا لزجًا من مصرانه، تدافع لأنفي رائحة بخور أعرفها جيدًا، رائحة ذات لون أخضر مزركش، اقشعر بدني وأنا أتذكر حضور الشيخ (علي) سيد الدراويش، ترى هل قابله أم ماذا، جلست لجواره وأنا أتشمم الهواء، هل الشيخ موجود فعلًا أم أنه مجرد إيحاء لا أصل له، ولكن الرجل استمر في البكاء لدقائق قبل أن يتطور

الأمر إلى نشيج عالٍ بل إنه أخذ يضرب وجهه براحتيه في عنف ميكانيكي، حاولت أن أثنيه عما يفعله بنفسه ولكنه -الوغد- كان قويًا لدرجة المصارعين، بالتأكيد سيفقأ عينيه لو استمر، الرائحة تزداد وأسمع من خلالها هسيسًا يترنم بشيء ما، لا أستطيع تصور الموقف وإن كان واضحًا، لقد تسلل لداري ليبحث عن شيء ما وفوجئ بحضور الشيخ علي الذي تغافلت عن صرفه بحكم صدمتي من حضوره، من الواضح أنه (عمل الواجب) مع هذا الشخص الذي يبدو لي كضابط من طراز خاص، اعتراني فخر داخلي فالله أعلم ماذا كان يريد ذلك الضابط والأهم أنه تم قهره تمامًا من قبل خادم سورة الجن الذي لم أصرفه، أمسكت بيده بقوة ما استطعت وجلست فوقه كي أمنع اللطمات على وجهه بينما هو يهتز باكيًا وكان يغلف بكائه شيء من الفزع أو من الرعب من شيء لا أعرفه، انبطحت على وجهه وصرت أقرأ في أذنه آية الكرسي العتيدة والتي لا تُخَيِّب ظن من تمسّك بها، ثم أتبعتها بصورة مالك الملك إنها قوية أيضًا في مثل تلك اللحظات المريعة، إلى أن بدا عليه الهدوء النسبي واعترى جسده المتصلب بعض من الليونة، كما أن الأريج الأخضر أخذ في الخفوت كضوء خلفي لسيارة مبتعدة، فقمت من فوقه بسرعة، وساعدته في القيام، من النادر أن ترى كل هذا الكبرياء يتحطم من مجرد لقائه مع جني شيخ، كانت محفظته ملقاة على الأريكة وبها تحقيق الشخصية الذي ينبئ بوظيفته، لهذه الدرجة كانت الروحانيات أقوى من السلطة والتي عرفت بعد قليل أنه ضابط من المخابرات أو الأمن الوطني، من الواضح أن لي اليد العليا في هذا الموقف وليس هو، إنه سجيني بحكم مقابلة الشيخ علي طيب الله أوقاته كلها، تصنعت الخطورة وأنا أسأله:

- انت مين؟؟؟ وازاي دخلت هنا؟

فأجابني بعد أن مسح دموعه ومخاطه بكمه كاليتامى..

- أنا.. أنا حسام، أنا حسام. أنا حسسس.. حسام

- خلاص حفظت الاسم، إيه اللي جابك هنا يا حسام؟

- أأأأأنا.. أأأنا.. أنا حسسسسسام.. أنا حسسسسام.



ثم انخرط في نوبة بكاء أقل من سابقتها فزجرته بجبروت مفتعل فصمت بنهنهة، لم يتحمل عقله تلك المقابلة بالتأكيد، يا عيني على رجالنا البواسل، حاولت أن أعرف أي شيء بلا فائدة ثم قطع الموقف رنين هاتف محمول، لا لم يكن هاتفي أنا لكنه هاتفه هو الذي كان ملقى على الأريكة المجاورة، بعد تردد ومع طول الإلحاح أمسكت به وعلى شاشته ظهر اسم (مسعد باشا الصفواني).. هل أرد؟ أجيبوني يا أعزائي. الإغراء كبير في أن أرد.. هل أرد؟؟؟

***

أوردت الطعنة النجلاء لصدر ماهيتاب موارد التهلكة، العين شخصت بفزع ناظرة للحقيقة والوجه يتلوى بألم ثم يتجمد على وضع يرعب قلب الصخور، والصدر كفّ عن ترديد الأنفاس، لتتحول لأيقونة مفزعة والهلع ظاهر على كل خطوط وجهها وجسدها أن تلك اللحظة هي التي تغادرفيها الروح الجسد إنها تلك اللحظة التي قال فيها القرآن كلمته (فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد) لقد احتد بصرك قبل مغادرة العالم يا ماهيتاب، لقد رأيت ما لم يرَه الأحياء ونعرف جيدًا أنه ليس لديك فرصة أن تقولي أو تصفي والتخشب الأخير لوجهك طبع صورة لحظية لِما رآه بصرك قبل أن تغمض عيناك إلى الأبد، أما النبيل فقد فارقهم خارجًا من الكادر التعيس، تحجرت الدموع في عيني معتز، وحاول أن يستعيد صلابته المعهودة، ولكن مشاعره نفسها قهرت تماسكه وانطلق يبكي عليها وعلى حاله، عاد الشاب إلى الكادر حاملًا حقيبة صغيرة ونظر للمرة الأخيرة لهما وخرج من البيت مغادرًا للأبد وقبل أن ينظر أمامه ألقى عليهم نظرة.. وداع.

أما معتز فجلس يتحسس جُرمه وهو تائِه بين واقع مرير ويأس مُطبق، الحياة تنتزع منه أصولها وتحوله لشبح تعيس، حاول أن يقول شيئًا من القرآن ولكن لسانه تحوّل لقطعة من الخشب الطافي على مستنقع آسن، الشياطين تمنع، الشياطين لا تسمح، ثم تجسد في فراغ المكان طيفًا دخانيًا يتكاثف تدريجيًا وهو ينظر له برهبة وخوف شديد، إلى أن تجسد ما يشبه أسدًا أو نمرًا يكشّر عن أنيابه غضوب في محياه قاهر في

لمحاته، إنها رسالة واضحة من أسياد الظل. كان الوحش يقف متحفزًا للانقضاض على معتز، ولكن الأخير صرخ بلوعة أن لا، يا عزازيل لا تعاقبني، أنا عبدك المخلص، لا يا عزازيل أنا ابنك البار، لا تعاقبني، أنا على عهدك ووعدك وروحي ملكك أنت، إطلُب تُجاب يا من أصلّي له، لا تقتلني وأنا مخلص لك أبد الدهر وإلى أن أموت. قل تكاثف هذا التجسد المرعب تدريجيًا إلى أن اختفى في فراغ المكان، فقام معتز مهرولًا، تغلب عليه حب البقاء، ولملم أشيائه هو الآخر، وجال في الشقة الواسعة وهو يلقي بتعويذة ما وبتركيز كبيرًا جدًا، تجسدت كيانات لقرود شهباء تتلون باللون الرمادي البارد وتحمل أياديها مشاعل تنطلق من أعلاها نار صافية بلا دخان، تفرقوا وبدأوا في نشر الاشتعال في أرجاء الشقة كلها بكل تمعن وتركيز، النار تحذو حذوها الاستعماري وتبدأ بفتح فاها البرتقالي لتلتهم كل شيء، غادر معتز سريعًا البناية ووقف على مبعدة منها يرتقب خروج ألسنة اللهب من النوافذ والشرفات، كان قلبه يدب دبيبًا عاليًا وهو يرى الضوء البرتقالي يضرب ظلام الشقة معلنًا أن حريقًا هائلًا في طريقة للظهور..

.....

أمسكت الهاتف ومع المرة الثالثة التي يرن فيها ضغطت على زر الاستجابة فسمعت صوتًا وقورًا يهتف:

-انت فين يا كرعون الزفت، ليه مابتردش على اتصالي؟

نظرت لهذا المنهار أمامي ورددت أنا:

-أنا مش كرعون.. أنا. أنا. أنا تامر.

-.... تامر مين؟

- تامر عطوة.

سمعت ما يشبه أهة أو شهقة على الطرف الثاني قبل أن يكمل..

- فين الرائد حسام يا تامر؟

- موجود بس حالته ماتسمحش إنه يتكلم.

- بتقول إيه يا ابني؟



- بقول لحضرتك -حالته- ماتسمحس- بالكلام- خالص، هو تقريبًا عنده انهيار عصبي.

هل تعرفون إلى أي مدى يكمن الاستمتاع باللعب على هؤلاء الجبابرة، لا لن تعرفوا لأن الحظ لن يخدمكم مثلما فعل معي أيها التعساء.

- وانتوا فين دلوقتي؟

- هو عندي في البيت في وسط البلد وأنا لاقيته هنا مش عارف ازاي ولا ليه.

- يعني ازاي مش عارف يتكلم؟

اقتربت من حسام وهززته لينتبه جزئيًا وسألته باستعراض للقوة غير خاف عني أنا شخصيًا.

- سعادة الرائد حسام كلم تليفون.. حسام .حسسسسام

- أنا.. أنا.. أنا حسسسام.. أنا حسام.

ثم أجهش مرة أخرى في البكاء.

- زي ما حضرتك سامع يا فندم أنا لاقيته هنا في بيتي وعندي حالة نفسية غريبة، أنا كنت لسه هطلب الشرطة قبل ما حضرتك تتصل.

- لأ ما فيش داعي إحنا جايين حالًا.

وأغلق الخط عنوة وشممت رائحة سخط ما، تركت هاتفه من يدي وقمت من فوري بخلع ملابسي واستبدالها بطاقم للخروج، أنا لست أبلهًا، الموضوع يخص النسوة الأربعة ولا شيء غير ذلك والمتصل هو اللواء السابق أو الحالي لا يهمني، إنه طليق المرأة من الواضح أن الأمور استفحلت بينهم وبين زوج ابنتهم عابد الشياطين. تحمست كثيرًا لذكائي وبان علي بعض الكبرياء بحكم علمي بما لا يعمله الأخرون، كما انتابني شكر عميق للشيخ (علي) الذي دمّر نفسية ذلك الضابط، والله أعلم لو وجدني وهو سليم العقل ماذا به أن يفعل، إنهم يلعبون بقذارة، إذ كيف يتجرؤون على اقتحام داري وأنا لست طرفًا في الموضوع، تملكني الغيظ، أنتم طبعًا مندهشون من ثباتي ولكن لتعلموا أنني في هذه المواقف لا ألين أبدًا وأتمسك بحقوقي حتى لو كان

الطرف الأخير يملك ويتسلط، خرجت للصالة وأمسكت بيد كرعون.

-هو انت ليه اسمك كرعون يا حسام؟

-..

- واضح إنك شرير جدًا في الحقيقة، طب كويس أوي انك قابلت الشيخ علي يا كرعون.

قلتها في سخرية وأنا أتصور مقابلتي له دون هذا الفلتر العملاق والذي يمتص الشر والكِبر من صدر من يقابلهم.

***

على المقهى المقابل لعمارتي جلس، يحسب حساباته وينتظر، أن قواه السحرية لا يستهان بها وقد تجعله يعرف أين مكان الخطر ووقته ليبتعد عنه، كان معتز جالسًا في قبالة بوابة العمارة الحديدية مندمجًا تمامًا بين رواد المقهى الذي هو في الأصل بورصة لأهل النوبة ولكن الآن يجمع الكل من أجانب ومصريين وعرب، إنه فنجان القهوة الثالث ولكنه ينتظر، ما الذي تدبر له يا معتز؟... في نفس الوقت دق الجرس على بابي ليدخل سعادة اللواء بكامل هيبته ومعه شخص آخر من أصول عربية، وجهه مربع بذقنه المنظمة ووجهه المستدير ولباسه الرياضي الغير متكلف، لقد رأيته من قبل ولكن الذاكرة لا تسعفني الآن ، شكله غير مصري بل هو أقرب للشكل الخليجي المألوف لنا نحن المصريون، تظهر عليه مخايل العلم والتفتح ، ومعهم رجلان أخرين يشبهان (كرعون) الرابض على أريكتي، هرعوا جميعًا إليه يقلبونه بين أيديهم بينما وقفت أنا في لمحة غرور لم أستطع إخفاءها، أولًا لكوني بريء تمامًا من فعل أي شيء ، وثانيًا لأنهم هم من اقتحموا داري، وثالثًا لأنني ضحية الموضوع من أساسه وليس لي به أي علاقة.

-أنا.. أنا.. حسسسسسام.. أنا حسسسسسسام أنا..

نظر اللواء (الصفواني) لي طويلًا يستشف أي شيء فأصررت على الثبات، بل وخططت أن ألقي باللوم كله عليهم وعلى طليقته التي ورطتني فيما لا أعرفه.



- أنا فوجئت بيه هنا عندي في البيت، واضح إنه دخل قبل ما أوصل.

- أنا.. انننا.. أنا.. حسسسسسام

أشار لهم اللواء بأن يأخذوه الآن ففعلوا وهم يجرونه جرًا وهو هائم بينهم كأنه تحت التخدير الطبي.

يا لها من تجربة لن ينساها هذا الضابط إن استمر ضابطًا ولم يتحول لمجذوب تائه على أبواب المساجد.

لتنفرد الشقة بثلاثتنا، كان اللواء مسعد على قدر غير عادي من الروح العملية، بل إنه تخطى كل التفاصيل التي تخص الضابط ودخل مباشرة في الموضوع..

- أعرفك بالدكتور (لؤي نايف) عالم اللغويات السعودي الشهير.

ثم أشار لي..

- تامر عطوة الباحث الروحاني المصري وخبير فلكي.

تصافحنا في ود واحترام متبادل فاستأنف اللواء كلامه بنفس الروح العملية.

- من حوالي ثلاث ساعات أرسل لي الرائد حسام صور..

نظرت له مستفسرًا فأجابني بسرعة:

- الصور اللي صورتها لمروة، والدكتور لؤي أصر على مقابلتك بنفسه.

رحبت بالعالم كثيرًا، نعم لقد تذكرته ولقد رأيت له عدة أبحاث في اللغة الكلدانية والسومرية والسريانية أيضًا، اقترحت عليهم أن نكبر الصور على الكمبيوتر لكي نراها بشكل أوضح، كان الجو يوحي بصداقة عتيدة ستقوم الآن بيني وبين ذلك العالم السعودي ذائع الصيت في مجاله، وتوجه ثلاثتنا للشاشة حيث قمت بتفريغ الصور على شاشة الكمبيوتر وفتحتها على برنامج الفوتوشوب العتيد، ثم قمت برفع درجات التباين حتى تتجلى تلك الحروف أو الطلاسم واضحة أكثر، أنا متخصص في الفوتوشوب بحكم عملي القديم كمصمم جرافيك وهذا أمر سهل علي، ومع الجودة المنخفضة للصورة بدأت أعمل بسرعة أمام أعينهم، إلى أن وضحت الرؤية إلى حدٍ ما. وليقوم لؤي بترجمة حرفية دقيقة.

- اللغة هي مزيج بين السريانية والسومرية القديمة، والترجمة المبدئية تقول: (أولاد الضوء قادمون.. ولتحيا دولة عزازيل)

وتكلم الدكتور(لؤي) بما لا يخطر على بالي أنا شخصيًا، فبالرغم من حالة الضابط التي كان من الممكن أن تستحوذ على أفكارنا، كان الموضوع الآخر له من الثقل ما أنساني انتصاري الزائف على من اقتحم داري

***

لم أكن أعرف أن الموضوع له ذات الخطورة وأن المعلومات تتعدى خطر المس أو السحر أو أي شيء آخر يتعلق بالطقوس والطلاسم، لقد كان الدكتور لؤي صريحًا عندما قال لو صحَّت هذه الصور فإن شيء ضخم قد جاء فعلًا للعالم وهو في ثقل معلومة موعد المسيح الدجال نفسه.

- هو ليس المسيح الدجال ولكنه سفيرًا مختلط الجينات بين الشيطان وبين الإنسان، وهم في الحقيقة كثيرون ولا يمكن الاستدلال عليهم، ولكنهم يملكون مواهب مدمرة تصل لحد الانتحار الجماعي أو إشعال الفتن الكبرى، هم بلا أي مبالغة مجموعة من الخارقين المدمرين، ولكنهم في ثوب المنطق الإنساني نفسه فلا معجزات ولا خوارق ولكنهم سرطان يأكل في أحشاء الناس ببطء وتمكن ويضرهم أيما ضرر في عقيدتهم وأخلاقهم، والسلام يكمن في أنهم يتعاملون مع المواد اللاهوتية (يقصد الدينية) بلا أي ضرر أو احتراق يحصل لهم، لكونهم نصف آدميين.

سألته وقد حار عقلي عن معنى أولاد الضوء وهل هذا بمثابة تحذير:

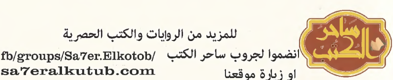
- إنها رسالة مفادها أنهم وصلوا عن طريق تزاوج إنسية مع شيطان متلبس في شخص معتز، لأن الذين يعبدون الشيطان في الغالب لا يتزوجون وتكون حياتهم الجنسية قائمة على التلذذ الذاتي والنكاح الضمني في خيالهم، أما عندما يتزوج العابد الكافر فإن الشيطان هو من ينكح ويضع البذور سريعة النمو وفي حالتنا هذه لم يكن أي شيطان بل هو له من علو الشأن ما يثير الرعب، إنه ابن قوى الظلام أو إبليس شخصيًا، ويكون الحمل في أسابيع قليلة كما أن المواليد لهم قدرة فائقة على



النمو والاندماج الفوري في المجتمع الذين يعيشون فيه، وبوجودهم تحدث الكوارث والبلايا والفتن والأوبئة والأزمات الاقتصادية الطاحنة والمد الإلحادي والقتل وسفك الدماء والإباحية، إنهم بلا أي مبالغة نذير الشؤم والتغيرات الكبرى

***

انصرف الرجلان من عندي بعدما رميا بالبؤس والقنوط في وجداني، إن الموضوع أكبر من التدخل الشخصي، كما أن ضبابه كثيف ولا يُصدَّق بما لا يقاس ومتشعب بين أمور شخصية وكوارث عامة، الدكتور لؤي يؤكد أن حالة مروة ليست الوحيدة وأن العشرات وربما المئات من النسخ من هذا الجيل قد تم إنتاجهم وتوزيعهم على مختلف بقاع الأرض وأنهم قادرون على التشكل ببشر حقيقيين لهم تاريخ وسمعة وشهرة وتأثير ضخم، إنهم الأسياد الجدد والذين لا يهدفون إلى ثروة أو استيطان كما كان الأشرار في السابق، إنهم يريدون محو العقيدة والتأسيس لحكم الشيطان على الأرض، إن فكرة المسيح الدجال أقرب للدراما من تلك الفكرة المشؤومة المحكمة الصنع والتخطيط، لكن هل مروة ساهمت بإنتاجها فعلًا من زواجها من معتز؟ أظن أن الموضوع يميل للرمزية أكثر منه واقعًا ملموسًا، صحيح أنني شاهدت التلبس الشيطاني بأم عينيّ بل وصورته أيضًا ولكن الموضوع بدا أنها تلامس عالي الفولت بين الروحانية والبشر ليس إلا، إن الأسئلة تدور في بالي أكثر من المعتاد وتسبب دوارًا عميقًا لي، لقد مضت أكثر من خمس ساعات كنت قبلها أريد النوم والراحة، ولكنني الآن مفتوح العين ساهدًا لا أريد النوم، لا بأس أبدًا سأخرج قليلًا، وبالفعل بعد نصف ساعة كنت أمشي في الشارع وحيدًا، إن المشي يساعدني على صفاء الذهن فعلًا ويجعلني أبحر بأفكاري إلى ما لا نهاية، أنا الآن أمشي في شارع محمد فريد بالقرب من بنك مصر العتيد، إن تلك المسافة الطولية من الشارع يعتريها الصمت المطبق إذ إنها مكونة في الأساس من مجموعة من البنوك بلا عمارات سكنية مما يجعلها مرتعًا للأشباح ليلًا، الهواء يضرب شعري في خلاط وهمي استمتع بدفقاته أيما استمتاع إلى أن سمعت من ينادي من خلفي..



- تامر.. يا تامر..

التفت ورائي لأجد رجلًا في منتصف الأربعينات أو أكثر بادي القوة يحمل ملامح ريفية ملتزمة ويحمل عينين نفاذتين، توقفت فاقترب مني بتؤدة متمهلًا، لابد أنه يقيسني كما أقيسه أنا، شيء ما في نفسي يقول إنني على موعد غير عادي مع القدر.

- أنا معتز يا تامر.

قالها الرجل ببساطة لتتسمر قدماي في الأرض من الرعب الداخلي، إنه هو فعلًا معتز بأوصافه وشكله الذي تخيلته، ولكنه كان على قدر من الوقار والصمت الحزين شيء في تصرفاته يوحي بأنه على بعد خطوات من الانتحار، تظاهرت بالثبات وتابعت المشي وهو إلى جواري، أنا أمشي برفقة شيطان إنسي ارتكب من الفواحش ما تقشعر له الأبدان، وفي مقهى قريب من ميدان الأوبرا جلسنا كأننا أصدقاء.

-أنا متأكد إنك تعرف عني كل حاجة.

-....

-أنا عملت اللي فوق ما تتصور كمان، كفرت وقتلت وتعاهدت مع الشيطان وأقدر أسوي الهوايل وأنا قاعد معاك ودلوقتي كمان لو حبيت.

انتابني القلق مما قد يفعله هذا المجنون، إن استهانته بحق نفسه لخير دليل، وأنت لابد أن تخاف ممن لا يخشى على نفسه، وأنا الآن في حضرة رجل تجاوز الضياع وأبرم الصفقة التي ليس بعدها شيء، تظاهرت بالثبات أكثر وأنا أحاول اعتصار ذهني عن آيات من القرآن تحميني منه ولكن عقلي مشتت وأي حركة مني ستعني هلاكي المؤكد.

-أنا كنت حاضر جلستك مع حماتي ومراتي وأختها وماهيتاب كمان، كنت بسمع كل كلمة ونفس وحركة، وعارف إن حمايا اللواء كان عندك النهاردة، وممكن أقلب الدنيا على دماغك في لحظة وأزهق روحك من جسدك بكام كلمة أقولها بس.

- بس أنا ماليش ذنب في أي حاجة بتحصل أنا مجرد واحد متورط في الموضوع.

- أنا عارف لكن القبور مليانة بجثث المتورطين برضه.

أسقط في يدي، نعم القبور تعج بالفضوليين والمتورطين والأبرياء أكثر من المجرمين والقتلة، أكثر بكثير.

- وإيه المطلوب مني؟

-أنا قبل كده بعتلك رسالة بإنك مطلوب، واللي طالبك مش شيطان ولا عفريت اللي طالبك أنا.

تذكرت أحلامي المفزعة وذلك الخواجة وقت صلاة الجمعة وذلك الكيان الرابض أمام مدينة الإنتاج وقت فض الاعتصام.

- وعايز مني إيه؟

-عاوزك تحكي حكايتي للناس وتقولهم إني ماكنتش عاوز كده خالص، الظروف والغدر والخيانة والفقر والمطاردة هما اللي عملوا مني كده.

لقد تغيرت النبرة إذًا، إنها الآن تلبس لون الاستعطاف الأزرق بعدما خلعت ثوب التهديد الأحمر.

- اسمع مني أنا الحكاية من أولها.

وانطلق معتز يحكي بالتفصيل ما حدث له ومعه من أول الخلوة في الفيوم قتل ماهيتاب وحرقها في شقتها.

- يعني ماهيتاب ماتت النهارده؟

- من حوالي كام ساعة كده أو أنا اللي (سلّطت) على البيت بالحرق.

- طب وابنك النبيل؟

اعتري ملامحه عوار مخيف قاسي وهو يقول:

- مش ابني، أنا كنت مجرد ماسورة مفتوحة من الجنبين مش أكتر، وماكنش ليا أي اختيار، صحيح إني نفذت انتقامي كله، لكن كان التمن إني أكون مجرد مرضعة لابنهم هما، وأصلًا الولد رحل بعد ما بقى راجل وقور وملتحي زي أعظمها شيخ.

- طب آخر سؤال.. مين اللي وجهك ودلك على الدنيا دي؟

- واحد ساحر كنت بروحله زمان عشان يساعدني في صفقات المعمار، وكنت

باخد برأيه في أي شغلانة كبيرة، اسمه (حشمت).

تدلى فكي الأسفل ببلاهة..

- حشمت بتاع المنصورية؟

- أه انت تعرفه؟

-...

إذًا إنه أنت يا حشمت الكلب، إنك أنت المخاط الذي يربط كل الأعضاء ببعضها، لقد كنت تعلم بموضوع النسوة الأربع، وكنت تعلم بمعتز أيضًا، وكنت تتابع الموضوع عن طريقي، وكنت..

- هو حشمت يعرف عايدة أصلًا؟

- دي عشيقته في الأساس وكانت بتجري وراه عشان يتجوزها بعد ما طلقها جوزها، بس هو كانت عينه على مروة وطلها منها، وعايدة رفضت بسبب الغيرة عليه لأنها بتعشقه، وكل نسوان العيلة دي كانوا زباين عنده لكن كل واحدة ماتعرفش إن التانية بتروحله، وهو اللي عرفني على ماهيتاب أول مرة وشرحلي قصتها، وهو اللي شاور لي على مروة ونصحني بالزواج منها، وهو اللي كان بيمدني بالفلوس في مقابل إني أحقق كل رغباتي.

- طب إيه السبب في إنه يعمل كل ده؟ هو مستفيد إيه؟

- سألت نفسي السؤال ده كتير ومالقتش أي إجابة منطقية، حشمت محصن نفسه كويس وهو أقوى مني في موضوع الروحانيات ده وليه في حاجات كتير أوي واتصالات على أعلى مستوى.

إن الغيمة تتكشف الآن لتعطي شكلًا متماثلًا للأحداث، إن حشمت يقوم بمهمة يعلم الله فقط بها، ما الذي يجنيه من دمج كل تلك العلاقات مع بعضها وكيف له بالسيطرة على الجميع بما فهم معتز شخصيًا، تذكرت كيف كان يتقرب لي بإسم الصداقة، وكيف أنه على دراية بكل شيء وأنه من رشحني لعايدة حتى تأتي إلي راجية الخلاص من معتز.



قاربت الجلسة الجبرية لمعتز على الانتهاء فقد بدأ الصمت يسود وحانت مني التفاتة للرجل وسألته بصدق وحيرة بعدما سمعت منه:

- وانت ناوي تعمل إيه يا معتز؟

نظر أمامه لبرهة ثم رفع وجهه للسماء ويا للدهشة التي ظهرت على وجهي، لقد انداح من مقلتيه خيط من الدموع وهو يقول بحرارة:

- ناوي.. أتوب.

***

قبيل الفجر بقليل بالقرب من ميدان طلعت حرب بوسط البلد

مسجد الرحمة بشارع صبري أبو علم يستعد وفتح أبوابه العالية ليستقبل المصلين، وعلى سلم الجامع كان يجلس شاب ملتحي آية في الوسامة والضياء يشع من عينيه الملونتين، كان محط أنظار المصلين، يثير فيهم الإعجاب والتعجب من قدر وسامته وجاذبيته، كانت علامات الخشوع تظهر متجلية على محياه الرقيق، وما إن انفتح الباب حتى هرع للداخل، ومضى أولًا «للميضة» كي يتوضأ ثم حضر صلاة الفجر حاضرًا، إنه النبيل، ثم استأذن المؤذن الأصلي وهو شيخ كبير بالعمر كليل النظر في أن يؤذن الإقامة للصلاة، فلم يمانع الرجل وخصوصًا إن تلك الإقامة تكون سريعة ولا يشترط فيها الترتيل أو التنغيم المصاحب أصلًا للأذان، وما إن وقف الشاب الجميل أمام الميكروفون حتى انطلق منه صوت عذب جدًا يذيب قلوب المستمعين ونادى في الناس بالصلاة، كان أداؤه مبكيًا وكان أجراس الملائكة ترن في صوته فقد خلب لب المصلين لدرجة أنهم طلبوا منه أن يؤممهم في الصلاة لجمال محياه ولسحر صوته، وبالفعل صلى بالناس كما لم يصلوا من قبل بل أن أكثرهم ذاق طعمًا للخشوع لم يختبره من قبل، وفي الليلة التالية ازداد عدد المصلين في الجامع فكل رجل أتى بزوجته وأولاده ليصلي بهم الشاب الفجر حاضرًا وعلى مدار أقل من أسبوع كان مسجد الرحمة القائم بالقرب من ميدان من أهم ميادين القاهرة يزخر بعدد متضاعف من

المصلين في سابقة لم تحدث قبل ذلك ولم يرها الناس وفي أقل من أسبوع صارت صلاة الفجر بكثافة صلاة الجمعة بسبب ذلك الشاب الساحر الذي جعل قلوب الناس تخفق لصلاة الفجر فقط لكي يحضروا في وجوده وليسمعوا تلاوته التي لم يسمعوا بها من قبل، وتناقل الناس أخباره فيما بينهم، وتكلموا عنه وعن خشوعه وجماله وحلاوة الصلاة في حضوره، بل إن الأمر ذهب لأكثر من ذلك لقد بات الناس يذهبون إليه بالهدايا والعطايا المختلفة، وهو يقبل عليهم بشيء من التحفظ، كان كلامه قليل جدًا لدرجة أن الناس كانت تستحثه على الكلام وهو لا ينطق إلا بتلاوة ساحرة للقرآن، ثمة شيء كبير يتحرك في الأفق يا نبيل، أأنت من تحركه أم أن الأمر فيه شيء أعلى من قدراتك.. لقد صار الرجل قدوة للكثيرين من الشباب والشيوخ، لقد أحبه الناس لدرجة العبادة وصار حلمًا جميلًا مجسدًا في شخص رجل جميل يتلو القرآن ويؤمم الناس في صلاة الفجر فقط، ثم بدأ الناس يؤثرون أنفسهم عليه ويشتكون من همومهم عنده بل وطال الأمر لجلسات علاج بالقرآن يتم فيها الشفاء المبهر لدرجة أنه ذاع صيته بسرعة أكل النار للهشيم وبات الشيخ نبيل بهاء الدين..

ماتت ماهيتاب شرميتة، لقد وجدوا الجثة متفحمة تمامًا، يظهر عليها صرخة متجمدة من الرعب والحريق القاسي، وتم دفن الجثة بسرعة في حضور إخوتها الرجال وعايدة التي كانت على حال من الانهيار والحزن أما أمها فكانت صامتة لا ترمش، كان قلبها يخبرها بأشياء لم تظهر على محياها ولكنها التزمت الصمت، وأغلقت الشقة المتفحمة محتوياتها وصارت لغزًا لسكان الحي حتى وصلت شكاوى عدة من الجيران بأن ثمة حركة تحدث ليلًا في الشقة وأنهم يسمعون أصوات صراخ متواصل، أو يرون انعكاس اللهب عبر شرفات المبنى المتفحمة حوافه، وعبثًا حاول الجيران التوصّل لحل بعد أن عبرت شهرة الشقة الشارع ووصلت لعموم الجيران في الحي، وكان الناس يطلقون عليها شقة المحروقة، أو شقة الجن وبدت أنها ستكون مزارًا سياحيًا وعبرة لمن اعتبر.

***



كالمقبرة القديمة صارت «عايدة» مهدمة ضائعة لا تعرف لراحة البال طريق، «مروة» طريحة الفراش الطبي تعاني من غيبوبة متقطعة ،حتى في لحظات يقظتها بدت كالخيال بلا ملامح تقريبًا بينما أمها على حال لم يكن بأفضل أبدًا علاوة على ابنه غائبة لم يعرفوا لطريقها طريق، خفّت زيارات الأب لدرجة أن زيارته لا تتعدى الدقائق المعدودة وظلت تخفت إلى أن اختفت، مكتفيًا بالرعاية المادية المحددة بتكاليف الرعاية الطبية فقط، أصبح البيت رماديًا ثقيلًا على النفس يطرد منهم روح الابتسامة؛ مرارًا حاولت عايدة التواصل مع (حشمت) ولكن الأخير كان يهرب منها كما يحدث بالضبط في الأغاني الشعبية، باعها بأبخس الأثمان ورفض مساعدتها، خفقت التجارة وبان أن النحس هو لغة الأيام القادمة، موت ماهيتاب القاسي أثر في نفسية عايدة كثيرًا وساعد في هدم بنيانها في أكثر من موضع، لم تعد تلك البدينة الصاخبة الممتلئة بالنعمة، بل صارت أقرب لأرملة وحيدة بلا عائل إلا ما كانت تختزنه عنوة من ربحها السابق، تجهمت الحياة في وجهها فانعكس ذلك على ملامحها الصاخبة سابقًا، وفي ذات صباح رن الهاتف برنة كانت تتمناها، كان اتصالًا من (حشمت) يريد بعض المئونة من البودرة المخدرة، تجلجلت عايدة في الهاتف بعتاب يائس له، يا من كنت حبيبًا صرت لا تعيرني أقل اهتمام وبت تهرب حتى من سؤال وجب عليك بحكم عشرة العمر، لم يستقبل (حشمت) عتابها بجدية وإن داهنها في خبث كبير لم يخف عليها، فهي تعرفه وتعرف كيف هي قسوة قلبه، وبالفعل زارهم (حشمت) وانفطر قلبه لوعة على القابعة في غيبوبتها وتحسر على جمالها الأخاذ والذي كان يضوي بعينيه وقلبه.

- إحنا اتبدهلنا يا حشمت.

-.....

- مروة بقت شبه ميتة وهبة طفشت والظروف بقت زي ما انت شايف.

- كان هيجري إيه لو وافقتي على جوازي من بنتك يا عايدة.

نظرت له بحدة واقتلعت ربطة رأسها السوداء لتظهر جذور شعرها الأبيض وفحت في وجهه قائلة:

- مستحيل أوافق يا حشمت إني أدخل الراجل اللي كنت بنام معاه على بنتي.

نظرة قارحة تبدت على محياه الوقور وهو يقول:

- عمومًا أنا صرفت نظر عنك وعنها.

وقام من مجلسه وتوجه للباب مغادرًا، فلم تتحرك عايدة من مجلسها بل لم تنظر له حيث توجه، فنظر لها مليًا وقال قبل أن يغادر:

- في شيخ اسمه بهاء الدين موجود كل صلاة فجر في جامع الرحمة في باب اللوق، ممكن يساعدك في موضوع بنتك.

نظرت له باستخفاف فعاود الكلام وهو يقترب منها مجددًا..

- ده عالج حالات صعبة جدًا أسوأ من حالة بنتك وممكن أوصلك ليه بنفسي.

تبدى أمل خافت على ملامح عايدة وإن لم تحرك ساكنًا فبادرها قائلًا:

- هعدي عليكي النهاره ونروح وسط البلد، أنا عارف أوصلك ليه ازاي.

هزت رأسها بالموافقة الضمنية فغادرها على أن يعود لها قبيل الفجر لمقابلة شيخنا الوقور بهاء الدين.

***

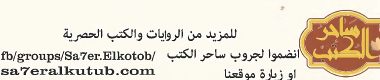
كانت الظلال تطارده أينما حل، يراها بوضوح رؤيتك لطعام لا تحبه، تطارده في كل مكان بلا كلل، هائمًا على وجهه صار بلا مأوى ولا شاطئ يرسو عليه، يأكل كيفما اتفق وأينما تواجد المحسنون، لم يفارق عقله مشهده وهو يحاول دخول المسجد العامر في السيدة زينب، لقد تحجرت قدمه وثقلت على إرادته، لم يستطع رفعها ليخطو عتبة المسجد، بل وقع أمام الباب كمن ينهار تحت حمل ثقيل، تكاتل الناس من حوله مسعفين وقد ظنوا أنه طارئ حل بصحته، ولكن ما إن ابتعدوا عن باب المسجد إلا وقد قام صحيحًا معافى، نظر الناس له بتشاؤم وابتعدوا عنه وقد ظهر لهم شيطانه في ملامح وجهه، إنه ملعون مطرود من رحمة الله، يجب أن يدرك أن التوبة ليست بالنية ولا بالعزم ولا بالإرادة، يجب أن يغرق في بحار القار ويسبح في المستنقع، حاول مرارًا وباءت كل المحاولات بفشل مؤكد، حاول أن يتوضأ فانداحت منه سوائل



النجس، حاول أن يصلي فتولاه الشيطان بتخبط المس المؤلم، ضربه اليأس في مقتل وتحول إلى جوال هائم ينام في الخرائب، تبدل حاله من قوة إلى ضعف شديد وهزال جدير بإعلانات الشحاذة التي تملأ شاشات التلفزيون.

أوصلته قدماه إلى مقابر السيدة نفيسة، إنه يرتاح نسبيًا وهو إلى جوار المسجد الكريم اتخذ من قبر مفتوح مأوى، يواصل التضرع بينما تجلده الشياطين بسوطها في رأسه، لا مفر أيها الطيني لقد بعت وقبضت الثمن ولا سبيل ولا إمكانيات للتراجع، لقد طردت نفسك من الحظيرة وامتلأت بالأورام، لن تقبلك الحظيرة مرة أخرى، لن يقبلك البشر، إنهم يخافون منك ولا يريدون الاختلاط، انتشرت الدمامل على جلده كما الزخارف، تحكي حكاية من باع واقترب وضل، رأي بأم عينيه الدود يسري تحت جلده وهو ما زال على قيد الحياة، لاح له شبح الانتحار كحل نهائي، لكنه يرى أن في قلب الصخرة نبتة قد تستفحل شجرة، اليأس يضرب بالسوط والأمل يتأوه مكبلًا بالسلاسل، قام من رقدته وولي نفسه تجاه الشرق وسجد، نعم سجد، بل ارتمى على وجهه تنضح منه العفونة، يريد بشدة أن يتوب، وان يعفو الله عنه، حاول أن يبكي، أن يتضرع، لا فائدة، تحجرت عيناه عن الدموع، وعزف قلبه عن الأمل، هل من مفر، قاوم نفسه وقام من رقدته المفعمة بالديدان، لقد صار جثة آخذة في التحلل، خرج من قبره وتوجه لميدان المسجد، الناس تنظر له باشمئزاز عميق، حتى المجاذيب وشحاذو المنطقة عزفوا عنه، حسبوه يستجدي شيئًا، إن مظهره قادر على طرد الرحمة من القلوب، العين الغائرة الشرسة والجسد العفن النابض بالدمامل والهيئة الرثة المبرقشة بالقذارة، اقترب من كشك لبيع السجائر فنظر له صاحب الكشك بقلق ورفض، وقف أمامه متصلبًا ينظر للهاتف المعلق بالحبل يسار نافذة الكشك، نظر له راعي الكشك في قلق أكبر، هل يريد ذلك القبيح أن يخطف الهاتف كما حدث مرارًا معه، الوقت متأخر جدًا والفجر على وشك الانبلاج، لا مارة في الشارع في هذا الجو البارد، اقترب معتزمنه فخرج الرجل عن صمته وصاح:

- عاوز إيه..؟



وقف معتز طويلًا قبل أن يشير للهاتف ويقول من بين أسنانه بصوتٍ مملوء الصديد:

- عاوز مكالمة.

***

قبيل الفجر بقليل في وسط البلد، جلست عايدة في السيارة بعدما غادرها حشمت متوجهًا للمسجد، تنظر عايدة بدهشة إلى جمع المتواردين على المسجد، بالفعل العدد يكاد يقترب من أعداد المصلين في صلاة الجمعة نفسها، الناس تأتي فرادًا أو في مجموعات أسرية من كل حدب وصوب، غريب أمر ذلك الرجل الذي استطاع أن يجذب للمساجد من نسي الصلاة، ثم سمعت الأذان بصوت عذب رائق التفاصيل، بكت في جلستها وحيدة، ثمة جوًا من الروحانية الغامضة يحيط بالمسجد الكبير، سمعت الشيخ وهو يؤم الناس للصلاة، فأيقنت أنها على باب الشفاء، ترجلت من السيارة واقتربت من المسجد وجلست على سلمه تبكي، انتهت الصلاة وانتظرت طويلًا إلى أن عاد حشمت، توجه إليها فقامت من مجلسها فتهلل وجهه بالبشر قائلًا:

- روحي اقعدي في الكرسي اللي ورا الشيخ وافق ييجي.

لاحت في عينيها فرحة وخفت حركتها وانتقلت لتجلس منتظرة في المقعد الخلفي.

فذهب عنها حشمت لوقت ليس بالقصير، النهار الوليد يلون المباني بالأرجواني الخافت، تعلق نظرها تجاه باب المسجد إلى أن خرج حشمت مهرولًا أمام رجل يملك بهاء الصباح، لقد انبلج الصباح عن وجه الشيخ نبيل بهاء الدين، رجفة تسري في أوصالها وهي تراه يقترب من السيارة، فتح له حشمت الباب في خضوع وخشوع كبير، لم تبصر حشمت بهذا القدر من التذلل من قبل، لكن نظرة واحدة في وجه الشيخ كفيلة بمعرفة السبب، الوجه الأبيض الوضّاء بالنور والذقن شقراء المخضبة بالأبيض والعينين الصافيتين الطازجتين، تكأكأ الناس يتحلقون حول السيارة كما لو كانت كعبة هبطت في الشارع، أنزل الشيخ زجاج السيارة ليعطي يده للناس كي يقبّلوها، يجلس حشمت خلف عجلة القيادة منتظرًا أن يعطيه الشيخ الأمر، الناس



يحجبون الطريق طامعين في التواصل معه وهو يعطيهم بتؤدة ووقار ابتسامته ودعاءه وبده ليقبلوها، بان الأمر كمظاهرة خشوع وحب للرجل وازدادت أعدادهم لدرجة أنهم سدوا الطريق أمام السيارة ولكن الرجل حسم كل هذا التجمهر بإشارة من يده، فمثلوا طائعين بسرعة استجابة عجيبة وانزاحوا من أمام العربة صانعين طريقًا ضيقًا، فأشار الشيخ لحشمت فأدار المحرك وتحركت السيارة بحملها الثمين ويممت شطرها وجهة حدائق الهرم حيث ترقد (مروة).

***

المكان مقهى الفيشاوي بحي الحسين العريق قبيل الفجر بساعة. الصقيع يحول الأجواء لساحل من البخار وقد خفت حركة المارة في هذه الساعة المتأخرة من الليل. جلس إلى جواري الدكتور (لؤي نايف) يمتص نارجيلته التفاحية بعدما عرضت عليه التسكع الليلي بحي الحسين تمهيدًا لحضور صلاة الفجر في المسجد الشهير. لقد عُقدت صداقة عميقة بيننا نظرًا لاهتماماتنا المشتركة . فأنت لا تجد كل يوم صديق يهتم بالطلاسم واللغات الميتة بل هو متخصص فيها، كما أنه مهذب لطيف المعشر غير مستهلك للدنيا مستمع بعمله وأبحاثه وهو ما جذبني إليه، كنت أستمتع بالحديث معه أستقي منه معلومات مرهقة ما كنت لا تفرغ لأعرفها. لقد أغراني بأن أدرس اللغات السريانية والآرامية، ولكنني استبعدت ذلك نظرًا لكثرة انشغالاتي الأخرى وكفاني اهتمامي بالموضة والأبراج والنفسيات والتأليف والإخراج. قد أغير رأيي فيما بعد ولكن ليس الآن فأنا الآن عبارة عن حقيبة بها كل الأدوات ومخزن لكل اهتماماتي الخاصة. أشعلت سيجارتي (السوبر) طويلة التيلة فنظر لي صديقي ووضع مبسم الشيشة جانبًا واستعار من علبتي واحدة له. فضحكت لأني باستمرار هدف لاستعارة سجائري من قبل الآخرين، ربما لأن الناس يرونها بضاعة منقرضة أو تليق بالكهول من الموظفين ولكنني أفضلها على أي ماركة أخرى أخرى بل أعتبر أن مدخني السجائر السوبر مميزون بما أتميز به أنا، تسألوني عن هذه الميزة التي تميزني أقول لكم لا أعلم ولكن لابد أنني مميز في شيء ما، إلى أن رن هاتفي المحمول برقم غريب، شيء ما يقول

لي أن هذه المكالمة ليست على ما يرام، هل تعرفون هذا الشعور الخافت عندما يرن الهاتف في وقت معين يثير ريبتك وحذرك، فتحت الخط بعد طول تحديق في الرقم.

- ألو..

- ألو..

- مين معايا؟

- أنا معتز.

حانت مني التفاتة لصديقي الذي لاحظ امتقاع وجهي فشاركني الاهتمام وكأنه يسمع المكالمة.

- معتز؟

- تامر أنا بموت خلاص تعلالي عشان فيه حاجة أخيرة أحب أقولهالك قبل ما أسيب الدنيا.

- أنت فين؟

- أنا في ميدان السيدة نفيسة جنب كشك السجاير.

سرحت لبرهة، ما الذي يجعلني مهتمًا بقضية معتز، ربما لأنني أجد أنها قصة جديرة بالتدوين أو ما إلى ذلك، ولكن شيء ما يشدني أن أكمل بقية هذه القصة.

- انتظرني أنا هجيلك حالًا.

أغلقت الخط وقد انقلب مزاجي للجدية والإثارة الكبيرة وقلت لصديقي وأنا أنفح الجرسون حسابه.

- يالا بينا يا لؤي..

- على وين؟

- هنقابل.. معتز.

قام صديقي من فوره مستجيبًا ومولا يعي الموضوع بشكل كامل فبادرته قائلًا:

- ده معتز جوز بنت اللواء صفواني وأس البلاوي كلها.



اشتعلت الهمة في صديقي وخرجنا لنهر الطريق مسرعين واستقللنا سيارة أجرة للمقطم.

***

كان الصمت هو ما يلف الجميع في السيارة، حشمت يقودها إلى منطقة حدائق الأهرام ملتزمًا هو الآخر الصمت، أما عايدة فقد انكمشت في مقعدها الخلفي وتكاد نظراتها تخترق ظهر المقعد الأمامي حيث يجلس الشيخ الوقور، ثمة شيء يجعل الموجودات تصمت في حضرة هذا الرجل، شيء من الصمت الممزوج بالخوف، نعم الخوف وليس إحساس آخر، ثمة شيء يحيط بالرجل ويجعله معزولًا، كما لو كانت حوله بلورة من كريستال نقي، فأنت تراه ولن تعرف أنك لا تستطيع لمسه، استمرت القيادة لنصف الساعة قبل أن يصل الثلاثة إلى مبتغاهم حيث ترقد مروة، أوقف حشمت السيارة وهرع ليخرج منه ويتوجه إلى حيث الشيخ ليفتح له باب السيارة في كل تبجيل، نزل الشيخ وتوجه وحده إلى حيث باب البيت وفتح الباب الأمامي وصعد إلى حيث الدور الثاني، هكذا دون إرشاد أو توجيه، ذهلت عايدة واستبشرت بالفرج القريب، هذا الرجل يعرف كل شيء ولا يحتاج لأحد، توقف أمام باب الشقة القابعة مروة في إحدى غرفها، فتحت له عايدة الباب فدخل ومن ورائه عايدة ثم حشمت، فتوجه الشيخ نبيل من فوره إلى الغرفة التي ترقد فيها مروة، ووقف أمام بابها برهة يستمع، تابعته عايدة وحشمت وقد تحولوا لكومبارس صامت في حضور بطل الرواية، انفتح الباب من تلقاء نفسه بعد لحظات من الصمت، ندت من بين شفتي عايدة خوف وتوتر، لم يعيرها الشيخ اهتمامه ولا التفاته بل دلف للداخل ووقف أمام فراش مروة الطبي يتأملها، وقفت عايدة وحشمت في الخارج وقد منعتهم الرهبة من الدخول مباشرة ورائه، ثم بدا الفراش يدور حول نفسه والشيخ ينظر بتركيز فائق لوجه مروة الممتقع، يدور وتنخلع الأقطاب الواصلة لجسدها بعنف، ثم ارتفع الفراش كله لنصف متر متحديًا الجاذبية، ندهت هذه المرة صرخة زعر من عايدة، فنظر لها الشيخ بعينين تتقدان من اللهيب الأزرق النقي، ثم تحركت عيناه فقط

ليرمق الفراش السابح في الهواء ثم ينظر للأرض فيسقط الفراش بعنف إلى الأرض، يقترب منها الشيخ ويواصل النظر لوجهها، كان وجه مروة باهتًا جدًا من إثر الغيبوبة المتواصل ولكن العجيب أن عايدة لاحظت أن الدماء تعود للسريان فيها وبدا الوجه آخذًا في النضارة السابقة. اقتربت من الفراش بشوق لتشهد أهم لحظة انتظرتها طويلًا، فرفع الشيخ يديه لتنتزعها من مكانها وكأن شيئًا ما يجبرها على العودة لمكانها، تنفرج جفون مروة كاشفة عن عينها فبدت زجاجية صافية بلا شوائب، ثم بدا وجهها في التعبير عن عودة لأرض الأحياء، وحركت ساقها ويديها، معجزة تحدث وشفاء رائع بلا مقدمات، لقد قامت مروة نصف قومة على فراشها بينما تهدلت خصلات شعرها البني مساحة من صفحة وجهها، كانت سليمة كالكمان، مشدودة الأوتار وكأنها خارجة لتوها من رياضة عنيفة وليس طول غيبوبة وارتخاء، ثم دارت حول نفسها وانزلقت نازلة على أرض الغرفة لتقف أخيرًا وسط الغرفة كتمثال من نور.

***



نهاية معتز

استقللت سيارة أجرة ووجهت السائق إلى حيث مسجد السيدة نفيسة، كان لؤي على قدر من التوتر والإثارة فأخرج هاتفه وبعث برسالة سريعة على الواتس آب، سمعت رنة التواصل من مقعدي القائم بجانب السائق فلويت عنقي إلى صديقي أتساءل:

- دسيت رسالة لسيادة اللواء من شان يعرف.

قالها باللهجة السعودية المحببة فتوترت قليلًا، لم يدر ببالي أن للموضوع أصحاب حقيقيين هم من يملكون مقبض الأحداث ولست أنا، اعتراني قليل من الغضب حيث أنني بغروري البشري كنت أريد الانفراد بمحتوى القصة ولكني تراجعت إذ لابد من بعض الحماية في مواجهة لا أعرف نتيجتها ولا يمكن أن أتوقعها، من الواضح أن معتز على شفا الحفرة ويريد أن يلقي بنفسه أمام شهود، نبرة صوته كانت مفضوحة باليأس الكامل، واصلت السيارة نهبا إلى حيث ينتظر معتز وهي مسافة قريبة إلى حد لا تأخذ أكثر من ربع ساعة خصوصًا مع تلك الساعة المتأخرة، وصلنا لهناك بعد حوالي خمس وعشرين دقيقة، الميدان ناضح بالحياة استعدادًا لصلاة الفجر في المسجد الكبير، أجلت ببصري في الميدان فوجدت كشكًا بالفعل ولكن لا أثر لمعتز، تجولت أنا وصديقي وحاولت ألا يظهر على أنني أبحث عن أحد، لكن لا أثر لمعتز، رفعت هاتفي وطلبت الرقم الذي اتصل بي منه معتز، فرد علي بائع الكشك بتحفظ كبير لسبب لا أعرفه، ولكنه أخيرًا قال بأن الرجل توجه إلى المقابر خلف المسجد، فدرت حول

المسجد الكبير من الجهة الخلفية عساي أبلغه، كان صديقي الدكتور متوترًا خائفًا من الأضرحة والقبور التي تنتشر حولنا وذلك الصمت الأرجواني المندي بشبورة الفجر الوليد، اقترب مني ملتصقًا بي، بينما أنا في قمة إثارتي وأنا أبحث عن معتز، إلى أن سمعت صوتا ينادي:

- تاااامر..تاااامر.

فنظرت تجاه الصوت لأجد «معتز» هزيلًا يلبس الأسمال وقد بانت ضلوعه من شدة هزاله، تلمع عيناه بنظرة مجنونة تكاد أن تقفز من محجريها من شدة الضغط النفسي، تصارع البكاء بروح معذبة تعسة، تنعكس على بثور وتقيحات منتشرة في أرجاء وجهه وجسده وواقفًا بين شواهد قبور قديمة جدًا، ما الذي فعل بك هذا يا رجل؟ اقتربت منه فوجدته يمسك في يديه سكينًا رفيعًا ويضعه على رقبته.

-أنا.. أنا حاولت كتير أتوب. ربنا مش راضي.. أنا بشوف الدود بيزحف تحت جلدي.

اقتربت أكثر منه قائلًا في توتر وسرعة وقد اعتراني مشاعر إنسانية مجردة وتلوت عليه آية :

- قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا.

تراقص جسده بهزة كهربية عنيفة، بينما تصاعدت لخياشيمي رائحة خضراء أعرفها، ثمة شيء يتعلق بتلك الرائحة التي هي مزيج من عطن فواح بالعطر أو العكس، رائحة تذكرك بجو الأضرحة المهجورة، رائحة مزركشة بالزخارف، كان جسد «معتز» يهتز كما لو كان موصل بأقطاب عالية الطاقة، ابتعدت عنه قليلًا لا سمح له بالتمرغ والتشنج الجدير بالمسوسين، لا مجال أن أمسكه بيدي، فهو آية في البشاعة والتدرن المتقدم وكأنه ملسوع بألف ألف نحلة. الرائحة الخضراء المزركشة

تنتشر أكثر وأسمع أصواتًا تشبه تلك التي في حلقات الذكر الجماعي وكلمة الله.. الله.. الله تسري في نسيم الفجر كما يسري قطر الندى في عروق النباتات صباحًا، انخلع قلبي رعبًا وقد تذكرت، نعم نعم لابد أنه هو وقد أتى لها هنا لأنني بالذات موجود وأنا من قام بتحضيره سلفًا، إنها رائحة الشيخ (علي) ذلك الجن الذي حضرته من ذعري ولم أصرفه بعد، ربما يلعب الشيخ على دور الحارس الشخصي لي، لا أنسى ما حدث للضابط (حسام) عندما اقتحم داري في الأمس القريب، لقد قال شيئًا عن السيدة نفيسة وعن الفاتحة ولكنني لم أستطع تذكر كلامه بالتفصيل، هل سيلازمني أبدًا، إنه لأمر مخيف جدًا أن يلازمني جني مسئول عن المجذوبين، هل هو موجود حولنا الآن؟، لا أستطيع الجزم، ولكني لمحت بعض المجاذيب ينحدرون من الطرقات الضيقة للمقابر كما يتجمع الماء في البركة الواطئة، ويتشكلون كحلقة حول.. حول.. حول جسد «معتز» الذي تهاوى أرضًا وهو يتمرغ في التراب هل هم جميعًا من أتباع الشيخ علي؟، هل هم من الجن فعلًا، لا أستطيع الجزم فهم بعيدون عني وإن تبادر إلى خياشيمي رائحتهم الخاصة، لا. لا. لابد أنهم آدميين، تراجعت بخوف ورهبة كبيرة والتصقت بأقرب حائط، تذكرت صديقي الدكتور وتلفّت حولي ولكنني لم أجده أين ذهب ذلك الرجل، أتراه لم يحتمل ما يحدث، أعداد المجاذيب تتزايد وهم يتحلقون حول «معتز» الذي بدأ في الصراخ العالي، بماذا تشعر يا معتز؟، هل تشعر بالتمزق أو الاحتراق أو أي شيء من ذلك القبيل؟، قل يا معتز، ولكن الأخير بدى على حال من الألم لن أستطيع وصفه أبدًا، بدأ المجاذيب في هز رؤوسهم بطريقة إيقاعية، ثم تعالت شهقاتهم تمهيدًا لخلق حلقة ذكر كثيفة الصوت، الآن لا أرى جسد معتز بعد ما حُجب بأجساد المجاذيب، ثم رن في الجو طاقة مغناطيسية عجيبة إذ بدأت الأجساد في التمايل بانتظام دقيق وهي تقول، الله، الله، الله، بدأت الأجواء وكأنها تتمايل معهم على هزيم الإيقاع الذي يدب في قلبك، حتى أنا شعرت بأن كياني الداخلي يتمايل مثلما يفعلون وبنفس التمايل والدوران حول محور الجسم بنبضات محسوبة بدقة،

الحركة تزداد عنفًا وتصلبًا، إلى أن انتفض كل جسدي وأنا أسمع آهة طويلة مشروخة تخرج من خلفي لتشق الأجواء. آآآآه

انخلع قلبي ولويت عنقي بعنف لأرى مصدر الصوت، فوجدته على مبعدة مني بعشرين أو ثلاثين خطوة يجلس على التراب وبدا عملاقًا أكثر من المعتاد وقد اتقدت عيناه بلون أسود لامع، يصرخ بوحشية كما لو كان يزيد النار حطبًا ومن خلفه يرد المجاذيب بأن الله.. الله.. الله، كنت لا أتبين ملامحه ولكني أراه في عقلي بوضوح المصيبة، أدرت عنقي لأرمق المشهد من جديد، فوجدته أيضًا يتوسطه وقد احتشد الذاكرين حوله وحول معتز وهم يصرخون، كيف انتقل بهذه السرعة، ثم رأيته ينحني ويعود حاملًا جسد معتز الذي كان يتلوى من الألم ويصرخ بصوت لا يسمع بسبب عنف الذاكرين وزجرهم، كان الشيخ يرفعه كراية أو كعبرة للذاكرين، فجعلوا يلطمون ويضربون على أصداغهم وهم مستمرون بقول الله، الله، الله، «معتز» يصرخ بينما كفي الشيخ علي العملاقة تعتصره، فجأة اندلعت النيران تخرج من جسد معتز نفسه، نيران زرقاء ذات مارج أسود تندلع من بثوره وتقيحاته ودماملة، كانت كأنها صديد روحه نفسها تتقاطر من جسده على شكل نيران، التشنج العاتي يعتري ملامح معتز والدموع تتسارع من عينيّ، هو الله، الله، الله.

هو الله، الله، الله.

النار ما زالت تقطر من جسده والتفحم يلون لحمه للدرجة الجديدة بنضج اللحم نفسه، لقد همد الجسد وأسلم صاحبه الروح أمام عينيّ وتدلى لسانه خارجًا من رأسه الآخذ في الاشتعال، فألقاه الجن أرضًا وابتعد عنه وهو يشق طريقه بين المجاذيب الذين بدأوا في الخروج من المشهد بانسيابية الدخول بالضبط، فجأة اختفى الشيخ علي واختفت المجاذيب وبقيت أنا وحدي وجثة معتز المحترقة ملقاة على الأرض، ثم شعرت بيد توضع على كتفي، جفلت ولم أنظر لأن تأثري بالمشهد أكبر



من مجرد تجاذب أطراف الحديث مع صديقي لؤي، كل ما فعلته أن وضعت كفي فوق كفه التي تربت على كتفي، ولكني لم أجد أي يد، لقد وضعت كفي أنا على كتفي أنا، نظرت خلفي بذهول فلم أجد أحدًا على الإطلاق، تلفت حولي كالمجنون فلم أرَ أحدًا، لكن.. لكن.. كلّ من بعيد ألمح شخصًا واقفًا عند شاهد القبر القديم، أطلت النظر معتمدًا على الأضواء الكهربائية البعيدة، نعم نعم إنه هو، كان هو، إنه معتز، أو شبح معتز يقف ناظرًا للمشهد بهدوء، وسأعترف لكم بحقيقة مرة، إن كف معتز منذ تلك اللحظة تزورني من وقت لآخر أشعر بها تضع يدها على كتفي، أشرت له بالسلام فغادر، وقبل أن أفيق وجدت الدكتور لؤي داخلًا للحيز ومعه رتلًا من الرجال يتوسطهم اللواء مسعد الصفواني بنفسه.

***

تألقت السعادة على محيا عايدة وبدا أن الدنيا تنوي الصلح معها بعد طول نفور وعذاب، لقد شفيت مروة بمعجزة على يد الشيخ العجيب وعادت سليمة كالجرس، هرعت للمطبخ لتقدم كل ما لديها للضيف الغالي ولابنتها، لابد أنها جائعة بعد طول العيش على المحاليل، لقد تورّد خديك يا عايدة وبتِّ ترقصين داخل نفسك فها هي حبيبة قلبك عادت للحياة من جديد، عاد لك الظهر والسند والأنيس في شخص مروة ابنتك، كانت قد تركت (حشمت) وحده يدخن في الصالة بعدما تركت ابنتها تجلس قليلًا مع الشيخ، أدخلت لهما مشروبًا دافئًا، وهرعت لتحضر سفرة السعادة والاحتفال بالابنة العائدة، وفي غمرة تلك الأفكار شعرت بمن يضع يده على كتفها، جفلت وقد عادت نفسها بسرعة البرق لعالم الواقع، لتجد حشمت يلتصق بها من الخلف ويحتضنها، ارتبكت تمامًا فهي على موقف صارم منه خصوصًا بعدما صارحها في رغبته من الزواج بابنتها الكبرى مروة، ولكنه شدد على الالتصاق بها بعقد ساعديه إلى ما تحت صدرها، استجابت وهي ترفع حاجبًا وتنظر أمامها بحزم وقالت:

- انسى يا حشمت.

- ليه بس ما أنا عملتلك المصلحة خلاص والبت بقت زي الفل.

- لكن الموضوع لسه في دماغك برضه.

- أبدًا والله صدقيني وبعدين خلاص مروة بقت لغيري.

انفلتت من ساعديه المضمومين وواجهته قائلة:

- غيرك اللي هو مين؟

نظر لها حشمت بتركيز وكأنه ينومها مغناطيسيًا..

- الشيخ نبيل بهاء الدين طالب القرب منك في مروة.

* * *

اهتزت أعصابي تمامًا وأنا أرمق جسد معتز يحترق ذاتيًا ولولا وجود الدكتور لؤي وقت اتصال معتز بي لكنت في عداد المسجونين. وفسر رجال الشرطة أنها حادثة انتحار بسبب اليأس أو المرض النفسي. دفنت جثة معتز في مقابر الصدقة الملحقة بجامع السيدة نفيسة. مات معتز بعدما ذاق النار على يد الشيخ علي أبو الشراميط. لم أذكر ذلك في التحقيق. ظللت طريح الفراش لفترة لا يستهان بها وأخذت إجازة مفتوحة لحين انضباطي نفسيًا مرة أخرى.

* * *

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وقد آويت إلى فراشي مبكرًا على غير العادة. انتبهت جزئيًا على صوت حركة يأتي من الصالة. تجمدت في مكاني فأنا وحدي في الشقة، من عساه اقتحم بيتي. أنهض بهدوء لأخرج للصالة. لأجدني أنا وقد وقفت أمام المرآة الكبيرة الموضوعة في صالة منزلي، أنني أمسك بشمعتين حمراوين مشتعلتين بلهب عالٍ، أرقب نفسي وأنا أطالع لوجهي في المرآة. لا ضوء إلا ضوء

الشمعتين ينعكس بقوة على سطح المرآة المصقول، إن وجهي في المرآة يتحول لوجه آخر أكبر حجمًا، تبًّا، إنه قريني اللعين يقوم بفعل شيطاني لا أعرفه، ماذا تفعل يا ملعون، إنك تقوم باستحضار الشياطين بطريقة المرآة . ولكني غير قادر على إيقافك، لقد برز وجهٌ بشع على سطح المرآة، وجها تيسيًا مسحوبًا لأسفل بقوة الشر نفسها، يبتسم في حبور ويقول لقريني الواقف أمام المرآة:

- أحسنت يا ... تامر.

تمّت

تامر عطوة.

القاهرة ٢٠١٣

***



المسكون

لهبْ . لهبْ .... لهب لهب لهبْ
زيدي يا نااااار........ لونك دهبْ
ربى عَصيته .... إسمى إنشطَبْ
م الجنة طردنى .... سُخطه إنكتَبْ
بنى آدم هو......... أصل السببْ
هَصَب عليه .... جاااام الغضبْ
يقوس عضامه .... ضهره إنحدبْ
يعطن حياته .... نظره إكتئبْ
يدَوّب فى دمُه صديد التعبْ
ويكوى جراحه ...... وريده إلتَهَبْ
يشَوك منامُه .... يمُص الحطبْ
يعاشر شيطانه .... حاله إنتحبْ
يفضح مقاصده ... يدوسه الشغبْ
لهبْ . لهبْ .... لهب لهب لهبْ
زيدى يا نااااار........ لونك دهب

تصميم الغلاف كريم آدم



